

العزلة والمجتمع

تأليف: نيقولاى برديائف

ترجمة: فؤاد كامل عبد العزيز

مراجعة: على أدهم

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/رمزي ذكي

القاهرة

العزلة والمجتمع

تأليف: نيقولاى بردیائف

ترجمة: فــؤاد كامـــل

مراجعة: عـــلى أدهـــم



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٢

● هاام الترجمة لكتاب : Solitude and Society

● تاليف : Nicolas Berdyaev

● العزلة والمجتمع

العنوان فى الأصل الروسى هو «الأنا وعالم الموضوعات» ،
وعنوان الترجمة الفرنسية « خمسة تأملات عن الوجود »
Cinq Méditations sur l'Existence
ولكننا آثرنا عنوان الترجمة الانجليزية لأنه أكثر دلالة على
مضمون الكتاب .

بردیائف

عرض لآرائه واتجاهاته

بقلم : الأستاذ علي أدهم

نيقولاى ألكسندروفتش برديائف مفكر روسى ممتـــاز ، وكاتب شائق ، ومجاهد فى سبيل عقيدته لا يقبل المساومة ، ولا يعطى الليان . تقوم فلسفته على تجربته الروحية ، ورؤيته الحدسية ، ونزعته الصوفية ولا تعول كثيرا على التحليل المنطقى ، واختبار المفاهيم العقلية ، فهـى صدى لحيـاته الداخلية ومعتقداته اليقينية ، وقد اجتذب تفكيره الأنظار ، وذاعت شهرته ، ونقلت مؤلفاته الكثيرة الى لغات عدة ، وتناولها الباحثون بالعناية والتقدير .

وقد ولد برديائف سنة ١٨٧٤ فى مدينة كييف أول مركز للديانة المسيحية فى روسيا ، وكانت أسرته من أعيان الأسر الروســية وتلقى تعليمه فى احدى المدارس الحربية ، وفى سنة ١٨٩٤ وهـــو طالب فى الجامعة تحول الى الماركسية ، وتأثر بتعاليمها ومنهجها فى البحث والنظر وخلال السنوات الأربع التالية اعتقلته الحكومة القيصرية مرتين ، وفى المـرة الثانية ـ سنة ١٨٩٨ نفى الى فولجودا مدة سنتين ، ولما عـاد من منفاه أقبل بكليته على حياة بطرسبرج الفكرية . وأخذ يتحول شــيئا فشيئا عن الماركسية الى المثالية ، ولكنه لم يقطع صلته بالمفكرين الثائرين على النظم التى كانت سائدة فى روسيا . ولما حدثت ثورة فبراير سنة ١٩١٧ وكان ـ لمدة قصيرة ـ عضوا فى مجلس الجمهورية ، وبعد ثورة

اكتوبر فى السنة نفسها سجنته السلطات الشيوعية مرتين ، المرة الاولى سنة ١٩٢٠ لاتهامه بالاتصال بالفوضويين ، ولما ظهرت براءته أطلق سراحه والمرة الأخرى سنة ١٩٢٢ ، وكان قد عين أستاذا للفلسفة فى جامعة موسكو رغم اعلانه الخروج على الفلسفة الماركسية ، وقد أعقب اعتقاله فى سنة ١٩٢٢ نفيه من روسيا ، وقد ذهب فى بادىء الأمر الى ألمانيا ، وأخذت بوادر الحركة النازية تلوح فى الأفق فترك برلين سنة ١٩٢٤ قاصدا باريس ، واستقر به المقام هناك حتى وافاه الأجل فى سنة ١٩٤٨ ٠

وقد نشأ بردياثف نشأة أرستقراطية ، وحينما بلغ الرابعة عشرة بدأ يقرأ فى شوق وتطلع شوبنهاور ، وكانت ، وهجل ، ودفعه ضيقه بالطبقة التى ينتسب اليها الى دراسة الماركسية ، ولما نفى الى فولجودا كان أكثر المنفيين بها من الدمقراطيين الاشتراكيين ومن الاشتراكيين الثائرين ، وقد تحدث عنهم فى كتابه عن « الحلم والواقع » قائلا :

« كنت أحبهم ، فقد كانوا قوما ظرفاء مخلصين لفكرتهم ومثلهم العليا ، ولكنى كنت أجد الجو فى صحبتهم خانقا ، مملا يضيق على الانسان ، ويكاد يخمد أنفاسه ، وعلاوة على ذلك فقد واجهت مظهرا لم يكن بعد قد تكشفت حقيقته وأعلن وجوده ، وهذا المظهر هو ما يمكن أن أسميه اتجاه المفكرين الروسيين الى ايثار الحكومة الكلية ، وهى الحكومة التى تطلب خضوع ضمير الفرد لضمير الجماعة خضوعا لا تردد فيه ولا مراجعة » ٠

ومعنى ذلك أنه كان فى ذلك الوقت يقبل برنامج الماركسية الاقتصادى والاجتماعى ، ولكنه يثور فى الوقت نفسه على ما يراه فيها من اهدار للحرية الشخصية ٠

وفى أثناء اقامته فى بطرسبرج اتصل بأكثر ممثلى الثقافة الروسية فى ذلك العهد مثل الكاتب الروائى النقادة مرزكوفسكى والروائى سولوجيب والكاتب البحاثة رميزوف وغيرهم من أعيان المفكرين الروسيين ومل المقام فى بطرسبرج ، وانتقل الى موسكو ، واشترك فى تأسيس الجمعية الدينية الفلسفية بها ، وواصل الدراسة وثابر على الاطلاع والبحث ، ولما حدثت ثورة سنة ١٩١٧ رحب بها ووافق على الكثير من برنامجها ، ولكنه أخذ يعارضها بعد ذلك من وجهة النظر الفكرية لا من الناحية السياسية ٠ وسيتبين للقارىء خلال التحدث عن آرائه

واتجاهاته : لماذا وقف من الثورة الروسية والحكومة الشيوعية هذا الموقف الذى أدى الى ابعاده عن وطنه ، وتعرضه لمحنة النفى والتشريد التى شقى بها وتمرس بآلامها ، وصبر لها صبر الكرام الأباة ، وبالرغم من أنه مات بعيدا عن بلاده فقد ظل شديد التعلق بها ، وفيا لها مؤمنا برسالتها مع شدة كراهيته للنظام الشيوعى وحملاته المواتية عليه واعتقاده أنه يشوه رسالة روسيا وفكرتها الحقيقية .

ولم يكن بردياثف من الرجال الذين تهزمهم الظروف الخارجية غير المواتية ، بل كانت تزيده امعانا فى السير على خطته ، وتثير فيه عوامل النضال والمكافحة .

وقد كان بردياثف يؤكد وجود الحق والخير والجمال باعتبارها قيما مثالية مستقلة عن الصراع الطبقى والأحوال الاجتماعية . ويرى أن الحق والعدالة هما اللذان يقرران موقفه من الواقع الاجتماعى ، وليس الواقع الاجتماعى هو الذى يتحكم فيهما ويقررهما .

وكان لونارسكى - وزير التربية الشيوعى - صديقا قديما لبردياثف ، وكان يذهب الى أن الحق غير المغرض واستقلال العقل وحق الحكم الخاص يناقض الماركسية ، لأن الماركسية ترى أن الحق تحتمه حاجات الطبقة الكادحة فى صراعها الطبقى ، ولذلك لم يكن غريبا أن يقع الخلاف بين الصديقين القديمين ، ويجد بردياثف أنه لا محل له فى روسيا الشيوعية .

وبردياثف بوصفه من المؤمنين بالاشتراكية يعطف على تطلع الاشتراكيين الى طلب العدالة الاجتماعية ، ولكنه يرى فى الوقت نفسه أن اليساريين الروسيين لا يحترمون كرامة الشخصية الانسانية ، ولا يسلمون بحقوق قوة الخلق الانسانية والنزوع الى الحرية ، وكان يعتقد أن انتصار الشيوعية فى روسيا أو فى غيرها من الدول سيأتى بنتائج غير سارة - ان لم يتمخض عن نكبات فاجعة ، وارتضى لنفسه أن تكون مهمته التبشير بفكرة حرية الروح والرسالة الخالقة للشخصية المستقلة .

وفلسفة بردياثف مشتقة من تصوره للروح الانسانية ، وهو ينبذ الفكرة المادية القائلة بأن العقل ليس سوى مجرد اسم يطلق على أنواع معينة من رد الفعل فى العضوى الانسانى لمنبه من المنبهات ، وأن الانسان خاضع لتأثير البيئة من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، ومن الواضح

أن الانسان يتلقى مؤثرات من بيئته المادية والاجتماعية ، كما يتأثر بتجارب التاريخ البشرى ، ولكنه في الاستجابة لهذه المؤثرات جميعها حر في جوهره وكائن فعال خالق ، وحتى في المستويات الهابطة للوعى الانسانى لا يتأثر الانسان تأثرا آليا الا فى الأفعال المنعكسة . ولكن الانسان لا يقدر الا بالمستويات العالية لوعيه . وبما فى استطاعته أن يبلغه ويحققه ، ومن هذه الناحية لا يسعنا الا أن نعترف بأن للانسان روحا خلاقة ، وأن هذه الروح الخلاقة المبدعة تستطيع أن تنسق جهوده وتضم أشتاتها وتجمع متفرقاتها وتكون منها كلا مركبا ، وترسم له فى حرية وطلاقة طريق العمل وميدان الجهاد . وتمكنه من الانتفاع بالمادة التى يسرتها له الطبيعة والمجتمع والتاريخ ، وتطوع له أن يكون منها شيئا فذا يحمل طابعه الخاص ويعبر عن فرديته وأوحديته الانسانية وهذه الروح تدرك بالبداهة وجود القيم الاخلاقية ، والانسان وان كانت تتحكم فيه البيئة الى حد محدود فانه من ناحية أخرى يستطيع أن يعيد خلق البيئة على الصورة التى يريدها ، والنكول عن معرفة الفرق الجوهرى بين عالم الروح وعالم الحرية والنشاط الخالق للشخصية الانسانية وعالم الطبيعة الذى تتجلى فيه السيطرة الآلية والقوانين الجبرية – هذا النكول فى رأى برديائف يؤدى الى سوء فهم مشكلة الانسان برمتها .

وادراك الانسان الحدسى للقيم وشعوره بالتزام التعبير عن الحب والحرية والخلق والحق والجمال مصدرها – فى رأى برديائف – أن الانسان قد صيغ على مثال الله ، والانسان فى جوهره خالق مبدع ، وقد يأخذ خلقه صورة خلق قيم جديدة ، ولكن صورة القيم منبثقة من طبيعة الله ، والقيم من ثم متسامية على الانسان ، وأسمى نزوع للانسان متجه نحو الله . وعند برديائف أن روح كل انسان لها وجودها المستقل ولها حقوقها وامكانياتها التى ليس لأى شىء سيطرة عليها ، وهو لذلك يرفض الفلسفات التى تنكر حق الروح فى الاستقلال والحرية ، أو التى تنتقص قوى الانسان وامكانياته ، أو التى تعتبر الانسان مجرد آلة للروح العامة الشاملة ، كما كان يرى هجل وشلنج .

ويقبل برديائف فكرة أن لكل انسان رسالة وأن هذه الرسالة تتضمن تحقيق شخصيته تحقيقا كاملا ومن عيوب الفلسفة المادية فى نظره أنها تضعف فى الانسان الشعور برسالته ، والانسان مدعو الى الحياة الحرة ، وقد اعتبر الفلاسفة الحريون الحرية حقا من حقوق الانسان ، وهى كذلك فى رأى بردیائف كما وضح فى معارضته

للماركسية وخلافه مع اورناسكى . ولكنه لا يرى صـــواب الاكتفـاء باعتبارها حقا من حقوق الانسان ، فالحرية التزام ، ولا يستطيع الانسان أن يحقق رسالته الا فى ظل الحرية ، والحرية تتضمن قبـــول التبعة ، وواجب الانسان يلزمه قبول التبعة ، ولكل انسان استعداداته الخاصة ومواهبه التى يتفرد بهـا ، ولكل انســان نصيب من القدرة على اصـدار الأحكام المستقلة ، وانماء شخصيته وممارسة قدرته على الابداع والخلق والاستمتاع بالاستقلال كل ذلك متوقف على حريته ، فالرجل الذى يرفض هبة الحرية ينكر طبيعته الحقة وينزل عن حقوق الروحية ٠

والناس يطلبون الحرية وفيهم الاستعداد لها ، ولكنهم فى الوقت نفسه يرهبونها ، وذلك لأنهم يخشون التبعة ٠ وتاريخ البشر الى حد كبير سجل محاولات الانسان التفريط فى حريته ، وقد أفرد البحـاثة اريك فروم بحثا تحليليا لهذا الخوف من الحرية الذى يخالج نفوس الناس ، وتناول هذا الموضوع بردياثف فى كتابه عن « العبودية والحرية » وعنده أن الانسان يلجأ الى طرق كثيرة لاستعباد نفسه ويندر أن يسلم بعبوديته وتحقيق امكانيات الانسان متوقف على حريته ، ولكن تحقيق الحـــرية يستلزم محاولة بطلية وجهدا ومعركة وقبولا لمأساة الحياة وصبرا عـلى آلامها ، وهو يحتقر الآداب القائمة على طلب المتعة ونشدان اللذة ، والجرى وراء اللذات والمتع ، ويرى أن معناه قبول لون من شر أنواع العبودية ، وليس فى استطاعة الانسان أن يحقق وجوده الكامل ، ويمكن لقـــواه الخالقة وهو مستعبد لاشباع شهواته منهمك فى ارضـاء حبـه للراحـة والنجاح والمــال والنفوذ والمتع الجنسية ، والحرية عند بردياثف معناها الخلق ، وهى التى تمكن الانسان من توجيه جهوده الى قنوات تعـــود بالخير على الانسانية ٠

ولكن فى طبيعة الانســــان ازدواجا ، فالتحقيق الكامل للروح الانسانية لا يمكن أن يتم بغير معركة ، ونيل حرية الروح هو الغرض التاريخى للانسان ، والمشكلة الأولى هى مقاومة تلك القوى التى تأتى من داخل الانسان ، ومن المؤثرات الخارجية التى تحاول أن تستعبده ، ومن بين هذه المؤثرات شهوات الانسان وأوطاره ومطامحه ٠

وفى رأى بردياثف أن بعـض النظريات الميتافيزيقية تميـــل الى استعباد الانسان . فالمذهب الجبرى يتجه الى استعباد الانسان ، وكذلك شتى المذاهب التى تعتبر الانسان شيئا مثل سائر الأشياء الموجودة التى

تخضع للقانون ، ولا تعترف بأن فى الانسان ذاتا خالقة ، لا تطيع القوانين المسيطرة على طبيعة الأشياء ٠

وأخطر أنواع العبودية فى رأى برديائف هى عبودية المجتمع ، ففى الجماعات البدائية كانت الشخصية ضائعة فى غمار المجتمع ، وفى خلال تقدم الانسان التاريخى زاد تنوع الأفراد وتفاوت الشخصيات الانسانية زيادة عظيمة ، وتجلت أوحدية كل فرد ومواهبه الخاصة ، والحقيقة الجوهرية فى الديانة المسيحية هى الاعتراف بأن كل انسان له قيمة فى نظر الله باعتباره فردا ، وأن فى صميم كل انسان روحا محبة خالقة لها الحق فى الحرية ، وفى التعبير المستقل عن ذاتها ، ويعد برديائف جميع علماء الاجتماع الذين يذهبون الى تأكيد أهمية المجتمع ، ويضعونها فى مرتبة اسمى من الشخصية من الرجعيين ، وكذلك الذين يقولون ان المجتمع هو الذى يصنع الفرد ويكون الشخصية ، والحقيقة فى نظره على نقيض ذلك ، فرسالته الشخصية الانسانية خلق المجتمع . وهو يلحق ذلك بالرجعيين علماء الاجتماع الذين يرون أن مقياس الخير والشر فى العادات والقوانين يرجع الى المعتقدات السائدة فى أى مجتمع ، وعنده أن طبيعة الخير والشر الحقيقية تتكشف فى أعماق الروح الانسانية ، وتبدو لبصيرة الانسان الخلاقة ، ويعتقد برديائف أن كل ما يصدر عن المجتمع ينزع الى الاستعباد فى حين أن كل ما ينبعث من الروح يدعو الى التحرر والانطلاق ، وهو يسلم بأن الانسان يجعل المجتمع مثلا أعلى ، ويسبغ عليه العظمة والجلال ، ويؤله الدولة ويخلق منهما أساطير ، وبذلك يستعبد نفسه ٠

وكذلك الحضارة والصناعة تستعبدان الانسان ، وتثقل كاهله تعقيدات الوجود وتعدد الأشياء وتنوعها حتى يصبح متعثرا فى شباك تعوقه عن التعبير عن حاجاته التلقائية ، وقد أصبحت مسألة استعباد الانسان للآلة من المشكلات البارزة فى العصر الحديث ، وقد بلغت الحياة مبلغ السرعة الجنونية التى تجعل الانسان يجد صعوبة فى الاستجابة لها وعصر الصناعة متجه أبدا الى المستقبل ، وقيمة اللحظة الحاضرة عنده أنها وسيلة للحظات التالية ، وحينما تكون الأفراد مسوقة مدفوعة بتيار الزمن على هذا النمط لا تحظى بالراحة ولا تتاح لها الفرصة لتظهر أن فى قدرتها أن تكون قوة حرة لخلق المستقبل ، وممارسة التفكير الهادىء واستغراق فى التأمل من الأمور اللازمة للشخصية الخالقة ، ولكن السرعة التى يفرضها عصر الآلة تكاد تجعل التأمل متعذرا ، ونتيجة الحياة

التى يحياها الانسان فى غمرات السرعة تحلل النفس الانسانية وانقسامها الى حالات عقلية متتابعة الحلقات .

وليس هنـاك علاج لاستعباد الحضـــارة الصناعية للانســـان فى التعلق بفكرة « الانســان المتوحش السعيد » . ولكن هناك علاجا صالحا للذين يحتملونه وهو موالاة التأمل ، واجالة الطرف فى أعماق النفس . واذاعة فكرة أن الشخصية الانسانية عليها أن تسيطر على الآلـــة . ولا تمكن الآلة من السيطرة عليها ، واقناع الناس بأن رسالة الانسان هى أن يخلق بيئته ، لا أن يترك البيئة تتحكم فيه وتسيطر عليه .

وشر أنواع العبودية هو استعباد الانسان لنفسه ، وقد سبـــق ذكر أن الانسان ينزل فى كثير من الأحيان عن حريته بمحض اختياره. وفى الدول الآخذة بالنظام الكلى يصبح الناس عبيدا ، وتقبل أغلبيتهم التنـازل عن حريتهم فى سرور وارتياح ، والأنانية وحصر كل شىء فى نطاق الذات مصدر هام من مصادر الاستعباد ، لأن ذلك يحبس الانسان فى دائرة وعيه الخاص ، ويعوق تمدد النفس وتوسيع آفاقها . ويمنـع تأثرها بنفوس الأحياء والاموات ، ويحول بينها وبين التعبير عن دوافع الحب والخلق الكامنة فى نفسه . وقد وصف الكاتب المسرحى ابسن هذه الحالة فى مسرحيته المعروفة بيرجنت . فقد أراد بيرجنت أن يحقق وجوده وأن تكون له فردية طريفة ففقد شخصيته . وهدم كيانه ، وصار عبدا لنفسه ، وقد يستعبد الانسان لأفكاره ، والتعلق العاطفى بفكرة من الأفكار والارتباط الشديد بقضية من القضايا قد يعرقل تقدم الانسان ويعوق نماء نفسه . وقد لعبت بعض الأفكار الدينية الجامدة دورا فى استعباد الانسان ، ولا يزال سوء استعمال بعض الأفكار الدينية حتى اليوم سببا من أسباب التخلف وفقر الشخصية ، والانسان هو مبدع الأفكار وخالق النظم . والعادات الاجتماعية ، والتقاليد ليست سـوى أفكار أصـبحت موضوعات ، وتحريره يقتضى ألا يظل مستعبدا لهذه الموضوعات التى خلقها ، وأن يظل قادرا على خلق آداب جديدة ، مصـــدرها الهام الروح الحرة التى تعبر عن نفسها بالنوازع الخلاقة ، وبواعث الحب والعطف .

وقد رأينا أن الناس فى العادة يصبحون عبيدا لشهواتهم ، وحب السيطرة مصدر عظيم من مصادر الاستعباد ، وقد يستبد بالانسان طلب السيادة والنجاح والمجد وحب المغامرات ويستذله الحرص عليهـــا ، ولا يستطيع الانسان أن يتخلص من كل هذه الألوان من ألوان الاستعباد الا

ببذل جهود روحية جبارة ، ولا تستطيع الشخصية أن تتجمع وتتماسك وتقاوم عوامل الانحلال والتفكك الا اذا كانت مالكة لحريتها ، متسامية على الأهواء العاصفة ، والميول المدمرة ، والشهوات الفتاكة . مستلهمة روح الحب ومستمدة من قدرتها الخالقة القوة على الثبات والكفاح .

ويرى برديائف أن من أشد انواع العبودية وأقواها أثرا استعباد الدولة الكلية ، فهى تبسط سلطانها المطلق على الفكر والضمير ، والخضوع لها خضوع لقوة شريرة عظيمة السطوة تشجع كل ما يعد معيبا وبغيضا فى الأخلاق الشخصية على الظهور والانطلاق ، فهى تشجع الجاسوسية والامعان فى القسوة والارهاب والتعذيب وتجسد القتل والغدر والكذب والتضليل ، وتزعم أن هذه الوسائل الشريرة تسوغها الغايات السامية التى تدعى العمل على تحقيقها ، وهى غايات لن تتحقق وسرعان ما ينساها الناس .

ويرى برديائف فى مذهب عبادة الدولة شرا ضخما ، ولكنه مع ذلك لا يرفض فكرة الدولة فى ذاتها ، لأن قوة الدولة لازمة لتحقيق الغايات الكبيرة ، ولابد من قبولها منعا للفوضى ، ولكن على الدولة أن تناصر الآداب الشخصية ، أى الآداب التى تيسر للأشخاص اظهار قواهم الخالقة ، وامكانياتهم المستكنة ، وسائر مواهبهم وملكاتهم وقابلياتهم واستعداداتهم .

والدولة وحدها هى التى تستطيع مثلا تحرير العامل من الضغط الاقتصادى ، ويقول برديائف : أن ماركس كان على حق حين قال ان النظام الرأسمالى يجرد العامل من انسانيته ويجعله مجرد آلة .ويستغله استغلالا قاسيا من أجل مصلحة الطبقة صاحبة الامتيازات ، والدولة وحدها هى التى تستطيع القضاء على الامتيازات الظالمة وتضمن حقوق الأفراد ، وميل الانسان الى الشر يجعل سلطة الدولة من ألزم ما يلزم لمنع الفوضى وتأييد القانون . والمذهب الفوضوى فى رأى برديائف قائم على تصور مخطىء من ناحية الاعتقاد بأن الانسان بطبيعته نزاع الى الخير ، وحقيقة أن المجتمع المثالى هو المجتمع الخالى من القوانين والذى لا يكون فيه لأى انسان سلطان على غيره من الناس ، ولكن من التفاؤل السطحى أن نظن أن مثل هذا المجتمع قريب المنال ميسور التحقيق ، والشىء الهام هو ألا يطغى سلطان الدولة على الروح الانسانية ، وألا يكون لها سيطرة على الضمائر ، وألا تعترض التقدم الحر للشخصية الانسانية ، ووظيفة الدولة أن تضمن حرية التقدم الذاتى ، وتحمى النظام القائم ، وتقضى على عوامل الفوضى .

ويشير بردياتف الى خطورة التركيز الشديد ، والامعان فى البيروقراطية ، وينصح بالأخذ بنظام اللامركزية ، دفعا لأخطاء الجمود والعقم والاستعباد·

ويفرق بردياتف بين الشخصية والفردية ، وعنده أن الفرق بينهما فرق أساسى ، فالرجل الفردى يعنى بالتعبير عن رغباته تعبيرا لا حدود له ويستشعر دائما أنه فى عزلة عن سائر الناس ، ولكن صاحب الشخصية يرى أن له رسالة وأن عليه أن يقوم بنصيبه فى خدمة الانسانية ، وعنده أن الشخصية لا تنمو وتتقدم الا فى كنف الحب والعطف والشعور بمعنى الجماعة وبالعمل الخلاق الموجه الى الخير العام الشامل ، وأنصار المذهب الشخصى اشتراكيون ، ولكنهم يرون أن تراعى الاشتراكية فى تحقيق مثلها القيم الشخصية وتوسع المجال للقوى الشخصية الخالقة ·

ويمكن أن نلمح خلال ما تقدم أن بردياتف يجعل الشخصية الحرة الخلاقة محور مذهبه ومناط تفكيره ، وليست الشخصية عنده وسيلة ، وأن الغاية هى النمو الحر الكامل المشخصيات ، وعنده أن الوجود الحق هو وجود الشخصية الحرة ، واذا كان أساس المعرفة الفلسفية الحقة تجربة الفيلسوف نفسه ، فان تجربة بردياتف الشخصية هى باعث فلسفته ونقطة ابتدائها وهدفها ، فقد رفض بردياتف النظام الذى فرض عليه فى روسيا ، وأبى المساومة فى قبوله ، على أن الشخصية عنده ليست شيئا جاهزا قد فرغ منه وتم تكوينه ، وانما هى مثل أعلى يجاهد الانسان طوال حياته فى سبيل تحقيقه ، والشخصية كفاح مستمر وجهاد دائم وانتصار متواصل على الاستعباد ، وليس فى استطاعة الانسان أن يحقق امكانياته الا بالجهاد واحتمال الآلام ، والرجل الذى يخضع للقوى الخارجية وينقاد لشهوتها يقف نموه ، ويتعطل تقدمه ، ويفقد حريته ، ولا تنمو الشخصية الا عن طريق شعور الانسان برسالته وحبه للبشر ، وبذله الجهد فى مساعدتهم ، واثراء الحياة الانسانية ، على أن تحقيق الشخصية شىء نادر ، والشخصية فى معظم الناس تظل قوة كامنة قد يقضى عليها الانحلال والاذعان للمجتمع وغلبة الشهوة ، أى أن نمو الشخصية كاملا يستلزم عنصرا من عناصر التنسك والسيطرة على الدوافع والأهواء ·

ويأخذ بردياتف على الفلسفة اليونانية أنها وجهت عنايتها الى الموضوع وصورته وقصرت فى ادراك معنى تجربة الذات باعتبارها حرة خلاقة ، وقد تفوقت المسيحية عليها من هذه الناحية وكان لها تأثير هام فى التحرير ، ولكن المسيحية خلال تقدمها اكتسبت بعض عناصر

الهيلينية ، واستعانت بفلسفة أرسطو ، والفلسفة الحديثة فى اتجاهها الى أن تحرير الروح الانسانية أقرب الى طبيعة المسيحية من الفلسفة المدرسية التى سادت فى العصور الوسطى ٠

وقد أبعدت الفلسفة الألمانية فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر الفلسفة عن العالم الموضوع ، ولكن بردياثف يرى أنها فى قيامها بهذا العمل أنكرت الحرية ، فهيجل يتحدث على الدوام عن الروح العامة التى تعبر عن نفسها فى الانسان ، وهو من ثم لا يرى أن الانسانية وحدة حرة قائمة بذاتها ٠ واخفاق هيجل فى التسليم بوجود حقيقة الروح الانسانية هو الذى جعله مستعدا لأن يجعل الفرد خاضعا لقوة أسمى منه مثل قوة الدولة ٠

والفلاسفة من غير المدرسة الألمانية مثل فلاسفة المدرسة الانجليزية وعلى رأسهم فرنسيس بيكون تحرروا من سلطة اللاهوت ليخضعوا لسلطة أخرى ، وهى سلطة العلم الذى حاول القضاء على الفلسفة والميتافيزيقا ، ويحمل بردياثف على هذا النوع من العلم حملة شعواء ، وهو يرى أن نتيجة العقلية المستعبدة التى حاولت أن تستعبد قوى الروح الأسمى وتجعلها خاضعة لاحدى الملكات التابعة لها من أجل مصلحة ما تسميه النشاط العملى ، ويؤكد بردياثف أن المعرفة الفلسفية تتميز من المعرفة العلمية وأنها أسمى منها مكانة وأجل شأنا ، وللفلسفة فى نظره أساس حدسى ، ولكل فيلسوف حق حدسى طريف خاص به ، والفلسفة تقوم على مجموعة تجارب الوجود الانسانى ، وهى تجارب تشمل تجارب الانسان العقلية والارادية والعملية ، وذلك فى حين أن العلم مقصور على ناحية واحدة من ناحية التجارب الانسانية وهى التجربة العقلية ، ومسألة القيم مسألة شعورية ، ومع ذلك فان القيم لها المنزلة العليا فى المعرفة الفلسفية ، والفلسفة هى التى تقرر معنى العلم مستعملة معيار القيم الذى يعجز العلم عن الاتيان به أو الحكم عليه ، والمعرفة العلمية معرفة العالم الموضوعى وليست معرفة العالم الوجودى للروح الخالقة ، وقد ساعد العلم فى بسط سيطرة الانسان على المادة ، ولكن جعل العلم مسيطرا على الدين والفلسفة أدى الى انتشار أن فكرة الكائنات البشرية ليست غايات فى نفسها وانما هى مجرد وسائل ، وساق الى انكار حقوق الفرد ، واذا أسفر ذلك عن فناء الجنس البشرى فان جانبا من تبعة ذلك يقع على عاتق العلم ٠

والماركسية احـــدى مظاهر هذه النزعة العلمية . وقد قالت الماركسية بحق ان على الفلسفة أن تغير العـــالم ، ولكنها اقامت هذه الفكرة على أساس من الفلسفة المادية ، والمادية ترى أن الانسان من مخلوقات البيئة الاجتماعية ، ومن ثم استخلصت أن على المجتمع آن يملى على الفلسفة بدلا من التسليم بأن الفلسفة تملى على المجتمع ، ويرى برديائف أن الماركسية تذهب الى الاعتقاد بان الحيـــاة الروحية يمكن أن تتناول على نفس الأسس المعمول بها فى الحياة المـــادية ، وأن الروح والفكر والثقافة الخالقة قابلة لأن تخضع للنظام الذى تخضع له الحياة الاقتصادية والحياة السياسية ، ومحاولة تنظيم الفكر تسفر فى مثل هذه الحالة عن تقوية جهاز الشرطة والجاسوسية ، وهو لا ينظم الفكر ولا يقضى على الفوضى ، وانما ينظم الفوضى ويقضى علىالفكر .

والماركسية والنزعة العلمية السائدة تتضمنان مد الحياة الانسانية الى المستقبل على حساب الحاضر ، فالحيـــاة الواهية تعد حياة بائســة شقية ، وان الثورة الاجتماعية وتطبيق الوســـائل العلمية على المجتمع سيكفلان للمستقبل حياة رغدة سعيدة .

ورأى الماركسية فى التاريخ قائم على الاعتقاد بأن المادة والنظم الاجتماعية خاضـــعان للقوانين الدايلكتيكية ، ويرى برديائف أن الماركسية تسلب التاريخ روحه لتعلقها بفكرة أن الواقع التاريخى الجوهرى هو الحركة المادية الاقتصادية . وكما أن الانسان له روح وجســد فكذلك التاريخ له ثنائيته فى نظر برديائف ، ومعنى التـــاريخ يتجلى له فى الصراع بين الروح والطبيعة ، فالروح تحاول أبدا السيطرة على الطبيعة، وأن تتغلب على جبرية الطبيعة وأن تنفخ حياة الانسان جميعها بما عندها من حرية ، والرجل الذى بلغت شخصيته أوفى مراحل الاكتمال هو الرجل الذى أصبحت جهوده جميعها منبعثة من روحه الخالقة ، فى حين أن الانسان الواقع فى قبضة التاريخ الأرضى يخضع للضرورات ، ولا يكاد يبدو أثر للروح الحرة فى أعمـــاله ومواقفه ، واللحظة الحاضرة فى رأى برديائف تحمل كل ما له معنى فى الحياة ، لأن الانسان يستطيع أن يجعل هذه اللحظة خالدة عن طريق الحب والخلق والابداع ، ويصل الانسان الى الحكمة حينما يعرف كيف يجعل لكل لحظة من لحظات حيـــاته معنى ودلالة .

وبرديائف من ثم يرى التاريخ صراعا مستمرا بين الزمن والأبدية ، ولكن ذلك ليس معناه أن هناك تقدما مستمرا يدل على تزايد انتصـار

الروح ، وهو يرفض الرأى القائل بأن السعادة والكمال لا يتحققان الا فى العصور المتأخرة ، وأن على الأجيال السابقة أن تحتمل الشـــقاء لتسعد الأجيال اللاحقة ، وعنده أن كل فرد خلال التاريخ عنده امكانيات بلوغ الأبدية فى كل لحظة من لحظات حياته ، ومن ثم فان معنى التاريخ يمكن الوصول اليه فى كل لحظة •

ويقسم برديائف ما يسميه التاريخ الارضى الى أربعـــة عصـــور : العصر الأول هو العصر السابق لظهور المسيحيه ، والعصر الثانى ينتهى بظهور توما الاكوينى ، وفى هذا العصر سيطرت الكنيسة الكاثوليكية على كل مظهر من مظـاهر الحياة الانسانيـة أو على الاقل بذلت جهـدا فى سبيل هذه السيطرة وقد نجحت فى آكثر نواحى الحياة ، وقد كان العصر الوسيط عصر التنســـك والزهادة لأن الكنيسة أعلنت فيه الحرب على الأهواء والميول الانسانية ، وهذا التنســـك قوى الجوانب الروحية فى الانسان ولكنه أنكر عليه الحرية ، لأن رجال الدين حاولوا اقامة حدود لقوى الانسان الخالقة فى التعبير عن نفسه ، والعصر الثالث يبدأ من عهد احياء العلوم والاصلاح الدينى ، وقد أطلق هذا العصر قوى الانسان الخالقة ولذلك ازدهرت الروح ازدهارا رائعا فى ميادين الفن والعلم والثقافة ، ولكن النزعة الانسانية التى بدأت فى ذلك العصر باطلاق قوى الانسان انتهت – فى رأى برديائف – باضعاف تلك القوى ، ومرد ذلك الى العيوب الكامنة فى النزعة الانســـانية ذاتها ، والنزعة الانسانية تجعل الانسان مركز الكون ، وتؤكد حقه المطلق فى التعبير عن فرديته ، وكذلك حقه المطلق فى حرية الفكر ، وهى بذلك توسع المجال أمام الانسان لتأكيد ذاته واظهار قدرته على الخلق والابداع ، ولكنها ان كانت من ناحية ترفع الانسان كما يبدو فانها من ناحية أخرى تهبط به ، لأنها تقربه من حياة الطبيعة تلك الحيـــاة الحيوانية ، اذ أنها تعتبر الانسان مخلوق الدوافع الطبيعية والغرائز ، وهكذا أدى ابتعاد النزعة الانسانية عن مسيحية العصور الوسطى الى الامعان فى تأكيد النفس ، واتجه هذا التأكيد الى انطـــلاق الدوافع الغريزية ، وقد أضعف هذا الانطلاق قوة تماسك الشخصية ، وبغير هذا التماسك يعجز الانسان عن النهوض برسالته فى الحياة ، وواضــــح من ذلك أن برديائف يرى أن النزعة الانسانية التى صارت عاملا هاما فى الحضارة الحديثة كانت فى الوقت نفسه من عوامل اضعاف الشخصية والقوى الخالقة ، وقد ظهرت آثار الضعف فى العصر الحديث •

ويسمى بردياثف العصر الرابع للتاريخ الأرضى العصر الوسيط الجديد وهو يعتقد ان الانسانية قد بدات الانتقال الى هذا العصر ، وهو الذى سينهى عصر التحلل الذى نجم عن شيوع النزعة الانسانية . وسيرى هذا العصر تآلفا جديدا بين ما هو مقدس وما هو ارضى ، وسيكون هذا الاتحاد مختلفا عن الاتحاد الذى تم بينهما فى العصر الوسيط ، وذلك لأنه سيفسح مكانا مرموقا للحرية والقوى الخالقة . ويوفق بين الدين وبين العلم والفلسفة والفن والحياة الاجتماعية . وسيمتاز هذا العصر بالعناية بالجانب الروحى فى الانسان واعتباره عاملا هاما فى المجتمع الانسانى . وسيشاهد هذا العصر ازدهارا رائعا للفن والثقافة ، ويتغلب على المشكلات السياسية والاقتصادية التى تبدو فى الوقت الحاضر شديدة التعقيد مستعصية على العلاج ، ولا بد لذلك من الايمان بالله وبالانسان . ولذا يكره بردياثف الأراء التى تميل الى انتقاص الطبيعة الانسانية كما يهاجم الصوفية الزائفة - فى رأيه - وهى تلك الصوفية التى تتنكر للدنيا ، وتجافى المجتمع ، وتبدى عدم الاكتراث بالحوادث الجارية ، والمتصوفة من هذا الطراز يجدون مصدر الشر فى النوازع الانسانية ومطالب الجسد ، ويكبر عليهم ذلك فيسرفون فى كبت تلك النوازع والتحامل على أنفسهم ، وينتهى بهم الأمر الى كراهة اخوانهم البشر واحتقارهم ، وقد كشف فرويد سوء مغبة هذا الكبت ، وأظهر أن تلك النوازع المحتبسة تحاول التفلت ، وتتخذ لها مسارب ومخارج تدل على الاضطراب النفسى والفوضى الداخلية وخير وسيلة لمقاومة النوازع السيئة والشهوات الضارة هى ايقاظ قدرة الانسان الخالقة واثارة قواه الروحية ، وذلك بتوجيه ارادة الانسان الى غايات أسمى ، وفى هذه الحالة يمكن تحويل الأهواء المدمرة الى ميول خالقة تخدم الروح وتنفع المجتمع ، أما القضاء على الارادة والاسراف فى الضغط على الميول والنوازع الانسانية فانه يؤدى الى فقد الشخصية واقفارها ، ويطيل بردياثف فى التفريق بين نزعته الصوفية الايجابية القائمة على الحب والحرية وتشجيع القوى الخالقة والنزعة الصوفية السلبية المبغضة للحياة والأحياء والتى لا تصلح حالا ، ولا تأتى بخير ، وتغرق الانسان فى مستنقع من اليأس والتشاؤم .

ويمكن أن نستخلص مما تقدم أن بردياثف مفكر حدسى كما ذكرت ، وفلسفته تعبير عن حياته الداخلية وعواطفه العميقة وتجاربه الفكرية والعملية ، وثمرة اطلاع واسع على المذاهب الفكرية فى مختلف العصور والحضارات ، ومراقبة للأحداث الكبرى التى حدثت فى حياته ووقع

بعضها تحت بصره ، ويخيل لى أن هذا الرجل بتجربته الروحية العميقة وادراكه الحدسى الكاشف قد ألقى الكثير من الضوء على مشكلة الانسان فى العصر الحاضر وموقفه بين مختلف التيارات الفكرية والسياسية والاقتصادية .

ومن أهم نواحى تفكيره وأبرزها عنايته بالشخصية الانسانية واستقلالها الروحى ، ومقاومته للمذاهب الكلية فى سبيل صيانة هذا الاستقلال والابقاء على كرامة الانسان .

وضيقه بالأحوال السائدة لم يدفعه الى معسكر الفوضويين ولا الى جماعة المنهزمين اليائسين ، بل زاده ايمانا بالحاجة الى الحكومة القوية التى تسترشد بالقيم الروحية ، وتقيم الوزن للشخصية الانسانية ، لأن قوة الدولة متوقفة على قوة الأفراد الذين تتكون منهم الدولة ، وكلما كان هؤلاء الأفراد أصحاء يستلهمون فى أعمالهم روح الحب ، ولا تجد قواهم الخالقة ما يعترض نشاطها كانت الدولة أقدر على علاج المشكلات ومواجهة الأحداث وازالة العقبات من طريقها .

وقد عبر الرجل عن آرائه ونظرياته فى سلسلة له من الكتب القيمة منها : كتاب « العبودية والحرية » وكتاب « الحرية والروح » و « مصير الانسان » و « معنى التاريخ » و « الفكرة الروسية » وكان يبسط أفكاره ويوضح وجهة نظره فى حماسة وحرارة وبلاغة متألقة ، ويدعم تفكيره بمناقشة المذاهب الفلسفية وكبار المفكرين القدماء منهم والمحدثين ، مما يجعل قراءه مدينين له بالكثير .

التأمل الأول

موقف الفيلسوف الفاجع ومشكلات الفلسفة

الفصل الأول

- الفلسفة بين الدين والعلم
- الصراع بين الفلسفة والدين
- الفلسفة والمجتمع

فاجع حقا موقف الفيلسوف ازاء العداء المصوب اليه من كل جانب. وقد اتخذ هذا العداء مظاهر شتى خلال تاريخ المدنية ، والحق أن الفلسفة أكثر جوانب الثقافة تعرضا للطعن ، بل ان مقدمتها الاولى توضع على الدوام موضع التساؤل ، وينبغى على كل فيلسوف أن يبرر أولا صحة دعواه لممارسة وظيفته • والفلسفة ضحية للهجمات المتضاربة ، فالدين والعلم كلاهما من أعدائها الصرحاء • وموجز القول أن الفلسفة لم تظفر فى وقت ما بما يشـــــبه التأييد الشعبى من بعيد أو قريب ، كما أن الفيلسوف لم يحقق قط الشعور بأنه يشبع « مطلبا اجتماعيا » أيا كان شـــأنه •

ويضع « أوجست كونت » الفلسفة ـ فى نظريته الخاصة بالمراحل الثلاث للتطور الانسانى ـ فى المرحلة الوسطى حيث تساعد الميتافيزيقا على عبور الهوة بين الدين والعلم • وقد كان « كونت » نفسه فيلسوفا على الرغم من أنه أطلق على فلسفته اسم « الفلســـــفة الوضعية » أى العلمية ، وكان يعد هذه الفلسفة العلمية مقدمة لمرحلة علمية خالصة هى الفترة التالية فى تطور الروح الانسانى • وكان من لب المذهب الوضعى أن يرفض كل ترجيح أو استقلال للمعرفة الفلســـــفية ، وأن يخضع هذه الفلسفة مباشرة للعلم ، وهذه الفكرة التى نادى بها « كونت » أصبحت

أشد تغلغلا فى الشعور العام مما قد يبدو لنا حينما ننظر الى مذهب الوضعى بمعناه الضيق • وقد أصبحت كلمة « فيلسوف » من الكلمات الشعبية خلال « عصر الاستنارة » ، بيد أن هذا الابتذال أساء الى الفلسفة دون أن ينتج فيلسوفا واحدا يمكن أن نضعه فى مصاف الفلاسفة العظام •

ولقد كان الدين مصدر أول هجوم وأعنفه على الفلسفة ، وما برحت المعركة سجالا بينهما حتى اليوم ، وما فتىء الدين قائما – رغم أنف « أوجست كونت » – باعتباره وظيفة أبدية للروح الانسانى . وهذا الصراع هو الذى يطبع موقف الفيلسوف بطابع المأساة أولا وقبل كل شىء • أما النزاع بين الفلسفة والعلم فأقل ضراوة ، والتعارض القائم بين الفلسفةوتقوم بحلها هى عينها مشكلات اللاهوت ، غير أن رجال اللاهوت تعبيرا ادراكيا ، وميدانا من ميادين المعرفة ، والمشكلات التى تضعها الفلسفة وتقوم بحلها هى عينها مشكلات اللاهوت ، غير أن رجال اللاهوت دأبوا دائما على اضطهاد الفلاسفة وتعذيبهم ، بل واحراقهم فى بعض الأحيان ، ومما ينهض دليلا على أن هذا الاضطهاد لم يكن سمة من سمات العالم المسيحى وحده تلك المعاملة التى لقيها الفلاسفة العرب من رجال الدين (١) • ولدينا فضلا عن ذلك تلك الأمثلة المشهورة ، « فسقراط » حكم عليه بأن يتجرع السم ، و « جوردانو برونو » أحرق حيا ، و « ديكارت » أرغم على الالتجاء الى هولندا ، و « اسبنوزا » طرد من المجمع اليهودى ، وهذه الشواهد تكفى للدلالة على ألوان التعذيب ، وصنوف الاضطهاد التى صبها الممثلون الرسميون للدين على رءوس الفلاسفة •

وكانت وسيلة الدفاع الوحيدة للفلاسفة هى أن يعرضوا جانبى الحقيقة التى يدعون اليها • وينبغى ألا نرجع سبب هذا الاضطهاد والتعذيب الى جوهر الدين نفسه ، وانما الى هذه الحقيقة وهى أن الدين يميل الى أن يجعل من نفسه عنصرا موضوعيا فى البناء الاجتماعى ، والوحى – وهو أساس الدين – لا يتعارض مع المعرفة ، وانما على العكس من ذلك هناك تجاوب بينهما ، فالوحى هو ما يكشف لى ، والمعرفة هى ما أكشفه بنفسى ، فكيف يمكن أن يكون ثمة تعارض بين ما أكشفه عن طريق الادراك ، وبين ما يثبته لى الدين ؟ بيد أن هذا النزاع يقع فعلا ، ويضع الفيلسوف فى مأزق فاجع ، لأنه بوصفه رجلا مؤمنا قد يكون مهيئا

(١) Cf. Gazali, by the Baron Carra de Vaux.

لقبول الوحى ، فعلينا اذن أن نلتمس هذا التفسير فى الطبيعة المعقدة للدين باعتباره ظاهرة اجتماعية ، وفى أن « الوحى الالهى » ــ وهو الجوهر الخالص الأصيل للدين ــ تدنسه ردود الفعل المباشرة للمجتمع الانسانى الذى نزل فيه الوحى ، والوسائل التى يصطنعها النـــاس لاستغلاله فى مصالحهم الخاصة ٠ وهذه الحقيقة تمكننا من أن ننظر الى الدين من الوجهة الاجتماعية (١) ٠

ولا وجود لصلة أساسية بين الوحى والمعرفة مادام الوحى لا ينطوى على عنصر ادراكى ، والوحى لا يصير جزءا من المعرفة الا بفضل مايضيفه الانسان اليه بفكره ، واللاهوت كالفلسفة كلاهما يتألف من أفعـــال انسانية بحتة من أفعال المعرفة ٠ والتأويل العقلى للحقيقة التى يأتى بها الوحى هو فى الواقع تعبير عن المجتمع أكثر من أن يكون تعبيرا عن العقل الفردى ٠ ومن هنا كان الصراع بين الفلسفة واللاهوت ، بين الفكر الفردى والفكر الجمعى ٠ وعلى ذلك يمكن أن يكون الوحى ذا أهمية كبيرة للمعرفة لانه ينطوى على تجربة فلســـفية متميزة ، وحادثة عالية تستطيع الفلسفة أن تحيلها الى مسلمات باطنة ٠ فالمعرفة الروحية هى جوهر المعرفة الفلســـفية ، وحدس الفيلســـوف هو بالتالى حدس تجريبى ٠

وكل « لاهوت » يتضمن فلسفة تقرها الهيئة الدينية ، وهذا القول يصـــدق خاصة على اللاهوت المسيحى كما يعرضه دكاترة الكنيسة ٠ وقد كان الفكر الدينى الشرقى متشبعا بالافلاطونية ، والواقع أنه ما كان يستطيع أن ينشىء العقيدة المسيحية بغير الأســـاس الشكلى للفلسفة اليونانية ٠ أما المدرسة الغربية (الاسكلائية) فكانت متشبعة بالفلسفة الارسطية ــ التى لولا مقولاتها ــ وخاصة التفرقة التى وضعتها بين الجوهر والعرض ــ لما كان من الممـــكن أن تحدد فكرة المذهب الكاثوليكى عن « القربان المقدس » ٠ ويقول « لابرتونيير » ــ ولهذا القول ما يبرره الى حد ما ــ ان فلسفة العصر الوسيط لم تكن خادما للاهوت بالقدر الذى كان به اللاهوت خادما للفلسفة ، ولفلسفة معينة بالذات (٢) ، كما هو الحال عند القـــديس « توما الأكوينى » الذى أخضـــع اللاهوت للفلســـفة الأرسطية ٠

---

(١) يورد كل من « ماركس » و « دوركايم » ملاحظات اجتماعية عده يمكن تطبيقها ايضا على الدين ٠ (المؤلف)

(٢) ويعنى بها « بردياتف » الفلسفة الأرسطية ٠ (المترجم)

ومن هنا كانت العلاقات المعقدة التى قامت دائما بين الفلسفة واللاهوت ، فمن ناحية اصطدم التفكير الفلسفى الحر « بالدجماطيقية » أو القطعية التى تميزت بها الفلسفة الجبرية ، وعن هذا الطريق ناصبت الفلسفة نفسها العداء ، وأصبحت ضحية لجمودها الخاص · ومن ناحية أخرى عاق تقدم العلم ذلك الخليط الذى يتألف من كل ما هو زائف فى الكتاب المقدس من الناحية العلمية من معارف فلكية وجيولوجية وبيولوجية وتاريخية ، وهى جميعا قامت على أساس من خرافات شاعت فى مجتمع بدائى · أما الوحى الدينى الخالص الذى نجده فى الكتاب المقدس فلا يمكن أن يقف عقبة فى سبيل العلم ، ولكن هذا الوحى الدينى يجب أن يتطهر من تلك العناصر الطفيلية سواء الفلسفية منها أو العلمية ، والتى يعود اليها السبب فى الخلافات التى لا تنقطع ، وعندئذ تخف وطأة المأساة الكامنة فى موقف الفيلسوف ، على ألا نلغى الفيلسوف نفسه · والفلسفة التى كانت لا تقنع بأن تتخذ لنفسها غايات دينية ، أصبحت لها الآن مطالب دينية · ولقد كان هدف كبار الفلاسفة دائما هو بعث الروح بعثا جديدا عن طريق المعرفة ، ولقد جنحوا الى اعتبار الفلسفة وسيلة للخلاص ، وهذا القول ينطبق على الفلاسفة الهندوس ، وعلى « سقراط » و « أفلاطون » ، وعلى الرواقيين و « أفلوطين » ، وعلى « اسبنوزا » و « فخته » و « هيجل » ، وعلى « فلاديمير سولوفييف » فى العصر الحديث · ولقد اتخذ « أفلوطين » موقفا معاديا للدين لأن الدين يقتضى وجود وسيط حتى يتم الخلاص ، بينما كانت الحكمة الفلسفية – وفق مذهبه – كفيلة بتحقيق الخلاص دون حاجة الى وسيط ، وهكذا لم يكن هناك نوع من الاختلاف بين اله الفلاسفة وبين اله « ابراهيم » و « اسحاق » و « يعقوب » فحسب ، بل كان هناك نوع من الصراع · وبلغ هذا التعارض أقصاه عند « هيجل » الذى جعل للفلسفة مركز الصدارة على الدين فى عملية التطور الروحى · وقد جرت الفلسفة على التقليد ألا وهو أن تهدم المعتقدات الشعبية من أساطير مبثوثة فى حنايا الدين ، الى خضوع الانسان الأعمى لسلطة الماضى ·· وذهب سقراط » ضحية لهذا الصراع ، ولكن اذا كانت الفلسفة تبدأ أحيانا بتفنيد الأسطورة ، فانها تنتهى الى الاعتراف بها باعتبارها صيغة

تتجمع فيها المعرفة الفلسفية · وقد أثبت « أفلاطون » هذه الحقيقة حينما انتقل من « التصور » concept الى الأسطورة باعتبارها وسيلة لبلوغ المعرفة الحقة ، والفلسفة الهيجيلية تبين آثار ذلك الاتجاه فى الفلسفة المثالية الألمانية ·

ونستطيع أن نتعقب أصل هذا التعارض فى المدنية الاغريقية ، فبينما كان الشعور الدينى عند اليونان يخضع الحياة للمصير ، كانت الفلسفة تخضع الحياة للعقل (١) · بيد أن الفلسفة الاغريقية ــ وقد ظفرت بتلك الأهمية الشاملة ــ قد وضعت الأساس للنزعة الانسانية الأوروبية ، فليس لنا أن نتوقع أن تتنازل الفلسفة يوما ما عن حقها فى بحث المشكلات الأساسية الدينية وحلها اذا وسعها ذلك وهى المشكلات التى يطالب اللاهوت باحتكارها · وقد كانت النبوة ملازمة للفلسفه دائما . فهناك اذن ما يبرر تقسيم الفلسفة الى فلسفة علمية ، وفلسفة لها طابع النبوة (٢) · وهذا النوع الأخير من الفلسفة هو الذى يجد نفسه فى صراع مستمر مع الدين واللاهوت · فالفيلسوف الحق لا يقنع بأن يفهم العالم فحسب ، ولكنه يود ايضا أن يغير هذا العالم ويصلحه ، بل أن يبعثه بعثا جديدا · وكيف يمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك ، والفلسفة تهتم أساسا بالغرض من وجودنا ومصيرنا ؟ وقد ادعى الفيلسوف دائما أنه لا يستوحى حبه للحكمة فحسب ، ولكنه يريد أن ينشر هذه الحكمة نفسها ، فالانصراف عن الحكمة فى هذه الحالة انصراف عن الفلسفة نفسها (٣) · ومن الحق أن الفلسفة معرفة أولا وقبل كل شيء ، ولكنها معرفة جامعة تحيط بكل نواحى الوجود الانسانى ، وهدفها الأساسى هو أن تكتشف وسائل تحقيق المعنى · وقد قنع الفلاسفة أحيانا بالدعوة الى فلسفة تجريبية ساذجة أو فلسفة مادية ، بيد أن الطابع الأساسى للفيلسوف الحق هو حب ما بعد الطبيعة ، وهو فى هذا المجال يتصارع مع العالم المتعالى ، ويأبى أن يذعن لأى تفسير للمعرفة يجعل نشاطه مقصورا على العالم الأدنى · ومن هدف الفلسفة أن تبحث عبر حدود العالم التجريبى ، وأن تنفذ بذلك الى الكون المعقول ·· الى العالم

---

(١) قدم « ل· برونشفك » فى كتابه ، « تقدم الضمير فى الفلسفة الغربية » تمييزا ممتازا للفكرة الأساسية التى تقوم عليها الفلسفة اليونانية ·

(٢) Jaspers, Psychologie der Weltanschauungen.

(٣) Husserl, Philosophie als strenge Wissenschaft (Logos t. I).

المتعالى . واننى أميل ميلا شديدا الى الاعتقاد بأن الميتافيزيقا تنشـأ عن تبرمنا بالعالم الذى يحيط بنا واشمئزازنا من الحياة التجريبية .

واندماج الفيلسوف فى أعماق الوجود يسبق نشاطه الادراكى ، بل يشمله أيضا . والفيلسوف لا يستطيع أن يبنى فى الفراغ ، كما أن تعقبه للفلسفة لا يمكن أن يفصله أو يعزله عن الوجود مادام لا يملك الا ان يستخلص المعرفة من الوجود ومأسـاة الفيلسوف تحـدث فى أعماق وجوده ، ومشاركته الأصيلة فى غريبة الوجود هى التى تيسر له فهم الوجود . ولكن ، أليس الدين هو حياة الانسان التى كشفها الوحى ، حياته فى أعماق الوجود ؟ فكيف يمكن أن تتجاهل الفلسفة الدين ؟ هذا هو جوهر المأساة كما يعانيها الفيلسوف ، فهو من ناحية لا يستطيع أن يذعن ــ بل ينبغى ألا يذعن حقا لسلطة الدين ، وهو من ناحية عرضة لأن يفقد كل فكرة عن الوجود ، وما يمكن أن يصدر عنها من قوة ، حينما يعرض عن التجربة الدينية .

وللميقظات الفلسفية دائما مصـدر دينى ، فالمذاهب التى سبقت سقراط ترتبط ارتباطا وثيقا بالحيـاة الدينية اليونانية . وثمة اتصـال وثيق أيضا بين الأفلاطونية والأسرار الأورفية ، وفلسفة العصر الوسيط مسيحية عن وعى وادراك . كما شـيدت فلسفة كل من « ديكارت » و « اسبنوزا » و « ليبنتس » و « بركلى » وكذلك المثالية الألمانية على عناصر دينية ، بل انى أميل الى الاعتقاد ــ مهما يبدو فى هذا الاعتقاد من غرابة ــ أن الفلسفة الحديثة عامة ، والفلسفة الألمانية خاصة أشد مسيحية فى جوهرها من فلسفة العصر الوسيط بسبب موضـوعاتها الرئيسية وطبيعة تفكيرها ، وذلك لأن فلسفة العصر الوسيط كانت لا تزال قريبة العهد بالفلسفات اليونانية والأفلاطونية والأرسـطية من حيث مبادىء تفكيرها ، ولم تكن المسيحية قد اسـتطاعت بعد أن تتغلغل فى فكر العصر الوسيط .

وقد نفذت المسيحية الى ماهية الفكر نفسه فى فجر العصـور الحديثـة حيث صـادف ذلك مولد الفلسـفة الديكارتية ، وكشفت عن ناحية جديدة من المشـكلة الفلسفية بأن جعلت الانسـان مركزا للكون ، وهـذا يتفق مـع التغيير الثـورى الذى أحدثته المسيحية ، فقد كان الاهتمـام بالموضوع هو الاتجاه الأسـاسى للفلسفة اليونانية ولكن الفلسفة الحديثة تهتم بالذات ، وذلك نتيجة لتأثير المسـيحية فى تحرير الانسـان من ربقة العـالم الموضوعى الطبيعى ، وكانت

مشكلة الحرية - التي لم تلعب دورا في الفكر اليوناني - هي النتيجة المباشرة لهذا التحرير · ومن الواضح أنني لا أعني بذلك أن الفلاسفة الألمان كانوا أشد مسيحية من القديس « توما الأكويني » أو المدرسيين ، أو أن فلسفتهم كانت مسيحية كلها ، فليست بنا حاجة الى القول بأن « القديس توما » كان أقرب الى الله من « كنت » و « فخته » و « شلنج » أو « هيجل » ، ولكن بينما كان من الممكن أن تظهر الناحية الفلسفية من مذهب القديس « توما الاكويني » في عالم غير مسيحي ، فانه من المستحيل ان نتصور ظهور المثالية الألمانية خارج المسيحية · وقد كان من أثر المسيحية كلما نفذت الى أعماق الفكر والمعرفة أن حرر الانسان من سلطة الكنيسة وقيودها اللاهوتية ، واكتسبت الفلسفة مزيدا من الحرية بأن استخلصت المسيحية مما شابها من عناصر فلسفية جبرية . بيد أن رجال اللاهوت أبوا الاعتراف بهذا التحرير للوعي المسيحي او الاعتراف بأن المسيحية قد أصبحت شيئا باطنا (محايثا) وهذه الباطنية كانت دائما مصدرا لقلق الكنيسة الرسمية ، ولكن الفلسفة شأنها في ذلك شأن الدين الحقيقي يمكن أن تترك أثرا طيبا بأن تطهر الدين من عناصره الخارجية التي لم ينزل بها الوحي ، ومن الاضافات الاجتماعية البحتة . وأشكال المعرفة البالية ·

ويزداد صراع الفيلسوف البطولي حدة بظهور عدو آخر ، ويبدو حقا ان العالم كله يتحد لينكر على الفيلسوف حقه في التفكير الحر . فما يكاد يتخلص من عوائق العقائد الدينية واللاهوت والسلطة الكنسية حتى صار ينتظر منه أن يسهم في عقائد العلم . وما يكاد يتحرر من أوامر قوة عليا حتى يخضع لأوامر قوة سفلى · وهكذا وجد نفسه وقد اعترضت سبيله المعتقدات الدينية والعلمية في موقف من التقييد لايمكن احتماله · ولم يسمح للفيلسوف بالتفكير الحر الا في فترات قصيرة فحسب ، ولكن هذه الفترات آتت ثمارها الفلسفية الرائعة . وموقف الفيلسوف لم يكن آمنا في يوم من الأيام . فانه لايستطيع أن يطمئن الى استقلاله ، وانما يبقى دائما هدفا للنفور · وحتى « الجامعة » لاترضى به الا على شرط أن يلتزم الصمت فيما يتعلق بفلسفته الخاصة . وأن يكرس عنايته أولا لتاريخ الفلسفة ، ولمذاهب الفلاسفة الآخرين ·

والعلم غيور من الفلسفة شأنه في ذلك شأن الدين · وهو كالدين أيضا قد شيد مذهبا يزعم أنه من الممكن استبداله بالفلسفة · وهذه القطعية العلمية هي حقا المصدر الرئيسي للهجمات التي توجه الى الفلسفة ،

اذ أن العلم لم يكتف بان يتقدم باستمرار فى تضييق مجال الفلسفة ، ولكنه حاول أيضا أن يقضى عليها قضاء تاما ، وأن يستبدلها بادعائه الشمول ، وهذه المحاولة هى ما تعرف عادة باسم « النزعة العلمية » scientism ويعرفها « ماكس شيللر » بأنها « ثورة العبيد » أو ثورة الأدنى على الاعلى (١) • وهذا حق ، اذ ماذا يدفع الانسان الى آن يرفض الخضوع للدين اذا كان قد رضى بأن يخضع للعلم ؟ ومن رأى « شيللر » أن الفلسفة اذا كانت استسلمت للايمان فانها كانت تستطيع أن تسيطر على العلم ، وهو بالطبع لا يقصد بالايمان اللاهوت أو سلطة الكنيسة الخارجية – أى الدين بعد آن أصبح هيئة اجتماعية ، فالايمان لايستطيع أن يستعبد الفلسفة ولكنه يستطيع آن يمدها بالغذاء فحسب ، غير أن الفلسفة فى صراعها مع الدين من حيث هو سلطة متحكمة تعاقب أبحاث الفلسفة الجريئة بالاعدام حرقا قد انتهت الى العزوف عن الايمان بوصفه نورا داخليا يمهد السبيل الى المعرفة •

هذه هى الظروف التى تآمرت لكى تجعل من موقف الفيلسوف موقفا فاجعا • ولكن ، ربما كانت المأساة كامنة فى الموقف نفسه سواء أكان الفيلسوف مؤمنا ، أم لم يكن ، فاذا كان الفيلسوف غير مؤمن فان تجربته وأفقه يضيقان ، ويوصد شعوره فى وجه العوالم كلها اللهم الا عالمه وحده ، وتجدب معرفته ، ويفرض قيوده الخاصة على الوجود ، فانعدام المأساة هو مأساة الفيلسوف الذى يفتقر الى الايمان ، وبينما نرى أن الايمان مرادف للشعور بالعوالم الأخرى ، وبدلالة الوجود ، فان فيلسوفا من هذا النوع يصبح فى نهاية الأمر عبدا لحريته الخاصة . ولكن حينما يكون الفيلسوف مؤمنا من ناحية أخرى فان مأساته تتخذ صورة مغايرة ، اذ يصطدم فى محاولته لممارسة نشاطه الذهنى بالنظام الاجتماعى الذى يصبح فيه الايمان شيئا خارجيا عن طريق سلطان الكنيسة وعلى أيدى رجال اللاهوت الذين يفرضون قيودهم من اتهامات بالالحاد وما يجره ذلك من اضطهادات مختلفة • وهذا التعارض يصور الصراع الدائم بين الايمان باعتباره ظاهرة أولية – أى كعلاقة مع الله – من ناحية ، وبين الايمان باعتباره ظاهرة اجتماعية ثانوية بحته ، وباعتباره علاقة مع الهيئة الدينية من ناحية أخرى • ولكن مأساة الفيلسوف لاتقتصر على هذا المدى • ويكابد الفيلسوف هذا الصراع بكل شدته حينما يلقى نفسه وحيدا معزولا عن غيره من البشر ، والفيلسوف

(١) Max Scheller, Vom Ewigen im Menschen.

لا يستطيع أن ينسى ايمانه أو الحقيقة التى كشفت له حتى أثناء ممارسته فى حرية لملكاته الادراكية ، وهنا لانتناول المشكلة الخارجية لعلاقته مع الآخرين أو مع الممثلين الرسميين للدين وانما نهتم بمشكلته الداخلية الخاصة بمعرفته فى علاقتها بايمانه الخاص ، وتجربته الروحية الخاصة .

وقد حل القديس « توما الأكوينى » هذه المشكلة بأن وضع نظاما كهنوتيا متصاعدا تستقل فيه كل درجة بنفسها وتخضع فى الوقت نفسه للدرجة التى تعلوها (١) . وهكذا عملت الفلسفة مستقلة عن الايمان . ولكن فى هذا النظام التصاعدى سيطر اللاهوت على الفلسفة بوصفه الحكم الأعلى للمشكلات النهائية . وفى هذا النظام أيضا احتلت المعرفة الصوفية مكانا أعلى من اللاهوت . وهكذا تمكن مذهب القديس « توما الاكوينى » من أن ينجح فى القضاء على أى عنصر من عناصر المأساة بحذف كل تضاد بين الفلسفة والايمان . فالفلسفة تبدو مستقلة فى هذا المذهب تمام الاستقلال ، ولكنها فى الحقيقة مسترقة تماما مادامت تمثل البرهان القطعى على فلسفة معينة . وأما القديس « بونافنتورا » فقد حل المشكلة على صورة أخرى ، فقد أكد أن الايمان ينير الذهن ويغيره (٢) . وأنا شخصيا أكثر ميلا للاتفاق معه على الرغم من أنه هو الآخر لم يدرك المأساة التى تنطوى عليها الفلسفة .

ومن الخطأ أن نعتقد أن العاطفة لايمكن الا أن تكون ذاتية وحسب ، بينما الفكر هو وحده الذى يتسم بالموضوعية ، وأن الذات العارفة لاتستطيع أن تدرك الوجود الا عن طريق العقل بينما تقتصر العاطفة على العالم الذاتى وحده ، وهذا هو تصور مذهب القديس « توما » والفلسفة العقلية بوجه عام ، وكل الفلاسفة اليونانيين الذين حاولوا الانتقال من العقيدة الى العلم ، بل هو فى الواقع تصور معظم الفلاسفة . وهذا التصور قائم على حكم فلسفى سابق لم نشرع فى تفنيده الا فى يومنا هذا . وقد ساهم « ماكس شيللر » وغيره من دعاة الفلسفة الوجودية مساهمة كبيرة لتحقيق هذه الغاية . والواقع أن عكس ذلك هو الصحيح ، فالعاطفة الانسانية ليست ذاتية اللهم الا فى فضلة فردية ضئيلة ، وهى

---

(١) Cf. Jacque Maritain : Distinguer pour unir, ou les degrés du savoir.

وهذا الكتاب هو الكلمة الأخيرة فى مذهب القديس توما فى صورته الحديثة .

(المؤلف)

(٢) Gilson : La philosophie de saint Bonaventure.

في شطرها الأعظم قد أحالها المجتمع الى شيء موضـوعى ، وعلى العكس من ذلك يمكن أن يكون العقل ذاتيا الى حد كبير ، بل هو فى أغلب الأحيان أكثر فردية من العاطفة وأقل خضوعا للاحالة الموضوعية التى يقوم بها المجتمع ، وان يكن هذا القول صـادقا صدقا جزئيا ، وفضلا عن ذلك فان المعنى نفسه الذى يحمل على كلمتى « ذاتى » و « موضـوعى » فى حاجة الى مراجعة بالغة الدقة ، فان مسألة تحديد هل ادراك الحقيقة ذاتى أو موضوعى على جانب كبير من الخطورة . وأيا كان الحـل فاننـا على يقين من أمر واحد وهو أن الادراك الفلسفى فعل روحى لايقوم به العقل وحده ، وانما تتركز فيه مجموع القوى الروحية للانسان سواء ما ينتمى منها الى وجوده الارادى ، أو الى وجوده الشعورى .

ويزداد الميل فى الوقت الحاضر الى الاعتراف بوجود طريقة وجدانية للادراك كما تخيلها « بسكال » ، وأكدها فى يومنا هذا « ماكس شيللر » و « وكيسرلنج » (١) . فمن التحيز الاعتقاد بأن المعرفة عقلية دائما ، وأنه لا وجود مطلقا لمعرفة لا عقلية . اننـا فى الواقع نفهـم عن طريق الوجدان أكثر مما نفهم عن طريق العقل . ومما يجدر بشيء من امعـان الفكر أن الحب والتعاطف لايساعدان وحدهما على تحصـيل المعـرفة . بل ان العداء والبغض يساعدان أيضا فى هذا المجال . والقلب هو مركز الانسان بأسره ، وهذه حقيقة مسيحية قبل كل شيء . والجانب الذوقى كله من المعرفة وجدانى لأنه يعبر عن « أحـكام القلب » (١) . ومعيار القيمة له مكان هام فى المعرفة الفلسفية ، ولما لم تكن ثمة وسيلة لفهم « المعنى » بغير معيار للقيمة ، فان فهم هذا « المعنى » قائم أساسا على معرفة القلب ، والفهم الفلسفى يحتاج الى وجـود الانسـان بأسره ، أى اتحاد الايمان بالمعرفة . فهناك عنصر من الايمـان حاضر فى كل تفكير فلسفى مهما يكن ايغاله فى النزعة العقلية ، وهذا العنصر موجود عند « ديكارت » و « اسبنوزا » و « هيجل » .

هذه واحـدة من الحقائق التى تثبت تناقض فكرة « الفلســفة العلمية » ، فهذه الفلسفة من اختراع مفكرين محرومين من أية موهبـة فلسفية صادقة ، أو الشعور بأن لهم رسـالة معينة ، هم هؤلاء الذين

---

(١) Keysering : Méditations sud-américaine.

(٢) يشير بردتائف الى عبارة بسكال المشـهورة : « للقلب أحكامه التى ليسـت للعقل » . (المترجم)

لا يضيفون شيئا الى الفلسفة • والنزعة العلمية ـ باعتبارها نتيجة لقرن ديموقراطى لايعترف بفكرة الفلسفة ذاتها ـ ليست فى مركز يسمح لها بتقدير دلالة العلم نفسه ، وتقدير امكانيات الانسان العقلية اذ أن وضع المشكلة نفسه يتعالى على حدود العلم . والنزعة العلمية تعالج كل شىء من حيث هو موضوع ولا تعفى من ذلك الذات نفسها •

ووجود الفلسفة يفترض طريقة فلسفية خاصة للمعرفة تتميز عن الطريقة العلمية . فالفلسفة العلمية انكار للفلسفة الأساسية ، وانكار لما لها من أولوية (١) • والاعتراف بوجود طريقة وجدانية للادراك ، وحسية لادراك القيمة ليس معناه انكار العقل ، وانما على العكس من ذلك ، اذ أن العقل نفسه يحتاج الى استرداد تكامله ، كما كان هذا التكامل مفهوما فى العصر الوسيط . عندما كان للعقل عند المدرسيين دلالة روحية وذلك برغم تعلقهم بالمذهب العقلى • وليست مهمة الفلسفة أن تستريب بالعقل ، وانما أن تميط اللثام عن متناقضاته ، وأن توضح له حدوده ، على أن تحتفظ فى الوقت نفسه بما له من باطنية ، وعلى ضوء هذه الفكرة يظل رأى « كنت » عن المتضاداتantinomies صحيحا • وعلينا ألا نلتمس معيار الحقيقة فى العقل أو الذهن ، وانما علينا أن نلتمسه فى الروح المتكامل . ويظل القلب والضمير المصدر الأعلى للقيمة وللمعرفة على السواء • وليست الفلسفة مرادفة للعلم ، بل انها ليست علما للماهيات ، ووظيفتها أن تهب الروح وعيا خلاقا لمعنى الوجود الانسانى ، وهذا يقتضى الفيلسوف تجربة كافية عن المتناقضات الانسانية، وعن المأساة المتضمنة فى رسالته ، وكيف يمكن للفيلسوف ألا يلمس ما يصيب فلسفته من جدب وصغار اذا هو أصر على ألا يشعر بهذه المأساة ؟

والحدس هو العامل الذى لايمكن أن تقوم للفلسفة قائمة بدونه ، ولكل فيلسوف حقيقى حدس خاص به ، ولايمكن للحدس الفلسفى أن يشتق من شىء غيره ، فهو أولى ، وهو المصدر الذى ينبع منه النور الذى يضىء كل فعل من أفعال المعرفة ، ولا يمكن أن تحل الحقائق الدينية أو العلمية محل الوجدان ، والمعرفة الفلسفية تتوقف على مدى التجربة ، كما أنها تفترض أيضا تجربة ذات طابع فاجع أساسى لمتناقضات الوجود

---

(١) لم يكن « هسرل » داعية من دعاة النزعة العلمية ، لأنه يفسر العلم كما يفسره اليونان ولا يأخذه بالمعنى الذى يأخذه به القرنان التاسع عشر والعشرون •

الانسانى . **فالفلسفة تقوم اذن على تجربة للوجود الانسانى فى أشد حالات امتلائه** . وهذه التجربة تتكامل فيها حياة الانسان العقلية والوجدانية والارادية . واذا كان العقل مستقلا عن كل سلطة خارجية ، فهو معتمد على نفسه فى الظاهر ، ولكنه رغم ذلك ليس مستقلا استقلالا داخليا فى علاقته بحياة الفيلسوف كلها أثناء سعيه وراء المعرفة وهو لا يسمح لنفسه بأن ينسلخ عن شعوره وارادته ، عن حبه وبغضه ، وعن معياره للقيمة . وهو يكتشف — أى العقل — أساسه الوجودى فى أعماق وجوده الخاص وفى ألفته لهذا الوجود الخاص ، فيكيف نفسه مع اعتقاد الفيلسوف أو شكه ، وهو يختلف مع اعتقاده اذا امتد الشعور أو تضاءل ، ولكن الوحى يحيله شيئا آخر .

ونستطيع أن نلاحظ هنا أن مذهب شمول العقل مذهب خاطىء (١) . فان هذه المبادىء القبلية a priori متحركة متغيرة ، ويجب أن نتجنب الخلط بين الوحى الالهى وعالم الغيبيات ، وبين الفهم العقلى لها ، فان الفهم العقلى صفة انسانية ، لأن الانسان هو الذى يفهم الوحى الالهى وعالم الغيبيات . ولكن الوحى الالهى يغير من عقل الانسان الذى يتحول داخليا نتيجة لصدمة الوحى ، وبهذا يتمكن الانسان من أن يرى فى وضوح كل ما فيه من متناقضات وحدود لاصقة بطبيعته . ومجرد قبول الوحى فعل فلسفى مهما يكن من بدائيته . والوحى يقدم لنا حقائق ومعطيات من نوع صوفى ، ولكن الموقف العقلى الذى نتخذه نحو هذه الحقائق والمعطيات لا شأن له بالوحى لأنه قائم هو نفسه على فلسفة محددة . ولا يستطيع انسان أن يحيا دون أساس فلسفى مهما يكن بدائيا ساذجا صبيانيا أو لاشعوريا ، وكل انسان يفكر أو يتحدث يستخدم الأفكار والمقولات والرموز والأساطير ، ويعبر عن ذوق خاص . فهناك دائما فلسفة صبيانية فى أساس الايمان الصبيانى . وهكذا نرى أن الاعتراف الذى لايخالطه النقد للعلم الدينى — أن اعتراف الانسانية البدائية — يقتضى استخدام مقولات فكرية معينة ، مثل مقولة « الخلق » باعتباره لحظة من لحظات الزمان .

والمعرفة فعل وليست مجرد تقبل سلبى للأشياء ، فهى تضفى المعنى على الموضوع ، وتخلق التشابه ، وتنشىء مقياسا عاما بين الذات

---

(١) يلح النظريون من أصحاب النزعة العلمية مثل « مايرسون » على شمول العقل . انظر كتابه :

De l'explication dans les sciences.

العارفة والشيء المعروف • وهذا القول يصدق خاصة على « الثيوصوفية » (المعرفة بالله) • والمعرفة هي حقا احالة انسانية بأعمق معنى أنتولوجي لهذه الكلمة • فهناك درجات متعددة لهذه الاحالة الانسانية (أو التأنيس)، وأعلى هذه الدرجات يوجد في المعرفة الدينية ، لأن الانسان صورة من الله ، وبالتالي فان الله يحتوى في نفسه على صورة الانسانية ، وعلى ماهية الانسانية الخالصة • ويتلو هذه الدرجة المعرفة الانسانية التي تقتضي هي أيضا الاحالة الانسانية ، أي ادارك الانسان لسر الوجود المتأصل فيه، وفهم الوجود بالقياس الى الوجود الانساني والمصير الانساني • والاحالة الانسانية بأدنى درجاتها في المعرفة العلمية وخاصة في العلوم الطبيعية ـ الرياضية Physico-mathématique (١) وعلم الطبيعة المعاصر يثبت خلو العلم من كل طابع انساني لأن أبحاثه تفضي به الى خارج الكون الانساني كما يفهمه الانسان • وعلماء الطبيعة لا يدركون أن هذه الأبحاث الطبيعية الخالية من كل طابع انساني ما هي الا رمز لقوة المعرفة الانسانية ، وأن تقدمها السريع يثبت أصالة الانسان • مواجهة أسرار الطبيعة ، ويثبت فوق كل شيء انسانيته الأساسية • وكل معرفة تضرب بجذورها في أعماق الوجود الانساني وتشهد على فاعلية الانسان باعتباره كائنا متكاملا تمتد قوته الى المتناقضات والخلافات ، والى قلب المأساة الكامنة في موقف الفيلسوف •

والمعرفة تقوم على تفاعل مبادىء ثلاثة هي : المبدأ الانساني ، والمبدأ الالهي ، والمبدأ الطبيعي ، فهي نتيجة للتفاعل المتبادل للحضارة الانسانية واللطف الالهي والضرورة الطبيعية • ومأساة الفيلسوف تنبع من محاولة الحد من سعيه في سبيل المعرفة عن طريق استحضار اللطف الالهي أو الاهابة بالطابع الشامل للضرورة الطبيعية • واذا كان الله والطبيعة موضوعين من موضوعات البحث الفلسفي ، فان تعارض هذا البحث سواء مع الدين القطعي أو العلم أمر لا مناص منه • غير أن الميدان الحقيقي للبحث الفلسفي هو الوجود الانساني ، والمصير الانساني، والغرض الانساني • والانسان هو الموضوع الحقيقي لمعرفة الفيلسوف ، وعن طريق الانسان يستطيع أن يفهم الله والطبيعة معا ، ولكنه لايستطيع أن يمضي في أبحاثه دون أن يتعثر في الأشكال الموضوعية للمعرفة التي تزعم أنها تدعو الى الحقائق النهائية عن الله والطبيعة ، والفيلسوف على استعداد لقبول الوحي الالهي والايمان ولكنه يجب عليه أن يتجنب

(١) يرى « ليون برونشفك » طابعا روحيا في العلوم الرياضية •

الاذعان لتفسيراتها الطبيعية ، كما يجب أن يرفض تماما قبول الادعاءات الشاملة التى يضعها العلم الطبيعى ٠

والحق ان جانب الدين فى الصراع الناشب بين الدين والفلسفة حينما تطالب الفلسفة بالحلول مكان الدين فى ميدان الخلاص والحياة الأبدية ، غير أن الحق الى جانب الفلسفة حينما تتطلع الى بلوغ درجة فى المعرفة أعلى من تلك التى تبلغها بالعناصر الساذجة من المعرفة التى يتضمنها الدين ٠ وبهذا المعنى تستطيع الفلسفة حقا أن تطهر الدين بحمايته من النزعات الموضوعية والطبيعية التى تشوه الحقائق الدينية ٠ والاله الحى الذى يتوجه اليه الناس بصلواتهم هو اله ابراهيم واسحاق ويعقوب ، وليس اله الفلاسفة أو فكرة المطلق ٠ بيد أن المشكلة أكثر تعقيدا مما تصور « بسكال » ، لأن اله ابراهيم واسحاق ويعقوب لم يكن هو الاله الموجود فحسب ، أى الاله الحى الشخصى ، ولكنه أيضا اله قبيلة بدائية من القبائل الرحل ، أى اله ينزل الى المستوى العقلى والاجتماعى لهذه القبيلة ٠ والروح فى التماسها للمعرفة عرضة دائما للاشتباك بروح التقاليد الغافية ، وليس من اليسير على الفلسفة أن تتكيف وفق روح القطيع ٠ ولقد كان الفلاسفة دائما جماعة ضئيلة من الأشخاص بين مجموع البشر ٠ أليس من الغريب أن تكون مثل هذه الجماعة الضئيلة من الناس موضوعا لكل هذا العداء ؟ تحالف ضدهم رجال الدين واللاهوت والكنيسة والمؤمنون والعلماء والمتخصصون فى كل فرع من فروع المعرفة ، والسياسيون والاجتماعيون ورجال الدوله من محافظين وثوريين ، والمهندسون والفنيون والفنانون ، وأخيرا جمهرة البشر ٠ وهكذا يبدو وكأن الفلاسفة هم أوفر أعضاء الدولة نصيبا من الاهمال ، أى هؤلاء الذين لا يؤدون وظيفة هامة سواء فى الحياة السياسية أو الاقتصادية ٠ وعلى الرغم من ذلك فان الطبقات الحاكمة أو هؤلاء الذين يطمحون الى القوة ، ويقومون بدور هام فى حياة الدولة أو المجتمع أو يأملون فى القيام بمثل هذا الدور يتفقون جميعا على اضمار العداء للفلاسفة ، ويبدو وكأنهم لايستطيعون أن يغفروا للفلسفة أنها لاتخدم أهدافهم ، ولأنها شغل لا مبرر له لعدد قليل من الناس ، وعبث لا طائل وراءه للعقل ٠ ولكن هل الفلسفة شىء من هذا كله ؟ ان من العسير حقا أن نفهم كيف يمكن أن يكون استغراق عدد قليل من الناس فى تزجية وقت يخلو من كل حقيقة أو صواب سببا فى اثارة كل هذا العداء والاستنكار الشاملين ٠

ثمة مشكلة نفسيه معقدة تكمن وراء هذا كله ، فاذا كان من الحق ان الفلسفة معادية للغالبيــة العظمى من الناس ، فمن الحق أيضــا أن كل انســان فيلسوف بمعنى من المعانى ، دون ان يدرى ذلك · وهؤلاء الذين لا يعلمون كثيرا عن الجهاز الفنى للفلسفه لا يترددون فى استخدام هذا اللفظ فى التعبير عن الاستهزاء والسـخرية · وفى الحديث العادى تستخدم كلمة « ميتافيزيقا » باعتبارها عبــارة من عبارات السباب ، واصبح المتافيزيقى من الشخصيات المضحكة ، وقد يصادف ان يكون الامر كذلك ، ولكن رغم هذا كله فان من الحق أن كل انســان ، شعر بذلك أو لم يشعر ـ يحاول أن يحل مشكلات ذات طبيعة ميتافيزيقية ، وهذه المشكلات أكثر مساســا بحياته من المشكلات الرياضــية والطبيعية والفلسفية الشائعة سمة مشتركة للطوائف والطبقات والمهن المتعــددة كالسياسة سواء بسواء ، والانسان الذى يشعر بنفور من الفلســفة ، أو الذى يحتقر الفلاسفة ـ له هو أيضا فلسفته الخاصة · ولو لم يكن ذلك حقا بالنسبة للسياسى والثورى والمتخصص والمهندس ، والرجــل الفنى ، لما خطر لهم أن الفيلسوف رجل لاتدعو اليه الحاجة ·

وتعلمنا التجربة أن موقف الفيلسوف ، بل موقف الفلسفة نفسـه ـ تكتنفه الاخطار من كل جانب ، فالفيلسوف لا يؤدى أية وظيفه اجتماعيه فحسب ، بل ان جلال رسالته يســمو به على الواجبـات التى يفرضـها المجتمع · والفلسفه أساسا وظيفة شخصية أكثر من أن تــكون وظيفة اجتماعية · وبينما يحمى المجتمع الدين والعلم رغم اختلاف طبيعتهما التى تصل الى حد العداء أحيــانا ، وبفضل ما يقومان به من دور اجتماعى يتمتعان بتأييد الهيئات المختلفة ، نرى أن الفلسفة تقف عزلاء وحدها ، وما من أحد يتقـدم للدفاع عن الفيلسوف الذى يفتقر عامة الى الســند الاقتصادى · والحق الذى يكتشفه لا يحسب لتفكير الناس حســابا ، وانما عقله وحده هو الذى يقوم بالكشف عما هو أعلى من الانســان ، وعما هو الهى · والمجتمع لايعينه على طلبه للمعرفة ، وفى كل فيلسوف شىء من « اسبنوزا » ومصيره · فعدم استقرار الفيلسوف من الوجهـة الاجتماعية ، والطابع الشخصى لفكره ، وموقفه العام ، كل هذا يتصالح جميعا ليجعل رســالة الفيلسوف وثيقة الصلة برسالة النبى ، بل ان موقف النبى أشد حرجا ، وهو أكثر تعرضا للاضطهاد وهو يشغل نفسه بمصائر شعب أو طائفة ، وهكذا فان الفيلســوف الذى يتسم بالنبوة هو أشد الناس انعزالا وأقلهم تمتعا بالتسامح ، وأكثرهم وحدة · وحينما يناصر الفيلسوف تقليدا معينا ، فانه يشعر بنفســه عضــوا فى عائلة

فلسفية ، عضوا فى المدرســة الافلاطونية مثلا أو الكنتية • وقد يتبلور التقليد الفلسفى حول ثقافة قومية ، أو ربما أفضى الى انشاء مدرسة • وبهذه الوسائل قد يجد الفيلسوف شيئا من التأييد والحماية ازاء الهجمات التى تنوشه من كل جانب • وهذا لا ينطبق أيا كان الأمر على الحدس الفلسفى ساعة مولده ، وفى أثناء الفعل الخلاق بمعناه الدقيق ، والفلسفه الاكاديمية مثلا هيئة اجتماعية تفيد من وســائل الحماية التى يملكهــا المجتمع طوع أمره ، ولكن مؤسسى الأديان والأنبياء والرسل والقديسين والصوفية كلهم لايجدون سبيلا للدفاع عن أنفسهم ازاء المجتمع ، وهكذا لايتمتع الدين باعتراف المجتمع وحمايتــه الا بعد أن يتحول الى هيئــة اجتماعية •

وللانســـان أن يختــار بين موقفين فى كل فعل ابداعى وعقــلى • فهو يستطيع أن يواجــه سر الوجــود ، أو السر الالهى ، أو يســـتطيع أن يقتصر فى تشييد علاقاته على مســتوى اجتماعى صرف • وفى الحالة الأولى يصل الى فلسفة حقيقية عن طريق الحدس والوحى ، وفى الحالة الثانيــة يكره على أن يلائم بين معرفته الفلسفية وما كشف له من الحق وبين مقتضيات مجتمع معين • ولكن فى مقابل الأمن الاجتماعى الذى يمنح له ، عليه أن يزيف ضميره ، وأن يساعد على نشر بعض الأكاذيب النافعة للمجتمع • ويميل الانسان وسط المجتمع وبين غيره من الناس الى أن يصبح ممثلا ، وهو ممثل أيضا حينما يصبح كاتبا ، وهو مرغم على أن يلعب دورا بسبب مركزه الاجتماعى ، وهو كالممثــل يعتمد على الغير وعلى الجماهير وعلى البوليس فى حمايته اذا احتاج الى الحمـــاية ، والرجل الذى يشرع فى التماس الحقيقة ، والذى يجد نفسه وجها لوجه أمام السر الالهى ، لايصرخ فحسب فى الوحشة التى تكتنفه ، ولكنه يترك نفسه عرضة لهجمات القوامين على الدين والعلم على السواء • وهذا الموقف تتسم به طبيعة الفلسفة ويؤلف ما فيها من مأساة كامنة •

ومن الممكن تصنيف أنواع الفلسفة المختلفة تصنيفات متعددة ، ولكن تمييزا واحدا يبدو على الأقل أن تاريخ الفلسفة يؤكده ، الا وهو الثنائية التى تقوم عليها مبادىء الفلسفة ، وهى ثنائيــة تتدخل فى حل جميع المشكلات الهامة تدخلا نافعــا ، والاختيــار بين هذين النوعين من البحث الفلسفى لاتمليه سلطة خارجية بحيث أن الاختيار اذا تم مرة ، فانه يشهد على الطابع الشخصى للفلسفة ، ومن الممكن تحليـــل هذين النوعين من الفلسفة بالنظر فى هذه النزعات المتقابلة :

١ ــ أولوية الحرية على الوجود ٠	أولوية الوجود على الحرية
٢ ــ أولوية العالم الذاتى على العالم الموضوعى ٠	أولوية العالم الموضوعى على العالم الذاتى ٠
٣ ــ الثنائيـــة ٠	وحدة الوجود
٤ ــ النزعة الارادية ٠	النزعة العقلية
٥ ــ النزعة الحركية ٠	النزعة الى الثبات
٦ ــ النزعة الايجابية وحاسة الخلق (أو الابداع) ٠	النزعة السلبية ، والتأمل
٧ ــ النزعة الشخصية ٠	النزعة اللاشخصية ٠
٨ ــ النزعة الانسانية فى التفسير	النزعة الكونية فى التفسير
٩ ــ الفلسفة الروحية ٠	النزعة الطبيعية ٠

وهذه المبادىء يمكن أن تمتزج امتزاجـا مختلفـا لتؤلف مذاهب متباينة ، وأنا شخصيا قد تم اختيـارى ، وحزمت أمرى على اختيـــار المجموعة الأولى من المبادىء التى تعتنق أولوية الحرية على الوجود ٠ وقبول هذا التعارض الأســاسى بين الحرية والضرورة ، وبين الروح والطبيعة ، وبين الذات والموضوع ، وبين الشخصية والمجتمع ، وبين الفردى والعام يؤذن بفلسفة فاجعة (تراجيدية) ، وان تأكيد أولوية الوجود على الحرية معناه الغاء المأساة ، وعلى العكس من ذلك فان تأكيـد أولوية الحرية على الوجود معناه الاعتراف بها ، وتنبع المأساة عن استحالة بلوغ الوجـود بصورة موضوعية ، أو تحقيق الاتصال الحقيقى بين الأفراد باعتبارهم كائنات اجتماعية ٠ والمأساة تصــدر عن الصراع الأبدى بين « الأنـا » والموضوع ، وهى تنشأ أخيرا عن المشكلة الغنوصية للوحدة ، وهى ميدان الفلسفة الخاص ٠ وهذه هى المشكلة الرئيسية التى يهتم بها هذا الكتاب، هى أيضا تتصل بالتمييز بين فلسفة متعددة المستويات ، فلسفة ليس لها غير مستوى واحد ٠

الفصل الثاني

- الفلسفة الشخصية ، والفلسفة اللاشخصية
  الفلسفة الذاتية والفلسفة الموضوعية ٠
- النزعة الأنثروبولوجية فى الفلسفة ٠
- الفلسفة والحياة ٠

يهتم « كيركجورد » اهتماما خاصا بالطابع الذاتي والشخصي لكل فلسفة ، وبحضور الفيلسوف الحي في الفعل الخاص بالنظر الفلسفي ٠ وهو يذكرنا بمعارضته « لهيجل » وثورته على دعاة العقل الكلي الموضوعي وفلسفة التصورات « ببلنسكى » (١) الذى نلمح تأثيره فى « ديالكتيك » « ايفان كارامازوف » بطل رواية « دستيوفسكى » المعروفة ٠ وليس من شك أن « كيركجورد » كان فيلسوفا أكثر أصالة من « دستيوفسكى » ٠ ولكن ، فلنعد الى موضوع المناقشة الأساسى وهو : هل يمكن للفلسفة أن تكون شيئا آخر غير فلسفة شخصية ذاتية ؟ وسأناقش هذا الموضوع بالتفصيل فيما بعد ، وفي الوقت نفسه سأحاول أن أضع تمييزا هاما بين الحقيقة والموضوعية ٠ فالفلسفة لا يمكن الا أن تكون ذاتية حتى وهى تسعى لان تكون موضوعية ، وكل فلسفة صادقة تحمل طابع شخصية الفيلسوف الذى أبدعها . ولا ينطبق هذا القول على الفلاسفة الفرديين من أمثال القديس « أغسطين » ، و« بسكال » و« كير كجورد » و «شوبنهور » و « نيتشه » فحسب ، ولكنه ينطبق أيضا على الفلاسفة من أمثال « أفلاطون » و « أفلوطين » و « اسبنوزا » و « فختته » و « هيجل » ، فالطابع الشخصى

(١) راجع الكتاب الشيق « اشتراكية بلنسكى » الذى نشره « ساكولين » .. وهذا الكتاب يتضمن رسائل « بلنسكى » التى بعث بها الى « بوتكين » ٠

للفيلسوف يظهر في اختياره للمشكلات ، وفي ايثاره لنمط أو لآخر من انماط الفلسفة التي أشرنا اليها ، وكذلك في طبيعة الحدس السائدة لديه ، وفي مقدار اهتمامه ببعض المشكلات المعينة ، وفي درجة تجربته الروحية ..

وليس معنى قيام « الأنا » أساسا لكل فلسفة أن « الأنا » محصورة بالمذاهب التي تنشأ عنها ، فالفلسفة الصادقة لاتقنع بالنظر في الموضوع، ولكنها تجاهد لبلوغ الحقيقة التي تكمن وراء الموضوع متلهفة بذلك على اماطة اللثام عن معنى الحياة والمصير الشخصي.وحتى مذهب «اسبنوزا»(١) الفلسفي الذي تميز بطابعه الهندسي والموضوعي يثبت أن الفلسفة تنبثق من تفكير الفيلسوف في مصيره ، وهذه الحقيقة ليست في حاجة الى كثير من التكرار ، فملكة الفهم هي أساسا « الأنا » ، هي الانسان كائنا عينيا ... وشخصية ، وليس باعتباره روحا كليا أو عقلا كليا ، أو ذاتا لا شخصية أو وعيا عاما . ومن ثم فان المشكلة الأساسية في الفلسفة هي مشكلة المعرفة الانسانية ، أو معرفة الانسان الشخصية الخاصة ، وكل تفكير خالق هو بالضرورة شخصي ، ولكن هذا لا يقتضي ان يكون صاحب هذا التفكير أنانيا فقد تنبعث أشعة الضوء من مصدر واحد غير أن الأشخاص يختلفون في استقبالها الواحد عن الآخر .

وعلينا أن نرتاب فيما قد يدعيه بعض الفلاسفة من أن تفكيرهم يخلو من كل أثر للوجدان ، ذلك أن أشدهم موضوعية ولا شخصية يدرك عن طريق الشعور ، فلا شك لدينا في أن « ديكارت » قد توصل الى مسألة « أنا أفكر ولذلك فأنا موجود » (الكوجيتو) عن طريق تجربة عاطفية ، وأنه قد قام بكشفه ذاك في نشوة من نوع عاطفي (٢) وتوسله بالعقل للوصول الى هذه النتيجة لا يدل على أنه اقتصر على استخدام العقل فحسب ، ففي تلك اللحظة كانت قواه العقلية قد اتخذت لونا عاطفيا قويا . « وكتاب الأخلاق » لاسبنوزا مشحون بالعاطفة رغم المنهج الهندسي الذي اصطنعه فيه ، والعشق الالهي العقلي عنده يكشف عن نزعة عاطفية عنيفة . وهكذا يمكن أن تقوم النزعة العقلية على أساس العاطفة الشخصية بينما يمكن أن لا تكون « الموضوعية » أكثر من عبارة لاخفاء « العاطفة الانسانية » ، وبهذا المعنى نرى أن فلسفة « هيجل » ليست أقل ذاتية

(١) cf. L. Brunschvieg, Spinoza et ses contemporains. (Paris, Alcan, 3e édit. 1923).

(٢) cf. J. Maritain, Le songe de Descartes. (Paris, Edit. R.A. Corréa, 1932).

من فلسفة « نيتشه » ، ووفقا لذلك فان كل فلسفة موضوعية ولا شخصية تماما تفتقر حقا الى كل أصالة مبدعة ٠

والبحث الذاتي هو وحده الذى يمكن أن يكشف عن الحقيقة الاصيلة الكامنة فى الوجود البدائى ٠ أما البحث الموضوعى أو اللاشخصى فلا يمكن أن ينجح الا فى الكشف عن المظاهر الثانوية المنعكسة للوجود ٠ ويجب أن نحطم عامدين هذه الفكرة ألا وهى أن الأشكال الذاتية والشخصية للتفكير تقيد الفرد وتجعل من المستحيل عليه أن يوطد مكانه فى الكون ، أو أن يتصل بالعالم الالهى ، فعكس ذلك صحيح ، اذ أن الأشكال الموضوعية واللاشخصية للتفكير هى أضخم العقبات التى تعترض طريق الفرد فى خروجه من عزلته الذاتية ، واتصاله بالكون ٠ ومن الخطأ أن نخلط بين الاتجاه الشخصى للتفكير ، وبين « العكوف على الذات » وهو شكل من أشكال « السجن الذاتى المؤبد » الذى يفضى فى نهاية الأمر الى الجنون ٠ والعكوف على الذات هو فى الواقع « الخطيئة الأولى » أما الشخصية فهى انعكاس لصورة الله ومشابهته ، وهى لهذا السبب الطريق الحقيقى الموصل الى الله ، والشخصية هى حقا الموضوع الأول للنظر الفلسفى ، وهذا النظر الفلسفى يمكن أن يكون تجريبيا بمقدار اعتماده على مدى تجربة الفيلسوف واكتمالها ، والشخصية هى صورة للانسان الحى المتكامل الذى يفكر فى حدود الفلسفة الشخصية والانسانية ، وهذا الانسان لا ينفصل عن الفلسفة ما دام الفيلسوف باعتباره موضوعا للمعرفة يضرب بجذوره فى الوجود ، ووجوده سابق لادراكه للوجود ، وهذه الحقيقة هى التى تحدد كيفية معرفته ، فهو يفهم الوجود لأنه هو نفسه جزء من هذا الوجود ٠

ورؤية الفيلسوف محددة تحديدا لا يناله التغيير ، اذ لا يتاح له أن يصل الى ما فى الوجود من امتلاء أو الى الاستنارة الكاملة ، والى هذا يرجع اختلاف التيارات الفلسفية المتعددة ، فان رؤية الفيلسوف « للنور الأصيل » يحددها ادراكه المباشر ، والأشعة الخافتة التى تخترق حجب ضميره المظلمة ٠ وفيما عدا هذا الكشف الهزيل لا اختيار له الا أن يعيد صياغة الأفكار المتفق عليها ، والا أن يثق بالمعرفة التى يجمعها من دراسته ٠

ووراء كل فلسفة رغبة مضنية لتحقيق الحياة : معناها ومصيرها ، وبناء على ذلك فان الفلسفة أولا مذهب للانسان ٠٠ مذهب للانسان المتكامل يشيده انسان متكامل ٠ ولكن هذا المذهب هو ميدان الفلسفة

وحدها ، وليس ميدانا لعلم الحياة (البيولوجى) او علم النفس أو علم الاجتماع ، ومن المحال أن نجرد الفلسفة من طابعها الانسانى . وفى قلقهم على الغاء الخطيئة الأولى ـ خطيئة العكوف على الذات ، هذه النزعة التى تسىء الى النزعة نحو علم الانسان ـ حاول كثير من الفلاسفة القيام بهذه المهمة . ومن الحق أيضا أن كل المحاولات التى بذلت لابعاد الفيلسوف بوصفه انسانا ، وكذلك فكرة الانسانية الأساسية ، قد ثبت أنها وهمية خيالية ـ وان الموقف الغامض الذى تقفه النزعة الى الاقتصار على التفسير لعلم الانسان راجعة الى هذه الحقيقة وهو أنه على الرغم من أن الانسان بوصفه صورة وشبيها للقوة العليا . وللجوهر الالهى للوجود ، وعلى الرغم من أنه مفتاح لغز الوجود فانه مقيد بنغمة معينة ، ونتيجة لذلك يميل الى ارجاع الوجود كله حتى الالهى منه الى مستوى وجوده الناقص . وبدلا من أن نحاول الغاء كل أثر لهذه النزعة الانسانية فى التفسير ، علينا أن نحاول تطهير هذه النزعة والتسامى بها حتى يتمكن الفيلسوف من أن يعكس صورة الوجود الأعلى الكامنة فيه . والفلسفة لا تستطيع أن تكتفى بذاتها اذا أردنا من الاكتفاء الذاتى التجرد من التجربة الحية للانسان المتكامل ، أو الاستقلال عن الذات العارفة الضاربة بجذورها فى الوجود ، فهى لاتستطيع أن تدعى الاكتفاء الذاتى حقا دون أن تعمى بصيرتها عن الحقيقة ، فالفلسفة اذن يجب أن تكون انسانية ، طالما أن معرفتها بالوجود مستمدة من الانسان ، ومشكلتها الرئيسية هى تطهير طبيعة الانسان « الأنثروبولوجية » حتى تكشف له عن طبيعته الأساسية ، عن « الانسان المتعالى » الذى ينبغى ألا نخلط بينه وبين « الوعى المتعالى » غير الانسانى .

والفلسفة انسانية أيضا بمعنى أنها لا يمكن أن تتجرد من الحياة . وأن تستحيل الى فلسفة نظرية صرفة ، فهى أساسا ايجابية ، وعليها أن تقوم بوظيفة نافعة فى تحسين الحياة ، كما حاول دائما كبار الفلاسفة وعشاق الحكمة الحقيقية ، فان ما فى الحياة اليومية من تعاسة وقبح ومظالم تكره الانسان على أن يلوذ بعالم آخر ، عالم التأمل الميتافيزيقى أو الصوفى ، عالم الأفكار ، أو الاحتماء بمدينة الله من جهة ، وقد تثير فيه نشاطه الخلاق ليحيل عالم الحياة اليومية الى عالم آخر جديد من جهة أخرى . والفلسفة الحقة لايمكن أن تكون مشتقة من شىء آخر لأنها قائمة على أساس من الحكمة ، والتجريد الخالص يجعل موقف الفيلسوف زائفا معرضا للانهيار ، وكما أن لغة الفيلسوف تشترك الى حد ما مع

اللغة الدارجة ، فكذلك الفلسفة يجب أن تنمو من التجربة ، فهى قبل كل شىء وظيفة حيوية ، وتعبير متكامل عن الحياة الروحية · وكيف يمكن أن تدعى الفلسفة ادراك سر الوجود اذا رفضت كشف المصير الانسانى ، ولم تظهر عطفها على ما فى هذا المصير من شقاء ؟ الفلسفة أساسا فعل حيوى ، والتفكير المجرد هو الخطأ الذى ارتكبه هؤلاء المتافيزيقيون القدامى الذين قدموا عن جهل اهتمامهم بالحياة وبالبشر وبالعالم قربانا ، والذين اعتصموا بقلعة مثالية من التصورات · وفى هذه الظروف ليس عجيبا أن يصبح الميتافيزيقى هدفا للفضول والتنقص ورمزا للجهل بدلا من أن يكون رمزا للحكمة · والواقع أننا نجد الأساس الحقيقى للميتافيزيقا فى معرفة الحياة ، وفى الواقع العينى ، وفى معرفة الانسان ومصيره ، ولذلك يجب أن تكون الميتافيزيقا تعبيرا عن حركة حية يشترك فيها الفيلسوف اشتراكا فعليا ·

وقد كان « كارل ماركس » ــ وهو يدعى أنه تلميذ للفيلسوفين المثاليين الألمانيين فخته وهيجل ــ يدعو الى هذه الفكرة . ألا وهى أن الفلسفة لايمكن أن تقنع بمعرفة العالم فحسب ، وانما يجب أن تحاول تغييره أيضا وبعثه من جديد ، وكان يعتقد أن تفكير فخته النظرى المجرد فى حاجة الى تعبير عملى ، ومنذ هذه اللحظة شوه الماركسيون ــ وخاصة الشيوعيين منهم ــ هذه الفكرة تشويها شنيعا بأن وضعوا لها دون التزام للمنطق أساسا ماديا ، أى أساس من الفلسفة السلبية ولا ريب أن تلك الفكرة الماركسية تتمتع بقسط كبير من الحق · وأيا كان الأمر فمن الممكن التعبير عنها فى صورة أخرى كما فعلت فلسفة فيودوروف (١) التخطيطية projective التى تدعو الى تغيير العالم تغييرا فعالا · فهل نخرج من ذلك بأن وظيفة الفلسفة « اجتماعية » بحتة ؟ كلا بالطبع لأن الفلسفة

---

(١) « نيكولاى فيدوروفنس فيودورف » (١٨٢٨ ــ ١٩٠٣) فيلسوف روسى كانت لأفكاره الأصيلة آثار واضحة فى كل من « ف· سولولبوفيف » و « دستيوفسكى » و « تولستوى » ، وكان صوفيا مسيحيا فى حياته وعقيدته على السواء · وقد انتقد موقف « تولستوى » السلبى من القيم الثقافية العليا كالعلم والفن ــ انتقادا قاسيا ·

ويربط « فيودوروف » بين فلسفته وبين الدين المسيحى ، وخاصة الأرثوذكسية باعتبارها المذهب الدينى الذى يخلع قيمة خاصة على فكرة البعث والحياة الأبدية · وفى اعتقاده أن الانسانية عندما تتحكم فى الطبيعة تستطيع بعد ذلك ان تتحكم فى الموت ، والسمة الرئيسية لفلسفته هى امتزاج الميتافيزيقا الدينية لديه بنزعة واقعية طبيعية · راجع كتاب N.O. Lossky : History of Russian philosophy, London, 1952—p. 79.
(المترجم)

فى هذه الحالة تصبح شيئا سلبيا ، اذ ليس من شـأن المجتمع أن يملى شيئا على الفلسفة ، وانما من شأن الفلسفة أن تملى على المجتمع ، وتطور الفلسفة من مذهب هيجل الى نزعة « فويرباخ » له دلالته ، لأنه يشير الى الانتقال المحتوم من فلسفة التصورات الشاملة العامة الى الفلسـفة الروحية الانسانية ٠ غير أن انحراف « فويرباخ » المادى ساعد على اخفاء هذه الحقيقة ، لأن الفلسفة المادية عاجزة عن تصور الانسـان باعتباره كائنا عينيا متكاملا ٠ ومن الواضح أيضا أن تطور الفلسفة لايمكن أن يقف عند هذه الدراما الغامضة المسماة بالديالكتيك الهيجلى ٠

وكانت الفلسفة اليونانيـة تعتقد أن اهتمامها ٠ يجب أن يـكون بما هو عام فى مقابل ما هو خاص وفردى ٠ وهكذا شرعت الفلسـفة اليونانية فى اكتشاف عالم الأفكار القائم وراء العالم المحسوس المتحرك للتجربة المتضاعفة ، ولم تنحول قط عن هذه المقدمة الأساسية ٠ ونتيجة لذلك أخفقت فى تمييز الفـرد ، كمـا أخفقت فى كشف الشخصـية ، ولم تلتفت الى ما لفكرة الحرية من أهمية ٠ وورثت الفلسفة المدرسـية هذه النظرة المحددة ، وكانت النتيجة أن النظر الفلسفى فى ذلك العهـد لم يخرج عن نطاق المقدمة التى وضعتها الفلسفة اليونانية ، وهى التصور الذى ينشد الشمول ٠ ومازالت هذه القيود قائمة بدرجة أقل من الفلسفات الاسمية الحديثة ، غير أن التجربة المسيحية ــ وتجربة الوحى قبل كل شىء ــ فتحت آفاقا جديدة كل الجدة ، وكشفت عن سر الشخصـية والحرية ٠

والفلسفة الشخصـية كما أفهمها لاتشترك فى شىء مع التيارات « الذاتية » والفردية والتجريبية والاسمية الشائعة فى أيامنـا هذه ، ومقولة « العام » التى توضـع عادة فى مقابل مقولتى « الفـردى » و « الجـزئى » هى مقولة زائفة ينبغى الغاؤها ، وسنبين حينما يتقـدم بنا البحث حول مشكلة الصلة بين الشخصية والمجتمع أن مقولة « العام » Le géneral ليس لها أساس « أنتولوجى » صحيح ٠ ومبدأ « الشمول » ليس مبدءا عاما ، ولكنـه مبدأ فردى ، ومبدأ « العـام » هو مساومة أو خطأ وصل الى نطاق المعرفة « النورانية » المعرفة أثنـاء تفنيدها لكل الأفكار والتحديدات ، ولكل غائية ٠ ومجالها الخاص الذى يتجاوز ما هو شـخصى وما هو فردى ، هو الاجتماعى الموضوعى الذى يبتعد كل البعد عن الواقع الحقيقى ، وعن العالم الوجودى الالهى ، فهو أصلا مجال اجتماعى صنعته العوامل الاجتماعية ٠ ومبدأ « العموم » يستبعد العنصر الانسانى

أو الفلسفى ، فليس أمام الفلسفة الشخصية عمـــل أهم من اكتشاف الواقع الأصيل الذى يختفى وراء ستار « العموم » المصطنع . وليس من شك أن « اسبنوزا » لم يستلهم أية فكرة « عامة » حينما حاول فى عشقه الالهى العقلى Amor Dei Intellectualis أن يعلو على عزلته فى رؤيته عن السعادة . فكل فلسفة شخصية تساعد فى التغلب على العزلة والانسانية عن طريق المعرفة ، وهكذا تعلو على الحدود المباشرة للفردية .

التأمل الثانى

■ الذات
والإحالة الموضوعية

الفصل الأول

● الذات العارفة والانسان

وجهت المثالية الالمانية الى النزعة الموضوعية فى الفلسفة اليونانية والمدرسية ضربة لا سبيل الى البرء منها.. غير انه من الخطأ أن نفترض ان المثالية الألمانية وعلى رأسها « كنت » قد زعمت فكرة الوجود نفسه ، فان نقدها كان موجها توجيها رئيسيا ضد توكيد الواقعية الساذجة التى تزعم أن العالم الموضوعى والوجود المطلق شىء واحد .. وكان « ديكارت » قد بدأ العمل فى هذا الاتجاه ، ولكن النزعة العقلية السابقة على « كنت » لم تتعمق المشكلة تعمقا كافيا ، واصبح من المحتم نقل مركز الجاذبية الفلسفية من الموضوع الى الذات ، والبحث عن الحل الذاتى لمشكلة الوجود واحتل بذلك عالم الحقائق الموضوعية ــ عالم الموضوعات ــ مكانا ثانويا باعتباره العالم الظاهرى ، وعلى الرغم من أن « كنت » قد وقع فى الخطأ حينما وضع العالم الظاهرى مقابل الموضوع نفسه بوصفه خلوا من التجربة والمعرفة على السواء ، فانه كان على حق فى محاولته التمييز بينهما ، لأن هذا التمييز أفضى الى كشف الذات الفاعلة ، أو الفعالة .

وقد قامت نظرية المعرفة دائما على اساس التضاد القائم بين الذات والموضوع(1) . بيد أنه لم يزل علينا أن نحدد طبيعة الذات ، وعلينا أيضا أن نوضح العلاقة بين الذات الخالصة للمعرفة ، الذات الغنوصية ، وبين الانسان باعتباره « أنا » ، أو ذاتا عارفة ، فقد استبدلت المثالية الألمانية بمشكلة الانسان بوصفه ذاتا عينية عارفة مشكلة الذات الخالصة ، وبوعى كنت المتعالى أو « أنا » « فخته » اللافردية اللاانسانية ، أو الروح الكلى عند هيجل .. وكانت نتيجة

(1) N. Hartmann, Gundzüge einer Metaphysik der Erkenntnis.
وعلى الرغم من أن هارتمان يخرج على المثالية الكنتية ، الا انه مازال محتفظا بالتضاد القائم بين الذات والموضوع .

ذاك أن المعرفة لم تعد صفة انسانية خاصة ، بل أضحت الهية كامنة فى العقل الكلى أو الروح الكلية . وهكذا لم يعد الانسان هو الذات العارفة ، وكان من أثر ذلك أن طبعت الفلسفة بطابع لا شخصى . وأصبحت الفلسفة الشخصية هى والنزعة النفسانية شيئا واحدا . وهذه بدورها أصبحت مسئولة عن تكوين الشخصية الانسانية وعن الأنا الانسانى ، وعن الانسان ، وبقيت المشكلة الأساسية الخاصة بطبيعة علاقة الانسان بشخصيته من ناحية ، وبالشعور المتعالى والعقل الكلى والذات الغنوصية من ناحية أخرى — مشكلة تتطلب الحل . اذ ليس من سبيل الى انكار أن الانسان هو الذات العارفة فى آخر الأمر . وقد استخدم « كنت » الاشكال القبلية a priori لكى يتخلص من النزعة الشكلية الموجهة ضد « شعوره المتعالى » . ولكن هل تقدمت الذات العارفة نتيجة لذلك ؟ وكيف يرتبط الوعى المتعالى بالوعى الانسانى الفردى ؟ وكيف نضع الأساس لصحة المعرفة ؟ او اذا أردنا أن نستخدم المصطلح المثالى .. ما هى الصلة بين ما هو منطقى وما هو نفسى ؟

وهذه المناقشة لا أساس لها من الصحة لأنها تفسر الصفات الانسانية ، والشعور الانسانى خاصة ، من وجهة نظر علم النفس فحسب ، وبذلك تستخلصه من المجالات المنطقية والمتعالية من الوعى ، والنتيجة هى أنها تجعل الانسان نفسه عقبة فى سبيل المعرفة الفلسفية ، وهذا معناه محاولة الغاء « الحضور الذاتى » للانسان من الفلسفة . وبمثل هذه الوسيلة زعم رجال اللاهوت دائما أن الانسان عقبة تعترض سبيل الوحى متجاهلين هذه الحقيقة الا وهى أن الوحى لا يحدث الا لنفع الانسان .. ومن الحق أن الفلسفة انثروبولوجية ومتمركزة حول الانسان دون أن تشعر ، وعلى الرغم من أنها قد تناصب النزعة النفسية العداء ، فانها لا تستطيع أن تهاجم « علم الانسان » (الأنثروبولوجيا) دون أن تعرض وجودها نفسه للخطر . والنزعة النفسية تستتبع النسبية ولكن الطبيعة الانسانية وامكانياتها الكامنة للمعرفة هى المشكلة الفلسفية الحقيقية ، وانصراف المثالية الألمانية عن هذه المشكلة هو نقطة الضعف الأساسية فيها ، واعراضها عن هذه المشكلة يعكس واحديتها الأساسية وقد أشرت غير مرة — على الرغم مما فى هذه الاشارة من مخالفة للمألوف — الى انه لابد من وجود صلة ما بين المثالية الالمانية ومذهب « لوثر » ، وهذه النتيجة تحتاج الى شرح أكثر تفصيلا . فما هى الصلة التى يمكن أن تقوم بين « فختة » و « هيجل » من ناحية ، وبين « لوثر » من ناحية أخرى ؟ فقد يبدو لأول وهلة انهما

على طرفي نقيض . اذ طرد « لوثر » العقل من مجتمعه ورفض الفلسفة ، وأعلن أن الطبيعة الانسانية خاطئة ملوثة . أما « هيجل » فعلى العكس من ذلك ، مجد العقل ، ووطد أركان الفلسفة ، وكان ميله للشعور بالخطيئة ضعيفا غاية الضعف . بيد ان المؤثرات الروحية تعمل في مسارب خفية تبعث على الدهشة ، فان « لوثر » قد ترك كل شيء للطف الالهي والتدخل الالهي ، ولم يترك شيئا للفعل الانساني والحرية الانسانية(١) . ولم يكن يعترف بفعل متبادل بين الطبيعتين الالهية والانسانية . ولم تصنع المثالية الالمانية شيئا أكثر من أنها تعمقت هذا الاتجاه الى الواحدية ، اذ اضفت طابعا دنيويا على اللطف الالهي الذى يؤمن به « لوثر » على أنه المنبع الوحيد لكل خير ، وذلك بأن نقلت صفاته الى المعرفة . وعلى ذلك فان الوعي المتعالي والعقل الكلي والروح الكلية ليست جميعا غير أشكال دنيوية للطف الالهي عند لوثر ، بوصفه – أي اللطف الالهي – منبعا لكل معرفة . وتؤكد فلسفة « هيجل » في وضوح خاصة أن الذات العارفة هي الله نفسه ، وهي عقله وروحه ، وليست هي الانسان . وهكذا نجد ان اللطف الالهي الذى كان من الممكن أن يجعل من الفلسفة شيئا سطحيا قد ادى في نهاية الأمر الى تمجيدها ، بل الى تاليهها (أو تقديسها) .

والصعوبة التي نلتقي بها هنا راجعة الى رفض الاعتراف بالفعل المتبادل بين طبيعتي الانسان ، فالمثالية الالمانية تخلع على الذات الخالصة الدرجة القصوى من القدرة ، بل انها تذهب الى حد أن تعزو اليها النشاط الخلاق ، وهي بذلك تقلل الى حد كبير من مساهمة الانسان في المعرفة . ومثل هذا العالم الذى ينشأ عن النشاط الانشائي للعقل لا يكاد يترك مكانا للنشاط الابداعي للوعي الانساني ، والمساهمة التي تقوم بها الحرية الانسانية للعقل لا يحسب لها حساب ، ويبالغ في نشاط الذات الغنوصية على حساب النشاط الانساني الذى ينظر اليه على أنه عنصر سلبي في اعماق المعرفة ، وما على الانسان الا أن يخضع لما يمليه عليه الوعي المتعالي ، وعلى الرغم من أن هذا الاتجاه لم يكن واضحا تماما عند « كنت » الذى لم يكن من دعاة الواحدية ، فقد اصبح واضحا عند فخته وعند شلنج في بداية فلسفته المبكرة ، واخيرا عند هيجل .

---

(١) Cf. Luther, De Servo Arbitrio.

وهذه الافكار تحملنا الى المنابع الدينية وأسس النظرية الفلسفية، وهذه المنابع قائمة على فكرة الاتحاد الالهى الانسانى ، اى فى فكرة الفعل المتبادل بين الطبيعتين الالهية والانسانية ، وبين الحرية والقوة الخلاقة فى كلتا الطبيعتين .. وفكرة الاتحاد الالهى الانسانى هى الأساس الذى تقوم عليه امكانية انشاء فلسفة شخصية أو اية فلسفة تتناول الشخصية الانسانية . ومن الحق أن الوعى الانسانى يميل الى ان يحيل نفسه الى شيء مادى ، والى ان يكون الانعكاس السلبى لطبيعته الفاعلة أصلا ، ولكنه — مهما يكن من أمر — قادر على تجديد نشاطه اذا نفض عنه اغلال العالم الموضوعى . واذا استخدمت كلمة « موضوع » فاننى لا أعنى بها مطلقا أن اى شكل من اشكال المعرفة يمكن أن يستقل عن الذات ، وانما هو يمثل طريقة خاصة لفهم المعرفة والوجود ، فالموضوعية لا يمكن أن تكون عندى مرادفة للحقيقة ، أو لموقف مستقل عن الحالات الذاتية ، وعلى العكس من ذلك فان هذه الكلمة ستعنى اعتماد الموضوعية على الحالات الذاتية ، وعلى العلاقات الانسانية . وبهذه الوسيلة نفسها فان الاحالة الموضوعية لا يمكن ان تكون مرادفة للتحقق او الوحى أو التجسد .

وقد يبدو أن فلسفة « هيدجر » و « يسبرز » الوجودية تعالج مشكلة الانسان ، وأن بحث « هيدجر » الأنتولوجى — كما نلمس ذلك فى كتابه « الوجود والزمان » — يقوم على الوجود الانسانى . وهو يضع « هم » الانسان وخوفه ، وخضوعه للمألوف وللناس ، وكذلك الموت والعالم المنحل فى المجال الأنتلوجى لا فى المجال النفسى كما تتخذ فكرة « المواقف الحدية » عند يسبرز Limit-situation دلالة ميتافيزيقية مثلها فى ذلك مثل مشكلة الاتصال بين الأفراد . ومع ذلك فان أحدا منهما — هيدجر ويسبرز — لم يعالج مشكلة الانسان علاجا حقيقيا ، كما انهما لم يحاولا بناء مذهب فلسفى متسق على اساس من علم الانسان الفلسفى ، ولم يتعمقا المادة الخصبة المنبثة فى تضاعيف أفكارهما لتكوين مذهب محدد عن الانسان ، بل تركا مشكلة طبيعة الانسان دون حل ، كما انهما لم يحاولا بيان السبب الذى من أجله لا يتكشف تركيب الوجود الا عن طريق الوجود الانسانى ، والمصير الانسانى ، ولم يقدما أى تفسير لأصل هذه الفضيلة الانسانية البحتة واعنى بها المعرفة . ويختلف « يسبرز » عن « هيدجر » فى انكاره لامكان قيام ميتافيزيقا موضوعية او علم موضوعى للوجود يتخذ من العالم نموذجا له . وهو ينظر الى الميتافيزيقا فى ضوء ذاتى

شخصى باعتبارها نسقا من الرموز ، وهو لا شك فى ذلك نفسانى يبلغ الغاية من الدقة ، غير انه ينبغى الا ندافع عن الميتافيزيقا دفاعا ذاتيا شخصيا بروح متشككة ، ولكن على أساس الاعتقاد بأنه يفضى الى معرفة أعلى ، وهكذا نعود على أعقابنا الى مشكلة الانسان الأساسية وهى المشكلة التى لم يبحثها الفلاسفة جادين مطلقا ، لسبب غريب ، ولعلهم تجاهلوا هذه المشكلة لأنها كانت تؤخذ عادة على انها تنتمى الى نطاق اللاهوت ، أو على الأقل — الى فلسفة دينية الأصل.

ويمثل « برونشفك » (1) نموذجا شيقا لمحاولة ابعاد النزعة الانسانية الدينيه من الفلسفة ، اذ تقوم فلسفته على أساس نوع من المثالية الرياضية المشتقة أصلا من « أفلاطون » . ويرى «برونشفك» أن كل فلسفة ذات اتجاه بيولوجى تكون متمركزة حول الانسان . وأن كل فلسفة مستوحاة من الرياضيات فلسفة تخلو من عنصر الاهتمام، ومن العنصر الانسانى خلوا تاما ، ولهذا السبب فانه يعتبر الحقائق الرياضية اكثر أهمية — من الناحية الروحية — من مشكلة الغرض من الوجود الانسانى ، وعلم الرياضة عند برونشفك مرتبة من الروحية، وكذلك يدعو الى أن تحرر الفلسفة نفسها فى نهاية الأمر من كل آثار الأسطورة المسيحية عن الانسان ووضعه فى مركز الكون . وهذه الفلسفة شبيهة بفلسفة « اسبنوزا » التى تهاجم صور التفسير الساذجة لعلم الانسان والنزعة الأنثروبومورفية . والحق أن مشكلة وضع الانسان فى مركز الكون هى قبل كل شىء مشكلة مسيحية ، وأن كل فلسفة تتخذ من علم الانسان اساسا لها هى فلسفة مسيحية . فالفلسفة اليونانية مثلا لم تضع مشكلةالانسان بكل ما فيها من عمق، اذ ميزت العقل فى الانسان دون أن تدرك النتائج الأساسية والاشكالية لهذا الاكتشاف .

غير أن الانسان مستغرق فى أعماق الوجود ، ووجوده يسبق ادراكه لنفسه ، ومعرفته الممكنة تتوقف على وجوده ، واستغراقه فى الوجود هو الضمة التى تجعل تعقله ممكنا ، لأن العلو ليس شيئا موضوعيا ، أو سلطة خارجية ، ولكنه شىء فى داخل الوجود ، وينبغى علينا أن نؤكد اولوية الانسان المتكامل .. الانسان الذى تمتد جذوره

---

(1) Cf. Spinoza et ses Contemporains, Les Etapes de la Pensée mathématique Le Progrés de la Conscience dans la Philosophie occidentale.

فى أعماق الوجود ـ على الوعى ، وعلى الذات فى مواجهة الوجود . وينبغى الا نخلط بين الانسان المتكامل الذى تنعكس طبيعته الحقيقية فى صميم وجوده ، وبين الانسان النفسى أو الاجتماعى الذى يعد جزءا من العالم الموضوعى ، وقد أعيد كشف العالم الطبيعى ، ورد له اعتباره فى عصر النهضة حينما نظر الانسان الى نفسه بوصفه جزءا من الطبيعة ، وقد فعل ذلك معتقدا انه سيحرر نفسه بهذه الوسيلة . ولكن حان الوقت الآن لكى نعيد كشف الانسان ونرد له اعتباره لا بوصفه شذرة من الطبيعة والعالم الموضوعى ، ولكن بوصفه كائنا له كيانه الخاص . كائنا موضوعا بين العالم فوق ـ الموضوعى ، وفوق ـ الطبيعى فى لب لباب وجوده ، فاذا تم ذلك لم تعد المشكلة الفلسفية هى التعارض بين الذات والموضوع ، بل بين الفلسفة والوجود .

وفى نظرية المعرفة نجد ان الذات توضع عادة فى مقابل الوجود بدلا من أن تكون هى والوجود شيئا واحدا . ولكن الانسان ـ على العكس من ذلك ـ جزء من الوجود ، وهو موضوع للعالم الطبيعى وعبد له الى الحد الذى يكون فيه وجوده موضوعيا ، ولكنه فى قرارة نفسه يظل هو نفسه . محققا لمصيره . وبهذا المعنى الانسانى لا بالمعنى الذاتى أو النفسى ـ يكون الانسان موضوعا للفلسفة . والروح لا يمكن أن تكون بالطبع موضوعا ، وانما هى ذات فحسب ، وهى على كل حال ـ الذات بمعنى أعمق من المعنى الذى تؤكده الغنوصية . والانسان يعجز عن فهم الحياة فهما موضوعيا ، لأن الموضوع لا يمكن ان يكون له معنى الا بما تضفيه عليه الذات الروحية ، وكل معنى لا يكشف الا داخل الأنا .. داخل الانسان ، ولا يقاس الا بمقياس الأنا . ولكن عندما يتخذ المعنى صورة موضوعية من الصور ، وعندما يصبح من المعطيات الخارجية التى يضعها العالم الطبيعى ، فان طابعه تسوده حينئذ النزعة الاجتماعية ، ويصبح رمزا الى عبودية الانسان الروحية . ويرى « هسرل » أن التقابل بين الوجود الانسانى والوجود يفضى الى توضيح الحقيقة ، ولكنه يؤكد أيضا أن المعرفة ليست احساسا ذاتيا ، أو انعكاسا روحيا ، وأن الوجود يكشف عن نفسه فى الوعى الانسانى . وهكذا فان الذات العارفة مرادفة للوجود ، وعلى هذا النحو تواجه الذات العالم .

أما « كيركجورد » فانه يتحدى معظم أصحاب النظريات بتأكيده لمبدأ « التعايش » coexistence بين الحقيقة والواقع فى داخل

« الذاتية » والأسباب جميعا تدعوه الى هذا ما دام الموضوع لا يمكن أن يملك معيارا للحقيقة ، فمعيارها الوحيد هو الذى يقدمه الوعى العقلى والأخلاقى للانا ، والمعيار الموضوعى للمعرفة لا يمكن الا أن يمارسه وعى جماعى ، وهذا لا يفعل أكثر من أن يزيد المشكلة تعقيدا ، والاتصال بالحقيقة يعين الأنا على الخروج من عزلتها الذاتية ٠ والمعرفة التى يصل اليها الانسان رمز للانتصار على الانطواء الذاتى ، فالمعرفة ليست انطواء على الذات ، ولكنها ذات طابع شخصى ، والانطواء الذاتى والأنانية ليسا من عمل الشخصية ، ولكن من عمل « الأنا » ، وينبغى أن نضع نصب أعيننا أن نضحى بالأنا لنحقق الشخصية ، والانتقال من « الأنا » الانسانية الى العالم الالهى الذى يحقق الانتصار النهائى على خطيئة الانطواء الذاتى يمكن أن يتحقق فى الاتصال الروحى مع الآخرين ، دون أن يتم ذلك بوسائلهم الخاصة ، فلا يمكن أن يزعم أحد انه كان ملهما لموقف اتخذه شخص آخر ازاء الله . واذا لم يكن ذلك حقا ، فمعنى ذلك أن الانسان يحتل مكانا أدنى فى مستوى الاحالة الموضوعية الاجتماعية ٠ والمعرفة هى أولا فعل ، وثانيا موضوع نظرى ، لأن مجرد فكرة اتخاذ المعرفة موضوعا هو فى حد ذاته فعل عقلى ، وعملية الاحالة الموضوعية التى يقوم بها الوعى فى مرحلته الوسطى — وهى عملية تجعل من الوعى نفسه شيئا ثانويا — هذه العملية عبارة عن تحقق ثانوى ، والواقع الأولى والمعرفة يسبقان او يتبعان هذه الموضوعية .

ولم تصنع نظرية المعرفة شيئا سوى أن احالت الانسان الى ذات فى مقابل الموضوع والعالم الموضوعى وعملية الاحالة الموضوعية ، والذات هى الانسان حينما ننظر اليه فى مستوى أعلى من الطبيعة مستقلا عن تضاده مع الوجود الموضوعى ، وهى أيضا الشخصية ٠٠ كائن حى قائم فى قلب الوجود ٠ والحقيقة كامنة فى الذات الموجودة لا فى تقابل الذات المجردة مع الموضوع ، وليس للعالم الموضوعى معيار للحقيقة أو مصدر لها . والفلسفات العقلية سواء اليونانية او المدرسية تميل الى أن تجعل الذات سلبية بأن تمنحها الادراك العقلى وحده ، ونتيجة لذلك تتعرض لخطر جعل التصورات والوجود شيئا واحدا ، ولأن ننظر الى النشاط الذهنى المتصل بحسبانه نشاطا انعكاسيا بحتا ، والذهن الانسانى يلتقى فى بداية الأمر بحالة من الفوضى ، ولكن ما دامت وظيفته هى اضفاء المعنى على العالم الذى يخلو من المعنى

وترشيحه والقاء الأضواء عليه ، فان مجرد الفعل الذي نقوم به لفهم العالم المظلم الذي لا معنى له يمكن أن يكون مصدرا للنور والدلالة .

والمعرفة هي أساسا فاعلة ، لأن الانسان فاعل ، وحينما تقوم نظرية الفلسفة على أساس التقابل بين العقل والوجود ، فان من الخطأ البين أن نتمسك بالنظرية التي تؤكد أن الفلسفة تعكس الوجود انعكاسا سلبيا فحسب ، وانها تحدد بواسطة الوجود كما يحددها العالم المخلوق . فالعقل من انتاج النشاط الانساني الحر ، وليس انعكاسا فحسب ، ولكنه تحول خلاق ينبغي علينا ان نفهمه بصورة أخرى تختلف عن فهم « كنت » و « فختـه » له . ومن الحق انهما يريان أن الذات والوعي المتعالي والأنا – الى حد ما – تشترك في العمل الخاص بخلق العالم ، ولكن الخلق في هذه الحالة يخلو من كل عنصر من عناصر الحرية الانسانية أو مما هو انساني . والانسان نفسه لا يأخذ بنصيبه من الخلق الذاتي للعالم بممارسته لنشاطه الادراكي . والواقع أن العالم المخلوق على هذا النحو ليس من عمل الذات وانما من عمل الله . وهذا الخلق ناقص على كل حال ، ويتطلب مساهمة الانسان الفعالة ، اذ ينبغي على حريته الخالقة أن تمتد الى كل المجالات ، وأن تعقب عملها الخلاق في مجال المعرفة نفسها . فالوعي الانساني لا يستطيع أن يفهم الكون فهما سلبيا ، لأن الفهم يستلزم التركيز والخيال والانتباه الشديد ، وهذه الشدة تنبثق من الباطن ، لا من الخارج ، وهذا يدل على أن التصور الذاتي للعالم هو أساسا تصور انساني وأن العالم حسب هذا التصور يتكيء على الانسان بوصفه كائنا له وجود عيني ، وأن المعرفة ترمز الى العلاقة بين كائن وآخر ، وهي فعل خلاق في أعمق أغوار الوجود . وادراك الأشياء يتباين وفقا لوجهات النظر المختلفة من الذات أو الموضوع ، من الروح أو من الطبيعة ، من الشخصية أو من المجتمع ، ووجهات النظر المختلفة تؤلف عوالم متباينة ، وليس هناك عالم موضوعي موضوعية مطلقة ، وانما هناك درجات متباينة من الموضوعية .

ويقع « المطلق » في المستوى الروحي اللاموضوعي الذي يسبق الاحالة الموضوعية ، اي في المستوى الوجودي الذي لم تجعله بعد [illegible]ات الاحالة الموضوعية جزءا من المجال الطبيعي ، والانسان [illegible] على المعرفة ليذود عن نفسه المظاهر التي تهدده في عالم متضاعف ، فهو يدرأ عن نفسه بعض هذه المظاهر ويقبل بعضها الآخر ، وهو في اغلب الأحيان يزدري أو يستنكر تلك المظاهر التي يعجز عن فهمها .

وفى عملية الادراك يعلو الانسان باستمرار على نفسه ، لأنه كذات عاجز تماما عن فهم الوجود كله بما فيه من امتلاء ، وتبقى معرفته نتيجة لها جزئية دائما .

وتطلع الانسان نحو الحياة الحافلة دافع خلاق ، ويظهر نشاط الانسان الابداعى فى عملية الاحالة الموضوعية نفسها ، فهو يظهر مثلا فى الكشوف الرائعة للعلم الرياضى ، ولكنه يظهر أكثر وضوحا فى العلو على المجال الموضوعى اى فى ميدان الكشف الميتافيزيقى للميادين الأساسية والوجودية .. بيد ان الوعى الانسانى - كما قال رنوفييه بحق - يفشل فى أن يكون مطلقا لأن من طبيعته أن يكون نسبيا ، فكيف اذن يضفى الانسان على المعرفة عنصرا من الحرية ؟ هذه هى المشكلة التى سنبحثها فيما بعد ، وهذه هى مشكلة المعرفة وهل هى ايجابية أو سلبية ، ولقد تحيرت النظرية الفلسفية طويلا بسبب هذا اللغز ، وهو - لماذا ينعكس الموضوع المادى غير العاقل فى الذات اللامادية العاقلة على هيئة معرفة ؟ والواقع أن هذا اللغز لن يحل مادامت المعرفة تعد مجرد انعكاس ذاتى للموضوع وينظر الى الوجود بوصفه حالة موضوعية قد استبعدت منها الذات .

الفصل الثانى

- الذات الوجودية وعمليات الاحالة الموضوعية .
- المعرفة والوجود .
- الكشف الذاتى للوجود .
- عمليات الاحالة الموضوعية ومشكلة اللامعقول .

حينما تحاول نظرية المعرفة فى أثناء مواجهتها الذات بالموضوع أن تجردهما معا من الوجود ، فانها تجعل فهم الوجود أمرا مستحيلا ، ووضع المعرفة فى مواجهة الوجود معناه استبعاد المعرفة عن الوجود ، وهكذا تواجه الذات العارفة الوجود بحسبانه موضوعا مفهوما وان يكن مجردا بحيث لا يمكن الاتصال به اتصالا روحيا . والحالة الموضوعية هى نفسها مصدر هذا التجريد الذى ينفى كل اتصال روحى — أى كل مشاركة (1) فى الموضوع كما يعبر عنه ليفى — برول — ورغم أنه من الممكن تأليف التصورات عنه ، وطبيعة الموضوع عامة عمومية خالصة ، وهى لا تنطوى على أى عنصر من عناصر الأصالة التى تعد من السمات المميزة للفرد ، وهذا هو حقا التمييز الأساسى بين الذات والموضوع .

وعمليات الاحالة الموضوعية تحيل الوجود الى تركيب فوقى superstructure للذات مهيىء للأغراض الفلسفية ، ولأن الذات ترى نفسها فى هذا التركيب الفوقى الموضوعى فانها تكتشف تعبيرا أكثر ملاءمة لتراكيبها الادراكى الخاص . والتجريد هو أحد تعريفات المعرفة ، غير أن هذا التجريد من عمل الذات ، ومن عمل الروح العارفة

Cf. Levy — Bruhl, Les Fonctions mentale sdans les Sociétés inférieurs.

نفسها ، فاذا جردت الذات الفلسفية من وجودها الباطني فانها تفقد كل اتصال بالوجود ، ويصبح وجودها معتمدا على عمليات الاحالة الموضوعية التي أطلقتها من عقالها ، وبذلك لا يؤثر الذهن أو يثبت أقدامه في الوجود وانما على العكس من ذلك يصير فعلا خارجيا أو منطقيا بحتا أكثر من أن يكون فعلا روحيا .

وهذه هي مأساة المعرفة كما تعرضها المثالية الالمانية والتي تصل الى أعلى تعبير لها في المدرسة الكنتية الحديثة . ومن الحق ان التعارض بين المعرفة والوجود جزء من تقليد فلسفي أشد ايغالا في القدم ، ولكن تفوق الفلاسفة الألمان الذين يؤلفون المدرسة الكنتية الحديثة يقوم في تناولهم النقدي لمشكلة الاحالة الموضوعية ، وفي اعترافهم بأهمية الذات العارفة . فقد عالجت الفلسفة السابقة « لكنت » وخاصة المدرسية ـ المشكلة علاجا واقعيا ، وجعلت التصورات التي تبلغها الذات هي الوجود نفسه ؛ وهذا هو أصل الميتافيزيقيات الطبيعية بمذهبها في الجوهر وفي الترتيب التصاعدي للوجود .. وعلى ضوء هذه الحقائق كان ظهور « كنت » والمثالية الالمانية يسجل مرحلة هامة في تاريخ الوعي الذاتي للانسان ، وكان خطوة نحو الانعتاق الانساني ، ونحو تحرير الانسان من قيود العالم الموضوعي واغلاله ، ومجرد الوعي النقدي لمشاركة الذات في عملية الاحالة الموضوعية يقتضي خلاص الذات من السيطرة الخارجية للعالم الموضوعي . والعمل الذي قام به «كنت» والمثاليون الألمان الذين ساروا على نهج «ديكارت» و «بركلي» في هذا المجال قد قطع سبيل العودة الى المذاهب الميتافيزيقية القديمة التي تؤمن بالجوهر وتجعل من الوجود والموضوع شيئا واحدا . فمنذ هذه اللحظة بدأ الفلاسفة يفهمون الوجود فهما ذاتيا ، واتخذت الذات بالتالي صفة انتولوجية ، وشيد الفلاسفة من أمثال « كنت » و «فخته» و « هيجل » مذاهب ميتافيزيقية على أساس ذاتي ، ولكنهم في هذه العملية فسروا الذات بصورة موضوعية غير وجودية ، ونتيجة لذلك لم يسهموا في حل مشكلة الشخصية الانسانية وكانوا أكثر ميلا الى تأييد الاتجاه الى النزعة الكلية ، وأكدوا أن الذات لا هي انسانية ولا هي شخصية ، وهكذا أقامت الفلسفة الهيجلية بعد « كنت » و « فخته » نفسها رغم ما فيها من عناصر لا معقولة(1) باعتبارها نوعا جديدا كنوع من النزعة العقلية الموضوعية . ونحن لا نستطيع في الواقع أن نتجاوز النتائج التراجيدية للمثالية الا بأن

(1) Cf. R. Kroner, Von. kant bis Hegel.

تستدم فى الاتجاه الذى يدعى اليوم بفلسفة الوجود Existenz-philosophie أو الفلسفة الوجودية بدلا من أن نحاول احياء أى مذهب من المذاهب الميتافيزيقية السابقة على « كنت » .

وقد وضع « كيركجورد » أسس الفلسفة الوجودية بتحديه للتصور الكلى الذى دعا اليه « هيجل » ، ذلك التصور الذى يختنق فيه الفرد . وليس تفكير « كيركجورد » جديدا فى أساسه ، لأنه غاية فى البساطة (١) ، والدافع اليه شعور من القلق نتج عن مأساة حياته الشخصية(٢) .. وقد أفضت به تجربته الفاجعة هذه الى تأكيد الطابع الوجودى للذات العارفة وهى الحقيقة الأولى عن استغراق الانسان فى سر الوجود . وأكثر الفلسفات تعبيرا عن الطابع الوجودى للانسان هى أكثرها حيوية ، فقد اتجه الفلاسفة فى أغلب الأحيان الى تجاهل حقيقة وجودهم الخاص باعتباره شيئا مستقلا عن قواهم الذهنية ، وحقيقة أن فلسفتهم أكثر قليلا من الترجمة الذاتية لوجودهم . ونستطيع اذن أن نستخلص من هذا كله ــ وان لم يكن ذلك بنفس العبارات التى استخدمها « كيركجورد » ــ أنه من وجهة النظر الوجودية يوضع الفيلسوف فى المستوى فوق الطبيعى ، أى فى أبعد أعماق الوجود غورا ، وذلك لأن الذات نفسها جزء من الوجود ، وهى على هذا الأساس تتصل بسره اتصالا روحيا . ونستطيع أن نعد من الفلاسفة الوجوديين « القديس أغسطين » و « بسكال » والى حد ما « شوبنهور » و « فويرباخ » و « نيتشه » و « دستيوفسكى » . بيد أن « كيركجورد » كان أكثر دعاة هذه الفلسفة دلالة ، وفى كتابى « فلسفة الحرية » الذى ألفته منذ عشرين عاما عرَّفت « الفلسفة الوجودية » ــ وان كنت لم أستخدم هذه العبارة ــ بأنها فلسفة تمثل شيئا قائما بذاته هو تحقق الوجود والوجود الذاتى فى مقابل الفلسفة التى تعالج شيئا خارجيا ، أو بمعنى آخر تعالج العالم الموضوعى .

وعلى أساس هذا التأكيد الذى يتصل اتصالا مابتصور «يسبرز» تمثل الفلسفة الوجودية تعقلا من نوع غير موضوعى . والعادة أن عملية التجريد تلغى سر الوجود .. الوجود العينى . وليس ثمة انحراف عن

---

(١) cf. S. Kierkegaard, Philosophische Brocken.

(٢) ينطبق هذا الكلام أيضا على « ليون شستوف » الذى تتألف فلسفته من انكار الفلسفة لنفسها .

جادة القصد أسوأ من أن نجعل الموضوع والواقع شيئا واحدا • وقد جرت العادة على النظر الى المعرفة والى الاحالة الموضوعية او التجريد على أنهما مترادفان • ولكن عكس ذلك صحيح ، فان المعرفة الفعالة تقتضى الألفة أو بعبارة أخرى الاقتراب الذاتى ، أو اتحاد الانسان بالوجود الذاتى ، ومن واجبنا اذن أن نرفض كل تصور طبيعى موضوعى عن الوجود وأن نؤثر عليه التصور الوجودى ، وحتى الفلسفة « الظاهرية » يمكن تفسيرها على أنها تجربة تتعالى على الحالة الموضوعية ، والاتصال الروحى بالناس والحيوان والنبات والجماد عبارة عن ظاهرة تتجاوز الاحالة الموضوعية وهو على هذا النحو يكشف عن امكان وجود وسائل جديدة للمعرفة .

ويعد « هيدجر » و « يسبرز » على رأس الممثلين المعاصرين للفلسفة الوجودية • ويميز « هيدجر » بين الوجود فى ذاته (الوجود الماهوى) وبين الوجود الموضوعى أو « هذا الوجود » Dasein وحالة الوجود فى ـ العالم ـ وهى الوجود الموضوعى (الآنية) تثير فى النفس القلق والخوف ، وهى فوق كل شيء حالة زمانية مقدر لها أن تكون « الانسان » Das Man أو « الناس » l'on وما فى الوجود اليومى من ابتذال يسلب الموت حدته التراجيدية ، ويخفى هذه الحقيقة وهو انه النتيجة المباشرة لحالتنا الفانية ، حالة الوجود الموضوعى • ويشتد الشعور بالمأساة حينما تسود حقيقة الوجود . فالوجود الانسانى حالة من الوجود العام الذى يعد الوجود الموضوعى جزءا منه • الوجود الماهوى هو ذاتى الحقيقية ، وطبيعتى الأساسية ، والأصالة التى نلمسها فى فلسفة « هيدجر » قائمة على أساس الأهمية التى يخلعها على حالة الوجود فى العالم باعتبارها ناحية من النواحى الضرورية ، وان تكن فى درجة منحطة من مظاهر الوجود. والوجود الانسانى وجود جوهرى ، والوجود الانسانى العينى اكثر أهمية للوجود من الماهية ، وهكذا يجب أن تهتم الفلسفة بالوجود الانسانى أكثر من اهتمامها بالماهيات . والوجود العينى عند «هيدجر» يستلزم القلق والخوف من العالم الساقط باعتباره جزءا مكونا لطبيعته الانثولوجية • وضمير الانسان الأخلاقى يتطلب منه أن يعانى هذا القلق فى عالم يكون فيه تحت رحمة الموضوعية ، والوجود الموضوعى حالة من حالات الخطيئة قوامها القلق الانسانى وشعور شديد الوطأة بتفاهة الانسان .

ومن العسير على ضوء فلسفة « هيدجر » أن نكتشف نشأة الضمير الانسانى ، ففلسفته معادية للافلاطونية وللنزعة الروحية . وتشاؤمها يجعل منها فلسفة خالصة للوجود — فى العالم أكثر من أن تكون فلسفة وجودية ، فعلم الوجود عنده هو العدم أو الوجود — العدم ، اذا أردنا أن نستخدم عبارته نفسها . وهو لا يحاول تفسير طبيعة الوجود فوق الزمانى ، ولكنه يشرع فى اقامة فلسفة وجودية ، والمشكلات الاساسية التى يهتم بها : كابتذال الحياة اليومية ، والسقوط والموت — تختلف عن المشكلات التى تعالجها الفلسفة عادة، فهذه المشكلات قد اكتسبت أهمية جديدة فى فلسفته لأنه يتناولها من وجهة النظر الانتولوجية لا من وجهة النظر النفسية .

ونحن نجد هذه المشكلات نفسها عند « يسبرز (١) » الذى اتفق معه أكثر من اتفاقى مع « هيدجر » ، فالمشكلة التى تشغل « يسبرز » أكثر من غيرها هى « الموقف الحدى situation-limite للانسان ، واتصال « الأنا » بالآخرين . وهو شديد الحرص على اثبات أن الأنا — باعتبارها حقيقة قائمة بذاتها — متميزة عن الوجود الكلى . والأنا لا يمكن أن تكون موضوعا ، لأن الموضوع لا يمكن أن يكون وجوديا (٢) . ويسبرز أكثر وضوحا فى هذا الصدد من «هيدجر» ، وهو يثبت أن « الأنا الوجودية » باعتبارها فى مقابل « الأنا التجريبية » يمكن أن تعاو على الوجود الزمانى لأن حقيقتها بمعزل عن الزمن ، وفكرة « العلو » ذات أهمية بالغة فى فلسفة « يسبرز » ، بل انها تسيطر على مذهبه الميتافيزيقى كله ، وهو ينظر الى الميتافيزيقا لا على أنها علم ، ولكن على أنها وظيفة للغة الغرض منها توضيح العلو الكامن فى الوعى الوجودى . ولهذا السبب يرى أن من أهم أسس الميتافيزيقا استطاعتها حل شفرة العلامات ، ولذلك يمنح الأرقام والرموز أهمية كبيرة .

وليس من شك أن كلا من « هيدجر » و « يسبرز » قد أسهم مساهمة أصيلة فى الفكر الوجودى ، على الرغم من أن فلسفة كل منهما فاجعة متطرفة متشائمة لأنها تقود الانسان الى حافة الهاوية ، واتجاه الفلسفة الحديثة كما يبدو عند « ديكارت » وأتباعه ، و « كنت » وأتباعه ، وعند

---

(١) Karl Jaspers, Ist Ed Philosophische Weltorienterung; 2nd Ed. Existenzerhllung.

(٢) نجد افكارا مشابهة لهذه الأفكار فى « يوميات ميتافيزيقية » لجابرييل مارسل وخاصة التذييل الذى يعالج فيه مشكلة الاحالة الموضوعية .

الوضعيين الذين تسودهم النزعة العلميه ، اتجـــاه ذو نزعة طبيعية فى أساسه ، بيد أن الفلسفة الوجـودية تتقدم عليهم مرحلة أخرى ، وهذه ميزة عظيمة لها لا يمكن نكرانها ، غير ان أصالتها قد تحـددت حتى الآن بارتباطها مع « كيركجورد » الذى يؤكد أن الوجود هو الشـــغل الأول للذات الوجودية · وعلينا أن نتساءل اذن ما هو الوجود ؟ انه فى المحـل الأول شىء مختلف تمام الاختلاف عن العقل ، وهو كما أثبت « برجسون » يقع فى الزمان لا فى المكان · وهو ديناميكى فى مقابل المنطق الثابت غير المتحرك ، ولكى تؤلف الذات العاقلة فكرة عن نفسها فانها مرغمة على انكار طبيعتها الوجودية ، وعلى مواجهة التضاد القائم بين المكر المجرد والوجود · والوجود يستبعد فكرة التوسط ، فأن يوجد الانسان معناه أن يكون حقيقة واقعة ، والخاص أعمق تأصلا فى الوجود من العام ، وعالم الصور الأبدية ليس صورة للوجود كما يحاول التقليد الأفلاطونى أن يحملنا على الاعتقاد ، فان هذه الصورة تنعكس انعكاسا أكثر صدقا فى الحنين الانسانى واليأس والحيرة والتبرم ، وهكذا فان التناقض أشد خصوبة من الهوية · والفكر الموضـــوعى لا يخفى أى سر ، ولكن الفكر الذاتى يخفى أسرارا كثيرة · والوجود مرادف للصيرورة ، وربما كان هناك مذهب منطقى وراء الوجود . ولكن لا يمكن تصور مذهب للوجود ، فنحن نعالج الأشياء علاجا موضوعيا ، أما اهتمامنا بالذات فلابد أن يكون من وجهة نظر ذاتية ، وهذا هو جوهر تفكير « كيركجورد » الذى يمكن اجماله بأنه توحد الذات العـارفة والذات الوجودية ، والغرض الأول للفكر الذاتى هو أن يحقق طبيعته الوجودية ، والطابع المســيحى الأســاسى لفكرة « كيركجورد » عن التناقض الظاهرى poradox يمثل تباينا واضحا عن النزعة الباطنية immanentisme فان « كيركجورد » يعتقد أن حياة الانسان الداخلية لايوجد فيها من الباطنية شىء ، وهو يفسر الظاهرة على أن معناها الكشف الذاتى ، أى العلو · وفى هذا الصدد نستطيع أن نتذكر التمييز الذى أقامه ن · لوسكى Losky بين ماهو باطنى فى الوعى وبين ماهو باطنى للذات الواعية ·

وعلى الرغم من وجود صلة ما بين فلسفة (كير كجورد) وفلسفة كل من « هيدجر » و « يسبرز » فهناك اختلاف أساسى بينهما ، فالفلسفة عند « كيركجورد » هى الوجود نفسه لا تفسير الوجود ، بينما يرى «هيدجر » و «يسبرز» اللذان يهتمان بتقليد فلسفى خاص أن الفلسفة مرادفة للتفسير وهدفهما ــ وخاصة « هيدجر » هــو اقامة مقولات فلسفية على أســـــاس وجودى ، وانشاء مقولات عن القلق الانسانى أو الخوف من الموت · ومحاولة

« هيدجر » للانفصال عن مجـال المعرفة الموضوعية العقلية تؤلف محاولة خليقة بالالتفات وذات أصالة ، ولكن الواقع أن التصـــورات والمقولات ما هى الا وسائل لفهم الوجود الموضوعى Dascien أو الوجود ـ فى ـ العالم ـ أى الوجود الموضوعى أو المجرد تجريدا تاما • والتصور لا يتصل الا بالموضوع وحده ، وعلى ذلك فان الوجود الداخلى ، أو الوجود الأولى لا يمكن أن يفهم الا عن طريق الخيال والرمز والأســـطورة كما يوافق على ذلك « يسبرز » فى وضوح أشد من « هيدجر » ، وانشاء التصـــورات عملية موضوعية تؤدى حتما الى توقف للمقولات العقلية نفسها ، ونتيجة لذلك يهتم هذا الضرب من الفلسفة أولا وقبل كل شىء بالماهيات والجواهر والموضوعات ، وهى تجعل من الله نفســه موضوعا ، بينما الفلسفة التى تهتم أولا وقبل كل شىء بالشخصية تستطيع أن تفهم الوجود ، ولهـــذا يتحدث « هيدجر » حديث المتمكن حينما يتحدث عن الوجود الموضوعى لا عن الوجود نفسه ، والواقع أنه على رغم اعتقاده بأن الحالة الموضوعية حالة منحطة الا أن بحثه الفلسفى يسهم فى الاحتفاظ بالعالم فى حالته المنحطة •

والفلسفة الوجودية لا يمـــكن أن تقوم على اســـاس التصـــورات والمقولات المألوفة حتى ولو كانت أنثولوجية ، فالتصـــور يتعلق دائمـــا بشىء ما ، ولكنه لن يكون أبدا هذا الشىء ، فهو ليس وجوديا على الاطلاق ، وقد أنشأ « فلاديمير سولوفيف » تمييزا شائقا بين الوجود المجرد باعتباره المحمول predicate وبين الوجود العينى بوصفه الموضوع subject ، ففعل الكينونة مثل على الوجود المجرد ، بينما هذه العبارة ، « أنا موجود » مثل على الوجود العينى ، ولسوء الحظ كان التجاهل من نصيب هذا التمييز دائمـــا (١) وتتحـــول المحمولات الى جواهر • وقد يبـــدو أن « فلاديمير سولوفيف » فى نقده للمثالية الألمانية قد نفذ الى أعماق الوجود العينى ، ومع ذلك فان فلسفته لا يمكن أن تسمى فلسفة وجودية ، لأنها ما زالت خاضعة للميتافيزيقا العقلية ، ونحن نلمس تعبيره الأصيل فى الشعر لا فى الفلسفة ، والحكم على الوجود ليس حكما على ما يوجد ، فهو أيضـــا حكم تقوم به الذات الموجودة ، والوجود لا يستمد من الحكم ، وانمـــا يســـبق الحكم ، والوجود المنطقى ينشأ عن الذهن أى عن عملية موضوعية •

---

(١) Vl. Soloviev, La Critique des principes abstraits et Les principes philosophiques de la connaissance intégrale.

ولهـــذا السبب تخفق « ظاهـرية هسرل » فى أن تكون فلسفة وجـودية ــ على الرغم من أنهـا أثرت تأثيرا كبيرا على « هيدجر » و « هسرل » يؤكد أن الموضوعات الحقيقية قائمـة فى الماهيات ولا تحتاج الى أية وساطة ، وهو يقول أيضا ان الوضوح ليس حالة من حالات الوعى ، ولكنه حضور الموضوع نفسه ، فالظاهرة اذن فلسفة للوعى الخالص ، وهى رؤية للماهيات (١) ، ولكن رؤية الماهيات تقصر عن كشف لغز الوجـــود والى مثل هذا ذهبت فلسفة « ن · هارتمان » بفكرتهـا عمـــا هو « عبر ــ الموضوعى » trans-objective (٢) وتصورها الأنتولوجى عن العلاقة بين الذات والموضوع · و « دلفاى » أكثر اقترابا من الفلسفة الوجودية حينما يرفض رد الحياة الروحية الى عناصرها أو تحليلها ، وانما يقوم بدراستها باعتبارها كلا ، وفى جوانبها التركيبية synthetical aspecto (٣) ·

وأنتقل الآن الى تصورى الخاص عن الذات فى علاقاتها بالموضوع · ، فان القول بالتقابل بين الذات والموضوع ، بين العقل والوجود يجعـــل الفلسفة تصل فى النهاية الى سد لا سبيل الى تجاوزه ، لان هذا التقـابل يلغى الذات حتما من الوجود ، ويجعل الوجود موضوعيا ، وهكذا تصبح الذات بضربة واحدة لا وجودية ، ويصبح الوجود والموضوع شيئا واحدا رغم هذه الحقيقة ألا وهى أن الموضوع لا وجودى ، وأنه احالة مادية للذات نفسها · وعلى ضوء هذا الرأى كيف يتأتى ألا تصبح مشكلة المعرفة ذات طابع فاجع لا حل له ؟ ان ملكة الانسان الادراكية مقصـــورة دائمـا على السطح الخارجى للوجود · فهل لا يوجد حل آخر غير هذه الواقعية البدائية الساذجة ؟ غير أن هذه النظرية قلما تجد ما يقال عنها ، فليس لها جهاز نقدى ، اذ تقبل العالم المادى الموضوعى على أنه الواقع الأولى ، ومن الخطأ أن نذهب فى تحقيق غرضنا الى أبعد مما ذهب اليه « كنت » فى كتابه « نقد العقل الخالص » ، وعلى العكس من ذلك ينبغى علينا أن نساعد على تقـدم الفلسفة بأن نتفق على أن المعرفة هى ادراك الوجود عن طـريق الوجود ، وأن الذات العـارفة ليست مضادة للوجود كانه موضـــوع ، وانما الذات العارفة حقيقة قائمة بذاتها ، وبعبارة أخرى « **الذات وجودية** » · والطبيعة الوجودية للذات هى احدى الوسائل الروحية لفهم سر الوجود ، وهو فهم

---

(١) Cf. Levinas. La théorie de l'intuition dans la phénoménologie de Husserl.

(٢) N. Hartmann, Metaphysik der Erkenntnis.

(٣) Dilthey. Einleitung in die Geistenirssenschaften, etc. geistige welt, et. Einleitung in die Philosophie des Lebens.

لا يقوم على التقابل الظاهر بين الفلسفة والوجود ولكن على اتحادهما الداخلي الوثيق ، وبذلك تكون المعرفة الصادقة تنويرا للوجود Aufklarung اذا شئنا أن نستعيد المعنى الحقيقي لكلمة زيفها القرن الثامن عشر ، وحط من قدرها ٠

وبتأكيدنا للطبيعة الصـــادقة الذهن نبلغ المستوى العيني للوجود باعتباره مضادا للوجود المجرد ٠ وقد شعر « هيجل » بضرورة العبور من الوجود المجرد ــ وهو يوشك أن يكون مرادفا للعدم ــ الى الوجود العيني ، أو الى الوجود الذى ينظر اليه على أنه اتحاد بين الوجود والعدم ٠ وقد عرف هذه الحالة من الاتحاد فعلا بأنها الوجود الموضوعي Dasein (١) ، وأن يكن هيجل يفهم هــذه الكلمــة بمعنى يختلف عن المعنى الذى يفهمـه به « هيدجر » ٠ ولكنه فى الواقع قد تعرض لمشكلة المعرفة العينية وحاول أيضا أن يفند التضاد التقليدى القائم بين الذات والموضوع ، مؤكدا فى الوقت نفسه الطبيعة الأنتولوجية للمنطق ٠والمشكلة الأساسية التى تواجه الفلسفة هى طبيعة العلاقة بين الذات والموضوع حينما تكون الذات خارجية بالنسبة للوجود المدرك ادراكا موضوعيا ٠ وقد بذلت محاولات لحل هذه المشــكلة بتأكيد توحد المعرفة والوجود ، والذات والموضــوع ، وهــذا التوحد يرد للمعرفة هيبتها الأنتولوجية ، ولكنه يفشل فى حل المشكلة٠ومن الضرورى ايجاد تحديد أدق لوظيفة المعرفة داخل الوجود ، كما ينبغى بيان أن الادراك فعل خالق فى صميم الوجود ، وأنه ومضـــة من النور التلقائى ، ومعبر من الظلام الى النور غير أن الادراك ليس مجرد انارة للوجود ، انه النور نفسه فى أعمق أعماق الوجود ٠ والواقع ان المعرفة باطنة فى الوجود ، أكثر من أن يكون الوجود باطنا فى المعرفة ، ولكننا حتى لو قبلنا التوحد بين المعرفة والوجود ، فاننا فشلنا فى تقرير اللامعقولية الأســاسية للوجود ، أى أننا نكون قد فرضنا فكرة الوجود المعقول فرضا ٠

فهناك فى أعماق الوجود منطقة لا معقولة مظلمة لا يمكن أن نجعلها هى والمعرفة شيئا واحدا ، ولكن من واجب المعرفة أن تنيرها ٠ والمعرفة تحوم على حافة الهوة المظلمة للوجود ، ولكنها هى نفسها يجب أن تبقى واضحة بينة ٠ وكما ذكرنا آنفا فان المعرفة باطنة فى الوجود ، ولكن ما يحدث حقا فى داخل الوجود هو نوع من العلو ، وهو فى هذه العملية نفاذ الى الأعماق الشاسعة الموجودة وراء أى لون من ألوان الوجود٠وليست وظيفة المعرفة أن

(١) Hegel, Enzyklopaedie der philosophischen Wissenschaften. Ier Teil, Wissenchaft der Logik, Die Lehre vom Sein.

تعكس ، بل أن تبدع • وتحت اى طبقة من الوجود ثمة طبقة أعمق ،والتعالى هو الوسيلة الوحيدة للوصول الى الطبقة الأعمق من طبقات الوجود•والفكرة الاستاتيكية عن المتعالى يجب أن تحل محلها فكرة ديناميكية عن العلو • ويعتقد « زمل » (١) بحق أن القدرة على العلو صفة أساسية من صفات الحياة •

ومن الممكن تفسير الاحالة التى تقوم بها الذات عند « هسرل » على أنها علو للذات ، ولكن اذا فهمت هذه المعرفة على أنها وظيفة داخلة فى الوجود ، وتمارس بواسطته ، وأنها علو للوجود يعمل فى قلب الوجود ، فان الذات العارفة ينبغى أن تكون بالضرورة وجودية ، ومعرفتها تتوغل فى سر الوجود وفى أعماق أكثر من أن تكون انعكاسا للموجود الموضوعى ، ومشاركة الذات العارفة فى الوجود سابق لمعرفتها ، وتجربتى الوجودية سابقة لمعرفتى ، ولهذا السبب فان المعرفة « تذكر » réminiscence •

والفلسفة تبدأ بالشك فى حقيقة العالم المحسوس •• عالم الموضوعات والأشياء ، فهى تبدأ حتما بنقد « الواقعية » ، ولكن نقد المعرفة لا يمكن أن يظل دائما عند المرحلة المثالية لا يبرحها ، بل يجب أن يندفع بأبحاثه بعيدا فى مجال الوجود فوق ــ الموضوعى ، وأن يتجاوز التقابل القائم بين الذات والموضوع وراء عالم الادراك الحسى • ولكن هذا المجال الأولى للحياة هو نتاج المعرفة ، وتصور محدد للفكر ، كما أنه ليس مجال الحقائق الموضوعية ، ونحن نستخدم كلمة « وجود » ونؤثرها على كلمة « حياة » ، لأن الحياة مقولة بيولوجية ، كما نستطيع أن نلمح ذلك عند نيتشه وبرجسون ، بينما الوجود مقولة انتولوجية فان يوجد الانسان معناه أن يظل مستقرا داخل نفسه ، وفى عالمه الحقيقى الخاص أكثر من أن يكون تحت رحمة العالم الاجتماعى والبيولوجى • والفلسفة الوجودية فى مقابل أية فلسفة للحياة ــ كفلسفة «كلاجز» Clages مثلا ــ فلسفة أنتولوجية أكثر منها بيولوجية ، وهى تتصل بالفلسفة الروحية (١) عند طرفيها على السواء • فهى فلسفة المصير فى علاقته بالكلية العينية ، وهى لا تكتفى أبدا بالنظر فى العمليات العامة والموضوعية للعالم الخارجى وحدها، لأن الفلسفة يجب أن تهتم قبل كل شىء بالذات المفكرة ووجودها ، ولكن يحاول فى غير لباقة أن يحيل ما هو ذاتى الى ما هو موضوعى ، ويتبع ذلك

---

(١) cf. Lebensanchauung.

cf. N. Berdiaeff, Esprit et liberté.

جعل الوجود الانسانى نفسه موضوعيا . وهكذا نواجه هذه المشكلة الأساسية وهى : ما هى الاحالة الموضوعية ؟ وكيف يمكن أن نبلغ الوجود أو ما يوجد فى عالم موضوعى ؟ ومصير الانسان المقبل !! وامكان قيام الفلسفة يتوقف على حل هذه المشكلة .

ومن المهم أن ندرك قبل كل شىء أن العالم الموضوعى عالم منحط مقيد ، هو عالم الظاهرة أكثر من أن يكون عالم الوجود . وعمليات الاحالة الموضوعية تجرد الوجود وتقطع عليه طريقه . وهى تحل المجتمع مكان الاجتماع الروحى ، والمبادىء العامة محل الاتصال الروحى ، وامبراطورية القيصر بدلا من مملكة الله . وليست هناك مشاركة فى عمليات الاحالة الموضوعية ، اذ أن نتيجة الاحالة الموضوعية فى المعرفة أو غيرها — كما سنرى فيما بعد بصورة أدق لاتعزل الانسان فحسب ، ولكنها تجعل نشاطه مقصورا على عالم معزول فى أساسه . وعمليات الاحالة الموضوعية ظاهرة روحية ، ولكن ليست هناك أية حرية روحية فى العالم الموضوعى الناشىء عنها . والواقع جزء من الوجود الداخلى ، ومن الاتصال الروحى الداخلى ، ولكنه ينحط فى عملية الاحالة الموضوعية وفى الخضوع للضرورات الاجتماعية . وهكذا فاننا على الرغم من بحثنا للاحالة الموضوعية فى علاقاتها بالمعرفة فاننا نستطيع أن نؤكد أنه لا وجود لسر روحى فى العالم الموضوعى .

هل يمكن اذن أن نؤكد أن المعرفة الموضوعية هى فى حد ذاتها ناقصة آثمة ؟ هل يمكن أن ننظر اليها كما نظر اليها «شستوف» Shestov على أنها سبب الوضاعة فى العالم ؟ اننا ان نفعل ذلك ننشر خطأ خطيرا ، فان حالة الخطيئة والنقص والسقوط ينبغى أن ننعت بها الوجود لا المعرفة. فالمعرفة فى حالتها المنحطة لا يمكن أن تفهم الا وجودا منحطا ، ولكن المعرفة الموضوعية ما برحت تكشف عن شىء من الحقيقة الصادقة رغم انفصالها عن الوجود الوثيق والعالم الروحى . وعمليات الاحالة الموضوعية تفترض عالما ساقطا ، عالما من التجريد والجبرية ، ولكن على الرغم من ذلك يظل فى الامكان أن نظفر بنصيب من المعرفة عن العالم الساقط .

وهناك درجات من المعرفة الموضوعية ، فالعلم الطبيعى يتمتع بأعلى درجات الموضوعية ، فهو منفصل عن وجود الانسان الوثيق ، وهو شكل من أشكال المعرفة الملائمة تماما للعلوم الطبيعية الرياضية ، وتصل درجتها من الموضوعية الى الحد الذى يبدو فيه موضوع المعرفة وكأنه منفصل كل الانفصال عن وجود الذات الداخلى ، والرياضيات بلا شك

ظاهرة من ظواهر الروح المبدعة ، وهى مثل سائر فروع المعرفة الاخرى تستلزم عملية روحية كتلك التى نراها فى فكرة « برونشفك » الأساسية · وهذا شكل قيم جدا من أشكال المعرفة التى ينعكس فيها « اللوغوس » (كلمة الله) Logos ، وعلى الرغم من هذا كله فان عمليات الاحالة الموضوعية تعوق الروح وتجعل سر الوجود الداخلى أمرا لا يمكن بلوغه · وبهذا المعنى ليس العلم أنتولوجيا ـ كما يزعم « مايرسـون » . وكذلك فان معرفة العالم الاجتماعى موضوعية أيضـا بدرجة أخرى ، ولها ميزة وهى أنها تنير عملية الاحالة الموضوعية بأسرها التى هى فى أصلها عملية اجتماعية ، لأن المعرفة الموضوعية ـ كما سنرى فيما بعد ـ مستمدة من المجال الاجتماعى ، بينما تصدر المعرفة الوجودية عن مجال الاتصـــال الروحى ·

وكل درجـة من درجـات المعرفة الموضوعية مجـــردة من الذات الوجودية أو الانســـانية · ولاجدال فى أن الذات الوجودية جـــزء من الوجود ··· الوجود اللاموضوعى ، ذلك أن الذات نفسها تحدد العمليات الموضوعية ذاتها بفضل حياتها فى هذا العالم الساقط · وينبغى ألا نعتبر الذات الوجودية والذات البيولوجية أو الاجتماعية أو النفسية شيئا واحدا لأن هذه الذوات جميعا من نتاج التفكير الموضـــوعى ، والنزعة الطبيعية ضرب من هذا النتاج ، وهى تتضمن درجة من الحقيقة الموضوعية ، ولكن دعواها للصحة الكلية زائفة لأنها تمثل الجانب المادى من الوجود المنوع فحسب · وهناك اتجاهات طبيعية حتى فى اللاهوت ، وهذه الاتجاهات تلعب دورا هاما جـدا حينما تفسر الله تفسـيرا موضوعيا ، وحينما تزعم المعرفة بالله عن طـريق التمثيـــل مع الموضوعات والظواهر الطبيعية · ومهما يكن من أمر ، فان هذه الحقيقة وهى أن الوجود الانسانى يمكن أن يكون على اتصال روحى بالوجود الالهى ـ هذه الحقيقة دليل على أن الله ليس موضوعا طبيعيا أو جزءا من العالم الموضوعى ، ولو كان الأمر على خلاف ذلك لما أمكن أن أكون جزءا من الله · والمعرفة الفلسفية الصـادقة تحتوى دائما على عناصر موضوعية ، ولكن هدفها الحقيقى هو أن تعلو على الموضـــوعية حتى تتمكن من البحث عن غاية الوجود ، ومن اختصاصات الروح أن تكتشف هدف المادة نفسها ·

وينبغى أن نعترف اذن بأن الميتافيزيقا الطبيعية ليست فى الواقـع الا نوعا من المعرفة الفلسفية الموضوعية مادامت توجه عنايتها أصـــلا للجواهر ، وفى محاولتها لأن تكون فوق ـ الانســـان نراها تحيل الله

والروح والنفس والادراك الى أشياء موضوعية · واليوم أخـذت هـذه الفلسفة الطبيعية فى الانحـلال لأنهـا عجزت عن العثور على أية دلالة للوجود الانسـانى فى العالم الطبيعى والموضوعى · وقد قبـل كبـار الفلاسفة هـذه الحقيقة ، حتى حينما عبروا عن أنفسهم فى اصطلاحات الميتافيزيقا الطبيعية ، « فسقراط » و « القديس أغسطين » و « ديكارت » و « اسبنوزا » اهتموا جميعا قبل كل شيء « بالأنا » القريبـة منهم ، وأوشك « كنت » أن يحقق الفلسفة الوجودية نتيجة للتمييز الذى وضعه بين مجالى الطبيعة والحرية ، وعن طريق هذا التمييز بين مجـالى الوجود الداخلى والخارجى ساعد مساعدة كبيرة على تفنيـد الواقعـة الساذجة ، والعقلية الموضوعية ، ولكنه أخفق فى أن يكون مؤسسا للفلسفة الوجودية الجديدة لأن نزعته الظاهرية لم تكن متينة البنيان ·

وفى محاولته للوصول الى الحرية ، حاول « أفلوطين » أن يعلو فعلا على العالم الموضوعى (١) · وتجاوز النزعة الطبيعية الموضوعية يوازى فى الفلسفة تجاوز الميتافيزيقا التصورية (٢) conceptualist ، لأن التصور ينشأ عن موضوع ، والعملية الموضوعية تتألف من انشاء التصور · وهذا « العدم » يعكس الفكرة المخطئة التى تقول ان التفكير يمكن أن يتميز عن العاطفة · والمعرفة الموضوعية ــ وهى أبعد من أن تفهم الوجود ــ ليست أكثر من احالة عقلية للموجود اللامعقول · وكمـا أدرك « يسبرز » ذلك جيدا ، فان سر الوجود لا يمكن تفسيره الا عن طريق الاستعارات والرموز · وما من تصور يستطيع أن يكشف عن غاية الوجود وقيمه الكامنة فيه ، والكشف عن سر الوجود لا يتأتى الا عندما تصبح الذات والمحمول شيئا واحدا ، فأنا موجـود ، ولكن هنـاك « أنا » أخرى موجودة والله موجود والعالم الالهى موجود ، والمجال الوجودى هو أيضـا المجال الشخصى ، ولا وجود بشيء عام او مجـرد فيه ، وكمـا أن الله يظهر فى الذات أكثر مما يظهر فى الموضوع ، فكذلك الشخصية تظهر فى الذات الوجودية ، وكلا العنصرين الالهى والانسانى غائب عن العالم الموضوعى ، واحالة الله الى موضوع معناه ألا يكون الهيا أو انسانيا ، وما برح مجال المدنية هو مجال الوجود على الرغم من أن الذات الوجودية الخالقة ما زالت مبعدة الى الوراء ، وهكذا فان المدنية ليست هى الحقيقة النهائية لأنها صائرة الى الموت والى يوم الفصل الأخـير · وحتى الادراك الفنى للموضوع يتطلب

cf. Brehier, La philosophie de Plotin.

(٢) يدرك « فندلباند » و « ريكرت » هذا تمام الادراك ولكنهما أخطأ التفكير حينما ظنا أن النزعة المعيارية normativisme يمكن ان تكون مخرجا لهما ·

عملية موضوعية لأنه يفشل فى تحقيق الاتحاد الذى يعلو فيه على الموضوع .

وتمثل الحضارة درجة من الاحالة الموضوعية مختلفة عن الطبيعة وعن المجتمع على السواء ، ولكنها خاضعة خضوعا شديدا للأشكال الاجتماعية الموضوعية ، وفى عملية انشاء الحضارة ينحط نشاط الانسان الخلاق ويخضع للقانون . وكل درجة من درجات الاحالة الموضوعية تقتضى حكم القانون فى مقابل اللطف الالهى ، وهذا هو المبرر الدينى لها . بيد أن الدين واللاهوت عمليتان موضوعيتان حينما يكونان من الظواهر الاجتماعية . وغرض الحياة الدينية هو أن تمكن الناس من تخطى حدود العالم الموضوعى وحكم القانون والضرورة الاجتماعية والطبيعية ، ولكن الدين التاريخى لا يمكن أن يهرب من روابطه الاجتماعية والموضوعية . ونتيجة لذلك يساعد الدين على انشاء المجتمع لا على الاتصال الروحى ، ويصبح عبدا للدولة ، ويمكن أن يفسر حينئذ من وجهة النظر الاجتماعية . ولهذا السبب فان هــذا الدين ليس هو الكشف النهائى أو التعبير عن اتصال الانسان الروحى بالعالم الالهى (٢) . ومبــدأ النبوة فى الدين يستتبع الانفصال عن العالم الموضوعى ، والكنيسة اجتماعية موضوعية من ناحية ، واتصال روحى ووجود حقيقى من ناحية أخرى ، وهذه هى كل الصعوبة فى المشكلة ، اذ تهدد بذلك الحياة الانسانية والمعرفة كلها ، فالمعرفة عبارة عن احالة موضوعية ، وهى أيضــا شــعور بالعمليات الموضوعية ، ولذلك فهى وسيلة للعلو على العالم الموضوعى ، والوصول الى العالم الروحى . والثنائية هى الحقيقة الأساسية التى تكمن وراء الفلسفة ، ولكنها ليست الحقيقة الأنتولوجية الأخيرة .

وتعد المعرفة والاحالة العقلية فى أغلب الأحيان شيئا واحدا . ومن الحق أن الاحالة العقلية تلعب دورا هاما فى المعرفة ، ولكنها لا تستلزم الاحالة الموضوعية والتجريد فحسب ، ولكنها تقتضى تطور المبادىء العامة على حساب الاتصال الروحى والمشاركة . والمعرفة العقلية ــ كما ذكرنا من قبل فى أكثر من موضــع ــ عاجزة عن ادراك النواحى الفردية فى الوجود ، واذا كانت الاحالة الموضوعية مرادفة للتقسيم ــ كما رأينا من قبل ــ فان هذه الحقيقة مؤكدة فى التصور العام .

والمعرفة تضم مشكلة اللامعقول ، وهى المشكلة التى لا مفر لنا من مواجهتها . وقد كانت الفلســفة الألمانية أول من عالج هــذا الموضوع

Cf. N. Berdiaeff. The Meaning of Creation.

(٢) نرصل « كارل بارت » الى ملاحظات قيمة فى هذا الشأن .

معالجة جدية ، وأول من حاول تفسير اللامعقولية تفسيرا عقليا . وكان لابد من أن يضيء نور العقل سر اللامعقول ، ولكن هذا لا يقتضي بالضرورة أن يكون العقل معقولا تماما لأنه لا ينتسب الى ال ratio فحسب ، ولكنه ينتمي أيضا الى « اللوغوس » Logos ، وعندما نعترف بحدود العقل في مواجهته للوجود اللامعقول ، وحينما نعترف بطبيعته المتناقضة المباينة للمألوف ، فليس معنى ذلك أننا نكتشف ما يتصف به العقل من قصور ، وانما نكتشف قوة العقل والمعرفة . غير أن الاقتصار على الاحالة العقلية وحدها ضعف ما دامت تثبت أن العقل عاجز عن العلو على حدوده الخاصة ، وما دامت قوة العقل تقوم في قدرته على العلو على نفسه ، فان أعلى مراتب هذه القوة تكون هي « المعرفة النورانية » (١) opaphatic والمعرفة تنطوي على جانب باطني وجانب متعال ، بيد أن فعل العلو باطن في المعرفة ، لأنه فعل من أفعال المعرفة .

والاحالة الموضوعية معناها الاحالة العقلية بمعنى قبول التصورات والجواهر والأفكار الكلية ، وما شاكل ذلك بوصفها حقائق ، والفكر العقلي والموضوعي يجرد من المجالات اللامعقولة والفردية ومن الوجود ومن الموجود . ولابد لنا قبل كل شيء أن نميز نوعين من المعرفة : **أولا** : المعرفة العقلية الموضوعية التي لا تتجاوز حدود العقل ولا تدرك الا ما هو عام . **ثانيا** : المعرفة الباطنة في الوجود التي يستطيع العقل بها أن يدرك اللامعقول والفردي بعد ذلك أن يعلو على العام . وهذه المعرفة مرادفة للاتصال الروحي والمشاركة ، ونجد كلا هذين النوعين من المعرفة في تاريخ الفكر الانساني . وهكذا يمكن أن ننظر الى المعرفة من زاويتين مختلفتين من وجهة نظر المجتمع ، والاتصال بين الأفراد بالوسائل الموضوعية العامة ، أو من زاوية الاتصال الروحي الوجودي ، والنفاذ الى أعماق الفرد .

وهذا هو جوهر تفكيري . فالمعرفة الموضوعية تظل اجتماعية دائما لأنها تخفق في فهم الذات الوجودية ، وطبيعتها الأساسية التي يعترف الجميع بصحتها اجتماعية وتتوقف على درجة اجتماعيتها ، وما زلنا في حاجة الى « علم اجتماع » للمعرفة (١) . على أن يقوم بتفسير المعرفة تفسيرا

---

(١) Nicolas de Cuse : De la Science du nonsavoir.

cf. Max Scheller, Die Wissenschaft und die Gesellschaft, Probleme einer Soziologie des Wissens,

وهذا الكتاب قيم من حيث أنه عرض للمشكلة ، ولكنه ليس شافيا تماما . وتعد أعمال « زمل » هامة أيضا في هذا الميدان

يختلف عن تفسير النزعة الوضعية لانه نظام ميتافيزيقى يجعل من مشكلة المجتمع والاتصال الروحى والاتصال الاجتماعى المشكلة النهائية للوجود . والوجود يمكن أن يكون اتصالا روحيا ومشاركة ، ومن الممكن أن يكون اتصالا اجتماعيا . أما الفكرة التى ترعم أن كل مجالات الوجود يجب أن تتعرض للاحالة العقلية والاجتماعية فهى فكرة مخطئة ومعادية تماما للمسيحية . وهى نتيجة للنزعة العلمية لا للعلم نفسه ، ولمحاولة احالة درجات المعرفة وأشكالها التى قد تحددت صحتها تحديدا ضيقا .

والمعرفة القائمة على المبادىء العلمية وعلى الأشكال الاجتماعية المقررة لاتستطيع أن تحقق الوحدة أو الواحدية ، وأى وحدة يمكن الوصول اليها عن هذا الطريق تصبح بمعزل عن الوجودية ، وموضوعية مجردة تجريدا تاما . والوحدة النهائية التى تحل فيها كل المتناقضات والمتقابلات يمكن الوصول اليها عن طريق المعرفة النورانية ، هذه المعرفة المطلقة التى تحمل فى طياتها الاتصال الروحى بالله ومملكة الله . أما فى المجتمع الموضوعى فهناك دائما نوع من الثنائية ، أو الصراع بين مبدأين ، أو التناقض والمأساة . والمشكلة كلها هى أن نكتشف ، أيمكن تحقيق الوحدة النهائية والانسجام والاتصال الروحى فى المستوى النورانى فحسب ، أم من الممكن تحقيقها فى المستوى الأدنى كما تزعم النزعات العقلية والوضعية والعلمية والشيوعية ؟

ومشكلة المعرفة ومشكلة المجتمع يتصلان هاهنا اتصالا وثيقا جدا . ومن هذه الناحية كان التحليل الماركسي صحيحا ، ولم تكن الفلسفة حتى عهد قريب قد اهتمت اهتماما كافيا بالتجاوب القائم بين درجة المعرفة ودرجة المجتمع .

فاذا كانت هذه المشكلة قد بحثت على الاطلاق ، فقد كان ذلك فى صورة النزعة الوضعية الاجتماعية أو المادية التاريخية التى عزت الى علم الاجتماع ما يملكه العلم الشامل من صحة فى أحكامه .

ولكن ، فلننظر الى علم اجتماع المعرفة فى مستوى ميتافيزيقى أعلى . ان نمو المعرفة يساعد على انشاء مجتمع أعظم . لأن المعرفة تتصل بدرجة الوعى عند الانسان وهى فى حد ذاتها تتصل بدرجة رقى المجتمع ، غير أن المجتمع الحقيقى لا يوجد الا فى قلب الوجود الحقيقى ، أى فى اللحظة التى يصبح فيها شيئا واحدا ، لا مع المجتمع الموضوعى وحده ، ولكن مع المجتمع

الروحى أيضا · والاتصال الروحى ظاهرة روحية ، وليس ظاهرة طبيعية . وبفضله تتحول المعرفة ، اذ أن موقف الانسـان من بنى جنسـه يتغير اذا أصبح شـاعرا بوجوده الوثيق ، وبغيره من الناس باعتبارهم « أنا » أو « أنت » لا باعتبارهم موضوعات · وكلما نظرت المعرفة الى الانسان خلال هذا الضوء ، أمكن تحويل المجتمع من حال الى حال ·

والفلسفة تهتم أصلا بحياة الانسـان الداخلية ، ومن ثم يجب أن تبحث المشكلات كافة من وجهة نظر المعرفة الانسانية · ولا يمكن توضيح هدف الوجود من وجهة نظر الأشياء أو الموضوعات ، لأن هذا الهدف كامن فى الذات وفى الوجود نفسه · وهكذا فان الفلسفة العقلية ـ شأنها فى ذلك شأن الفلسـفة العملية الموضوعية ـ لا يمكن أن تفهم هدف الوجود الكامن فى أعماقه · ولسـوء الحظ يوضع الوجود السـاقط تحت رحمة العمليات الموضوعية التى تجرده من الوجود الحقيقى ، وتفسره فى أشكال مادية ، كالجوع ، أو الضرورة الاقتصادية (كما هى الحال عند ماركس) والليبيدو أو الشـهوة الجنسـية (عنـد فرويد) والقلق والخوف (عنـد هيدجر) ·

ويتبع ذلك أيضـا أنه مادامت المعرفة لا مادية أساسا ، فان قدرتها على فهم الطبيعة المادية للأشـياء والموضـوعات تظل هى اللغز الأعظم · وتتخذ هذه المشكلة فى فلسفة « القديس توما الأكوينى » طابعا عقليا · وليس من سبيل الى حل هذه المشكلة الا اذا اعترفنا بالطبيعة الوجودية للمعرفة ، وأنها تشارك فى الوجود ، وتنير أعماقه المظلمة وتعمل على تكامل العالم الموضوعى مع العالم الروحى · والايمان بثبات القوانين الطبيعية الذى يرجع الى الهندسة اليونانية انما هو ايمان بالعقل باعتباره تحقيقا للروحية الكامنة فى الطبيعة ، وهذه الروحية يكتبها العالم الموضوعى . ولكننا نفهمها باعتبارها مصـيرنا حالما ننقلب الى عالم الوجود الداخلى · وهكذا نجد أن القوانين الطبيعية المزعومة ليست شيئا آخر غير مصـير الانسان ·

ونحن حينما نستخدم لفظة « الذات الوجودية » فاننا نعتنق بذلك المصطلح الخاص لفلسفة المعرفة الشائعة ، بيد أن هذا المصطلح ليس محددا . والوجود لا يتحقق تماما حتى يمكن أن تتجاوز الذات الى الشخصية الانسانية . والفلسفة الوجودية فلسفة شخصية ، والشخصية الانسانية هى الموضوع الحقيقى المعرفة ولهذا يتعين علينا أن نبحث هذه المشكلة وهى : هل المعرفة عمل خالق من أعمال الشخصية الانسانية ؟ وهل تفترض المعرفة حرية الشخصية ؟

الفصل الثالث

- المعرفة والحرية
- النشاط العقلى والماهية الخلاقة للمعرفة
- المعرفة الايجابية والمعرفة السلبية
- المعرفة النظرية والمعرفة العملية ٠

يستحيل علينا القول بأن الذات المتعقلة سلبية صرفة ، أو أنهـــا تعكس الموضوع فحسب ٠ فالموضوع لا يدخل الذات ، كما يدخل المــرء حجرة من الحجرات ، ومثل هذه الواقعية تفتقر الى التماسك ، اذ لا تستطيع مثلا أن تفسر كيف يمكن أن يتحول الشىء المادى الى معرفة وأى حادثة عقلية روحية لدى الذات ، اذا كانت الذات المتعقلة سلبية فحسب ولم تكن المعرفة غير انعكاس ونشاط خاص ينبعث عن الموضوع ٠ وهذه الحقيقة ــ وهى قدرة الذات فى عملية الادراك على احالة الموضوع الى معرفة دليل كاف على نشاطها الكامن ، وأن عملية الادراك تكتشف المعنى ممــا لا معنى له ، والنظام وراء الفوضى ، والكون من الاحداث المختلطة بعضها بالبعض الآخر ٠ فهى لا تخلق واقعا اضافيا آخر ، ولكنها تضيف الى الواقع الكائن الذى يتخذ حينذاك دلالة أعظم ، وهى عملية خالقة أساسا كما أنها تدعم التنظيم بأن تساعد العقل الانسانى على السيطرة عــلى الفوضى وما يسود الوجود من ظلمات ٠٠ وباختصار ، السيطرة عـــلى العالم نظريا وعمليا على السواء بممارسة الملكات الانسانية الخاصــــة بالابداع والتطبيق ٠

وتكشف الذات العارفة عن نشاطها بوسيلتين :

الأولى : بالاحالة الموضوعية ، وهى عملية تســـاعد الذات عــلى

توجيه نفسها فى عالم ساقط مظلم يحتجب فيه سر الوجـــود ، وتكره فيه الذات على الخضـــوع • والتكنولوجيا هى النتيجة العليا لمثل هـــذه المعرفة الموضوعية • وفى الوقت نفسه تناقض حقيقة الاحالة الموضوعية هذه الفكرة وهى أن الذات تخضع لواقع الموضوع فيها خضوعا سلبيا • ولذلك فان العالم الذى يستحيل الى شىء موضوعى ليس موضوعيا صرفا كما يؤكد ذلك البعض فى أحيان كثيرة •• انه عالم حقيقى ، على درجة معينة من الحقيقة ، وعلى حالة معينة من الوجود ، ولكنه فوق كل شىء عالم يبدى نشاط الذات الخالقة ، والفعـــل المتبادل بين الذات العارفة والموضوع المعروف •

والثانية : تستطيع الذات أن توجه نفســـها عن طريق الفلسفة الوجودية التى تستغنى عن الاحالة الموضوعية ، وفى هذه الحالة لا تدرك الذات الموضوع ، وانما تدرك الوجود الانسانى ، وعن طريق هـــذا الادراك تصل الى فهم الله والعالم • وهكذا تكون المعرفة على ضوء الفلسفة الوجودية فاعلة وخالقة ، وان يكن ذلك بطريقة مختلفة نوعا ما ، فهى تستطيع أن تنير العالم الموضوعى حيث يتكشف لهـــا المعنى •• معنى الوجود الانسانى ، ومعنى الكون باعتباره جزءا من الوجود الالهى • غير أن كل كشف عن المعنى يأتى نتيجة لنشاط روحى ، ونتيجة لعمـــل العقل المتكامل لا الجزئى •• وادراك الوجود معناه انارته وابراز مغزاه ، وانارة الوجود ، ويتبع ذلك بعثه من جديد ، واغناءه بعناصر لم تكـن مميزة حتى ذلك الحين •

والطبيعة الخالقة للنشاط العقلى تختلف فى العلوم الطبيعية عنها فى العلوم الروحية (١) • ففى الحالة الأولى تتحـكم القوانين الرياضية فى النشاط المبدع ، ويقتصر هذا النشاط على عمليات الاحالة الموضوعية ، وفى العلوم الروحية تهتم تلك الطبيعة بالسعى وراء معنى الوجود ، وقد كان « وليـــام جيمس » على حق حينما ذكر أن المعـرفة ليست نتيجة لفعل ، وانما هى نفسها فعل • وهذا حق ، اذ لا يمكن أن تكون المعرفة شيئا غير ذلك ما دامت المعـرفة انبثاقا روحيا • والمعــرفة ديناميكية فى صورتها التأملية اللا اجتماعية بالقدر الذى به تنير العالم تغييرا فعليا • وهذان طريقان من الطرق التى تمارس بها الذات قوتها الخلاقة ، فكما أن النشـــاط الابداعى يستمد قـــوته من التأمل ومن منبـــع خالد ، فكذلك التأمل يفترض بدوره مصـــدرا روحيـــا ، وهكذا نجـــد عند

---

(١) راجع كتاب « دلتاى » الذى ذكرناه آنفا •

« أفلوطين » أن الروح بوصفها المبدأ الأعلى تنظم العالم الادنى . وبالمثل نجد أن التأمل ليس انعكاسا سلبيا صرفا للوجود • ولا نستطيع أن نعتقد اعتقادا جديا ان موضوع المعرفة والتأمل وحده يتميز بالطاقة ، اذ أن الله ذاته يفقد حريته حينما يستحيل الى شيء موضوعي . فالنشاط هو الصفة الموقوفة على الذات ، والله لا يصبح فاعلا الا عندما يكون ذاتا ؛ وماهية روحية تكشف عنها الذات والعلاقة بين المعرفة والسحر ليست شيئا مجتلبا (أو متعمدا) لأنها هي التى أنشأت العلم فى النهاية . ولقد كان السعى وراء المعرفة عملا من أعمال القوة والرجولة والغزو . والتكنولوجيا هى سحر اليوم ، كما كان السحر البدائى تكنولوجيا البدائيين . بيد أن ممارسة السحر تستلزم الاحالة الموضوعية وتجريد الذات وجعلها هى والموضوع واحدا ، وهى نزعة طبيعية أساسا وتهدف الى اشباع الدافع الانسانى فى السيطرة على البيئة ، وهذا يميزها عن الطبيعة الروحية الأساسية للتصوف من ناحية ، وعن الدين الذى يوحى بالتقوى والاجلال أكثر مما يوحى بالخوف رغم ما فيه من عناصر موضوعية .

ولكننا لا نستطيع أن نتأمل طبيعة المعرفة الخالقة الانسانية دون أن ننظر فى مشكلة الحدس والابداع . وينبغى ان نسال انفسنا هل الحدس بوصفه أعلى أشكال المعرفة فعل خالق ، أم هو مجرد انعكاس سلبى للواقع والوجدان سلبى كما تحدده فلسفات « هسرل » و « برجسون » و « لوسكى » المعاصرة (١) • ويؤكد « هسرل » أن الحدس رؤية للماهيات ، وهى رؤية تفسح لها الذات العارفة عندما تتجرد من انسانيتها — مكانا لتدخل فيها • ويرى « برجسون » أن العقل ايجابى لأنه يصنع الكون المكانى (وهذا ما أسميه أنا بالاحالة الموضوعية) ، أما النفاذ الحدسى فى الديمومة فسلبى ، واخيرا ، يعيد « لوسكى » بناء الواقعية الساذجة عن طريق النقد بأن يجعل الوقائع تشاركه مباشرة فى العقل ، أما انا فأرى على العكس من ذلك أن الحدس فعال أساسا ، وأنه ماهية النشاط الخلاق فى أعماق المعرفة ، كما أنه يفترض وجود الهام مبدع • ومن المسلم به أن الحدس فعال فى ميدان العلم الطبيعى ، فأحرى به أن يكون فعالا فى ميدان العلم الروحى • والحدس هو الذى يولد المعنى ، وهو انبثاق المعنى فى المناطق المظلمة للوجود ، وهو ومضة من البرق تخترق حجب الليل . والفلسفة

(١) cf. N. Lossky. De L'intuitivisme.

الاغريقية مسئولة عن التقابل الذى أقامته بين العقل باعتباره سلبيا ، وبين عالم المثل الموضوعى ، وهذه الحقيقة منعت الفلسفة اليونانية من اكتشاف فكرة الحدس ، وجعلت أبحاث الفلسفة المدرسية قاصرة لأنها اقتفت تقاليد الفلسفة اليونانية .

وعلى الرغم من أن برجسون يرى الحدس سلبيا الا أنه يقيم تمييزا واضحا بين المعرفة باعتبارها جزءا من المادة الخالقة الفاعلة وبين المعرفة باعتبارها جزءا من تلك الوقائع التى تتجمد فيها المدة (١) . فان الفاعلية الخلاقة الخاصة بالذات العارفة التى تشارك فى الوجود والوجود الانسانى ، والحياة الديناميكية لهذين الوجودين ، كل ذلك يؤلف تعبيرا عن الوجود لا مجرد طريقة جديدة لتفسيره . وان أفضل شاهد على القوة المبدعة للمعرفة ــ كما يتفق فى ذلك الناس جميعا هو التقويم الجديد الذى تخلعه على الوجود بعد أن لم يكن له مثله . ولنا أن نتساءل : ما هو أصل هذا النشاط ؟ وكيف يمكن أن نفسر ما تقوم به المعرفة من انارة وتقويم للوجود ؟ وتظل المعرفة غير مفهومة اذا لم نوافق على أن يكون للذات الوجودية حظ معين من الحرية .

وهناك جانبان للمعرفة : الجانب الاول هو الجانب الخلاق الذى يتبدى فى الفاعلية الحرة للذات الوجودية التى لا تتحدد عن أى طريق بواسطة الوجود المعروف الذى يسبق الوجود الاصيل اصالة مطلقة . وفى عملية التعقل تتحالف هذه الحرية الذاتية مع « اللوغوس » ، ولكن « اللوغوس » يستوحى الهامه من الله ، بينما تنبع الحرية الذاتية من الهوة اللامعقولة السابقة لكل وجود . وهكذا نرى أن المعرفة ليست مجرد انعكاس الوجود فى الذات على شكل معرفة تأملية ، ولكنها بالضرورة رد الفعل الخالق لحرية الذات المستنير على الوجود ، ونتيجة لهذا الفعل يتم تعديل الوجود والحرية الباطنية فى ممارسة المعرفة تتقبل انارتها من «اللوغوس» ، ولكنها ترتبط أيضا «بالايروس» (الحب) . والسعى وراء المعرفة دون أى شعور بالحب للبحث وراء القوة هو شكل من أشكال «الشيطنة» demonism ، ولذلك يمكن أن نؤكد اذن أن المعرفة أساسا كونية ، وينبغى عليها أن تنظر الى الواقع فى عناية وان تفحصه عن وعى لأن العطف الأخلاقى هو الملهم الحقيقى ، والحافز الى طلب الحقيقة . وهكذا فان الحرية الذاتية التى تتولد عن طريق « اللوغوس » تغير الواقع ، وطبيعة المعرفة لها طبيعة الزواج ، فهى مذكرة ومؤنثة ،

(١) cf. Janklévitch, Bergson.

وهى ارتباط مبدأين ، واخصاب للعنصر الأنثوى بواسطة المنى الرجولى .

وأساس المعرفة لا معقول لأنه مشتق من الحرية السابقة على المعرفة وقد أدرك الميتافيزيقيون الألمان الذين ينتمون الى مدرسة « بيمه » Bochne الأساس اللامعقول للمعرفة ادراكا واضحا . وثمة ناحية أخرى خالقة هى الاحالة الانسانية للوجود الذى يتضمن نشاط الانسان الادراكى ، والاحالة الانسانية تظهر خاصة فى المعرفة التى يمكن أن ينتج عنها الشر احيانا . وفى المعرفة النورانية من ناحية أخرى هناك حد لهذه العملية من الاحالة الانسانية ، حد يعلى بعده على الوجود المخلوق ليصبح الهيا . والاعتراف بالفاعلية الحرة للذات الوجودية فى المجال العقلى هو اعتناق فلسفة تؤكد أولوية الحرية على الوجود . وتصبح للنزعة الارادية الاولوية على النزعة العقلية ، وان كان من الواجب أن نضع نصب أعيننا أن الارادة ليست فاعلا حرا حرية مطلقة ، والفلسفة العقلية سواء أكانت أفلاطونية أم أرسطية تقتضى الحرية العقلية نفسها دون اختلاف ، وبذلك تبطل طبيعتها الخلاقة فى جوهرها ، وكل مذهب عقلى قائم على مبدأ خارجى وعلى نوع من التحديد يسمح للوجود العقلى والموضوعى بتحديد عملية التعقل وطريقة الادراك الذاتى تحديدا تاما . وهكذا ترغم الفلسفة العقلية حتما على انكار سلامة الذات ومشاركتها فى سر الوجود .

والحرية هى الشرط الأساسى للذات الوجودية ، ومأساة الفلسفة تنشأ عن أولوية الحريةعلى الوجود ؛ والذات الوجودية على الموضوع، هذه المأساة لا تدركها الفلسفة العقلية ، وأى مذهب عقلى خالص لا يستطيع أن يميز الصواب من الخطأ لأنه يدرك الحقيقة عن طريق الضرورة ، ولذلك فان « ديكارت » كان لابد له لكى يفسر امكان الخطأ من الالتجاء الى فكرة الارادة والفاعل الحر ، على الرغم من أن فلسفته كانت قائمة فى جزء كبير منها على التصور العقلى . والحرية الكامنة فى التعقل لا تجعل منه عملية خالقة فحسب ، ولكن مصدرا لأخطار كثيرة ، ومتناقضات لا سبيل الى تخطيها (أو التغلب عليها) . ولا يمكن لغير اللطف الالهى أن يوفق بينها .

وحينما نؤكد الطبيعة الخلاقة للتعقل يجب علينا أن نحذر من جعل العلاقة بين الخالق والمخلوق معتمدة على العلية ، أى على الضرورة أكثر منها على الحرية . والواقع أن هناك درجات من الحرية

بالضرورة تفسابر الأنواع المتنوعة للمعرفة ، وتقابل موقف الذات الوجودية في سلم الوجود . وليس تركيب الشعور الانسانى شيئا ثابتا ، وهكذا نجد أن الأنواع الموضوعية والطبيعية من الفلسفة أكثر ميلا الى الاعتراف بقانون الضرورة من الميتافيزيقا التى تتجه نحو الأشكال اللاموضوعية والروحية للوجود . وتتبدى الحرية العقلية أولا وقبل كل شىء فى العلم الطبيعى الذى أولى أكبر عناية للعالم الساقط . والتصور العلمى للعالم يثبت التطبيق العملى للمعرفة على العالم الطبيعى فى صورة التفوق الفنى على الطبيعة ، ولكن هذا التصور يتولد فعلا عن النشاط الحر الروحى للعالم أو المخترع . انها الروح التى تنظم المادة ، بيد ان العالم بتركيز اهتمامه فى الأشياء المادية أكثر من الأشياء الروحية يميل الى الاشتراك فى الحط من قيمة حريته الأصيلة شيئا فشيئا ، والالهام الابداعى هو أعلى أشكال الحرية ، والعمل هو أدنى هذه الأشكال وأشدها امعانا فى المادية .

وهذه الحقيقة تجعل فلسفة العمل ذات أهمية خاصة لا من وجهتى النظر الاجتماعية والأخلاقية فحسب ، ولكن من وجهة النظر العقلية ، وعلم الاجتماع(١) مسئول عن بحث الجوانب النظرية العملية والانسان العاقل انسان عامل أيضا ، ولا تستطيع الذات العارفة أن تفهم دون أن تفعل أو تعمل ، والأصل والغرض من المعرفة ابداعيان على السواء ، غير أن الخلق يقتضى العمل ، وتبعا لذلك فهو يرتبط بالأشكال الاجتماعية كما لاحظ « ماركس » الذى أخفق فى فهم طبيعة العمل الروحية فى أساسها ، وقد عمل على الحط من هذه الحقيقة بتفسيره المادى الخالص . والعمل ظاهرة روحية ، والصلة بين المعرفة والعمل أو النشاط الحيوى تحددها الطبيعة الوجودية للذات . وهذه الحقيقة تثبت الميول المنحرفة للعلم والفلسفة معا حينما يقتصران على الأبحاث الأكاديمية المجردة وحدها . والأثر الوحيد الذى يتركه هذا الانحراف فى التطبيق هو تشويه المعرفة . وحينما تجرد الفلسفة نفسها من الحياة ، ومن الوجود فى كليته ــ كما هى الحال عند المفكر الروسى « ن . فيودوروف » ــ فانها تسيل الى اقامة مجموعة زائفة من القيم . ويجب أن توفق الذات العارفة بالضرورة وبفضل صفتها الوجودية بين العقل والارادة ، وبين التأمل والعمل ، وبين النظر والتطبيق ..

---

(١) لكل من « ماكس شيلر » و « زمل » فى كتابه « علم الاجتماع » تعليقات هامة على هذه العلاقة .

وهكذا نرى أن الفلسفة الوجودية بطبيعتها نظرية وعملية فى آن واحد ، وهدفها هو دراسة المبدأ الموحد الذى يجعل من الفلسفة شيئا متكاملا مع المجتمع ، وكذلك اثبات الطابع الاجتماعى للاتصال المنطقى ، ولهذا السبب فان محاولتى الأساسية فى هذا الكتاب هى اقامة العلاقة بين المعرفة أداة للمجتمع الموضوعى وبين المعرفة وسيلة لتحقيق الاتصال الروحى الوجودى .

الفصل الرابع

● درجات الاتصال العقلى
● محق عالم الأشياء والموضوعات والاقتراب من لغز الوجود

لم تلق الفلسفة بعد ضوءا كافيا على المضمون الاجتماعى للمعرفة وعن الروابط العقلية التى تربط بين الناس وتجعل التفاهم بينهم ممكنا. فعن طريق المعرفة يستطيع الانسان أن يخرج من انطوائه الذاتى ، كما تساعده أيضا على التغلب على التفكك الناشىء عن التقسيم المكانى والزمانى للعالم ، وعلى أن ينقل نفسه لى الماضى البعيد أو الى أى مجال آخر للوجود ، وهى فى الواقع قوة موحدة فى عالم مفكك . والجانب الاجتماعى من المعرفة يعترف بصحته الجميع ، والمنطق نفسه أساسا للاتصال العقلى هو أيضا ذو طابع اجتماعى . وفى مجرد ضرورة اخضاع الفكر لقوانين المنطق ضرورة اجتماعية لان الفكر يقوم أصلا على الحدس ، وهو عبارة عن كشف شخصى أنثروبولوجى لسر الوجود . ولكن النتائج المادية للمعرفة ذات طابع اجتماعى ، والمقصود منها الاتصال لأن مجرد نشر كشف علمى أو تاليف كتاب يعد ظاهرة اجتماعية .

ودرجة الاتصال التى تبلغها المعرفة تعتمد اعتمادا كبيرا على درجة الروح الاجتماعية الموجودة فى مجتمع ما ، وما دامت الاحالة الموضوعية العقلية تقتضى الاحالة الاجتماعية فينبغى اذن أن تتنوع تبعا لتنوع المجتمعات . والمجتمعات الانسانية تعكس المعطيات الموضوعية والكلية للمعرفة وفقا لتركيبها الخاص وبطريقتها الخاصة ، والمعرفة العلمية ،

كانت حتى وقتنا الحاضر من انتاج المتخصصين ورجال الجامعة ولكن كشوفها – وخاصة كشوف العلوم الفزيائية والرياضية قد استخدمت وسيلة للاتصال بين آناس تختلف اراؤهم الروحية اختلافا كبيرا • وهكذا نجد أن المعرفة العلمية التى تمثل العلوم الرياضية والفزيائية أنقى نماذجها •• هذه المعرفة تقدم وسيلة شاملة للاتصال بين الناس ، ولكن دون أن تقيم بينهم فى الوقت نفسه أى اتصال روحى صادق • والواقع أنه على الرغم من أن الحقائق التى تذيعها العلوم الرياضية والفزيائية تؤلف أساسا للاتفاق بين الناس الذين يختلفون فى آرائهم الروحية ومعتقداتهم الدينية ، وطبقاتهم الاجتماعية ، وجنسياتهم وثقافتهم ، الا أنها لا تستلزم غير أدنى المستويات للاتصال الانسانى الحقيقى •

وصفة التجريد والشمول تجعل من العلم طريقة صالحة للاتصال فى العالم الموضوعى الاجتماعى غير المتكامل من الناحية الروحية ، وليس من شك فى أن درجة معينة من الاتصال بين الناس – هى هذه التى نعبر عنها برمزية اللغة (١) – تعد أساسا رئيسيا للاتصال ولنشر الكشوف العقلية • بيد أن هذه الدرجة من الاتصال قد توجد جنبا الى جنب مع الانفصال الروحى •• وهذه هى المشكلة التى تواجه علم الاجتماع ، فان الجوانب الاجتماعية للمعرفة ، وان تكن منفصلة تماما عن الوجود الباطن والاتصال الروحى ، هذه الجوانب تلقى أعظم عناية، وتنتشر انتشارا واسعا ، بينما نجد من ناحية أخرى أن المعرفة القائمة على الاتصال الروحى والتى تشارك فى سر الوجود والحياة الروحية ليست مقبولة قبولا عاما كما أنها ليست مستخدمة وسيلة شائعة للاتصال •

وتفترض الحقائق الفلسفية درجة أعظم من الاتصال الروحى بالقياس الى الحقائق الفزيائية الرياضية ، ولكن أعلى درجات الاتصال الروحى توجد فى الحقائق الدينية ، وتبدو هذه الحقائق كأنها ذاتية صرفة لا يمكن اثباتها أو التدليل عليها كما أنها عاجزة عن أن تكون أساسا للاتصال العام ، ولكنها تكتسب داخل المجتمع الروحى أو الكنيسة شمولا أكبر كثيرا من الحقائق الرياضية لانها تفترض الايمان والاجماع من جانب المؤمنين بها • وهكذا نجد أنه فى العصور الوسطى حينما بلغت المسيحية أعلى درجات الموضوعية أنشأ

---

(١) cf. Delacroix, Le Langage et la Pensée.

العـــالم المسيحى مجتمعا كانت الحقـــائق المسيحية صحيحة بالنسبة اليه صحة شـــاملة ، بينما لم تكن الحقـــائق العلمية قد اكتسبت انتشارها الاجتماعى ، وكانت تثير عند الناس ســـوء الفهم أكثر مما توحى بالاقتناع • وفى أيامنا هـــذه أصبحت كشوف العـــلم هى التى تتمتع بالموضـــوعية الاجتماعية أكثر من ســـواها ، والأشكال العلمية للاتصـــال أكثر هـــذه الأشـــكال عمومية بينما تبـــدو الحقائق الدينية ذات طابع ذاتى •

ووسائل الاتصال الانسانى ترتبط بدرجات المجتمع الانســـانى، وتميل ظروف العالم الوضيع المفكك الى أن تجعل أقصى درجات الاحالة الموضوعية الاجتماعية أساسا للاتصال العام • بيد أن الحالة الوضعية المفككة للعالم لا يمكن أن تكون نتيجة مباشرة للتطبيق المادى للكشوف العلمية . ولكنها كامنة فى تركيب الوجود نفسه ، وفى عالمنـــا هذا المنقسم ، اكتسب العلم صحة القانون وشموله • وهـــذه الصحة الكلية لا تشاطر فيها الفلسفة كما حددناها على أنها الفلسفة الوجودية مادامت لا تهتم بالعالم الموضوعى • والموضوعية تقتصر بالضرورة على الموضوع، ومن ناحية أخرى نجد أن الذاتية ليست زائفة أو مضادة للحقيقة ، بل انها تستطيع أن تصل الى الحد الأقصى للحقيقة ، وهى تفتقر أيا كان الأمر الى هذا الطـــابع من الصحة الشاملة ، وهى الشرط الأســـاسى للاتصال •

فالاتصال الروحى يبدو حينئذ أساسا غير ملائم للاتصـــال بين الناس • وهذه حقا ناحية من النواحى غير المألوفة للمعرفة كما يظهر ذلك فى العالم الوضيع وهذه الوسائل من الاتصال التى تقوم على التفكك الزمانى والمكانى تستمد من المعرفة الموضوعية بغض النظر عن الاتصال الروحى الحقيقى ، كما تستمد من الحقائق الرياضية أكثر من أن تكون مستمدة من الفهم المباشر للوجود وللوجود الانسانى ، وهكذا فان ما نسميه **بالدين** أو « بالرباط » لم يستخدم وسيلة للاتصـــال الروحى فحسب ، ولكن باعتباره أداة للتنظيم الاجتماعى والتضليل • وهـــذا الانحراف للدين هو نتيجـــة لعمليات الاحالة الموضـــوعية لحقائق الوحى • وهكذا نجـــد أن وسائل الاتصـــال التى ينشئها الدين (١) لا أساس لها من الاتصال الروحى الحقيقى ، والحياة الروحية وحدها هى

---

(١) cf. Berdyaev, The Destiny of Man (Geoffrey Bles) and Bergson, The Two Sources of Morality and Religion.

التى تستطيع أن تتحاشى النتائج الاجتماعية للاحالة الموضوعية ، غير أن حقائقها الموحى بها ليست لها الصحة الشاملة فى شىء · ودرجة الاحالة الموضوعية تختلف وفقا للعوالم الفزيائية والعضوية والاجتماعية (١) ، ولذلك يجب أن نلاحظ أنه على الرغم من أن الاحالة الموضوعية هى أساسا عملية احالة اجتماعية فان المعطيات الاجتماعية ليست مقبولة قبولا شاملا كالمعطيات العلمية ، وهذا يمكن تفسيره بأن علم الاجتماع يعتمد على مركز الانسان الاجتماعى وعلى سيكلوجيته الخاصة قبل كل شىء ، فللعلوم الفزيائية الرياضية شمول أعظم وصحة اجتماعية أكبر · وتواجه النظرية الماركسية مثلا صعوبة أشد حينما تريد أن تعزو الارتباطات الطبقية الى هذه العلوم لا الى العلوم الاجتماعية ·

وينبغى أن يكون هدف أى فلسفة عينية هو العمل على تكامل الجوانب الاجتماعية للمعرفة ، وأن تضع الأسس لفلسفة اجتماعية . فان فلسفة من هذا النوع تساعد على القاء الضوء على الفلسفة الدينية · ومن الممكن قيام فلسفة اجتماعية لتشمل غنوصية الكنيسة ، ما دامت الكنيسة هى أيضا مقولة اجتماعية ، ومع ذلك فان نظرية المعرفة التى تتخذ طابعا موضوعيا بواسطة المجتمع بحيث تشمل كل درجات الاتصال من الجزئى الى الكلى ، لا يمكن أن تتضح الا عن طريق الفلسفة الوجودية وحدها ، وعلى ضوء الذات الوجودية فحسب · وهكذا نرى أن العالم الموضوعى ·· العالم الجامد الثابت للمادة والذى ليست فكرة الشمول فيه غير ظاهرة اجتماعية ــ هذا العالم ينحل الى لا شىء حينما يواجه بالكشف عن سر الوجود ، بالكشف الروحى الذى يعلو على الطبيعة ، ويغوص فى أعماق الوجود ويرتفع الى ذراه ، وعلينا أن نبحث هذه المشكلة نفسها حينما تتعرض لعزلة الأنا فى علاقتها بالمجتمع ·

---

(١) الفهم الوجودى للعالم الاجتماعى ممكن ، وتفسير « ماركس » للراسمالية من حيث علاقاتها الاجتماعية يعتبر تفسيرا وجوديا بينما تعد « ماديته » شكلا متطرفا من اشكال الاحالة الموضوعية · (المؤلف)

التأمل الثالث

الأنا والعزلة والمجتمع

الفصل الأول

● الأنا والعزلة

● العزلة والروح الاجتماعية

الأنا بدائيــة . ولا يمكن أن تســتمد من شيء أو ترد الى شيء ٠ وعندما أقول « أنا » لا أعبر ولا أضع اى مذهب فلسفي ، كما أن «الأنا» لا تؤلف جوهر الدين أو الميتافيزيقا ٠ والخطأ الذى وقع فيه «ديكارت» بتأكيده لهذه العبارة : « أنا أفكر اذن فأنا موجود » يرجع الى محاولته اشتقاق وجود «الأنا من شيء آخر ، هو الفكر ٠ وأيا كان الأمر ، فالواقع أنني لست موجودا لأنني أفــكر ، ولكنني أفــكر لأنني موجود ٠ وليس من الصواب أن يقال : « أنا أفكر اذن فأنا موجود » بل الأصوب أن نقول : « انني محاط من كل الجوانب باللانهائية التي لا يمكن النفاذ منها ، ولهذا فأنا افكر » ، فالأنا موجودة أولا ، وهي تنتمي الى مجــال الوجود ٠

والأنا ـ قبل أية احالة موضوعية ـ ذات طبيعة وجودية ، ومعناها مرادف للحرية ٠ ويقول آمييل (١) بحق ان الطبيعة الأساسية للأنا لا يمكن أن تصبح موضوعية ، وهي لا يمكن أن تكون موضوعا لأنها هي « الأنا » وكفى ، وما أن تصبح موضــوعا حتى تتوقف عن أن تكون « أنا » ، فهي ظاهرة وجودية وليست ظاهرة طبيعية ٠ وهي أوليــه

(١) Amiel, Fragments du Journal intime.

بدائية (١) ، والوعى كامن فيها شأنه فى ذلك شأن اللاوعى ، والذات البدائية لها جذورها فى الوجود ، لا فى الوعى كما يحب بعض الفلاسفة أن نفترض ذلك ، والوعى يلتزم درجة معينة من الموضوعية • وقد أسهم « مين دى بيران » اسهاما هاما حينما قال ان المجهود الواعى هو فجر الشخصية ، ولكن ليس المجهود هو الصفة الاولى للأنا • وقد أكد أيضا أن الوعى الذاتى مرادف للخلق الذاتى (٢) • وثمة نصيب كبير من الصدق فى هذا التأكيد ، ولكن ذلك يفترض وجود شىء سابق للوعى •

ومولد الوعى حدث هام فى مصير الأنا ، وما فى هذا الوعى من وحدة عرضة للانقطاع السريع ، كما أن الأنا تتهددها العزلة ، ولكنها تحاول باستمرار أن تعيد تكاملها ، وأن تتغلب على عزلتها ، وتطور « الأنا » فى طريق طويل من الحرية • بيد أن الوعى الذاتى فى أقصى حدوده لا ينفصل عن الشعور بالارتباط والاعتماد على « اللا ــ أنا » • ولم يكن فى الأصل ثمة خط فاصل بين الأنا والمجموع • ولما كشف وجود « اللا ــ أنا » فيما بعد ، تولد فى الأنا من هذا الاكتشاف حساسية خاصة حادة يشوبها القلق نتيجة لاتصالها وتيمزها عن المجموع ، ومراحل تطور « الأنا » تسير كالآتى :

(**أولا**) ــ الوحدة غير المتميزة بين الأنا والكون •

(**ثانيا**) ــ التقابل الثنائى بين الأنا واللاأنا •

(**ثالثا**) ــ تحقيق الاتحاد العينى بين كل « أنا » و « أنت » ، وهو اتحاد يحتفظ بالكثرة فى صورة متسامية •

والأنا منبع الفلسفة وأصلها ، هذه الفلسفة التى تنبثق من الشك فى طبيعة العالم الموضوعى ، وشعور الفيلسوف ليس جماعيا أو نوعيا ، كما أنه لا يتخذ كمقدمة له « أنا » قد أحيلت احالة موضوعية فأصبحت شيئا واحدا مع الوعى الجماعى • وكان الناس يعيشون فى سابق الأزمان فى مكان محدود نسبيا منعهم من معاناة معنى العزلة ، غير أنهم بدأوا يعيشون اليوم عالمة فى الكون الكبير وسط المكان الشاسع وبين آفاق لا حدود لها ، وهذا لا يوحى اليهم بغير العزلة والوحشة • ولكن الكون بما له من أفق لا متناه كان دائما ميدان « الفيلسوف » ، كما أن رؤيته قد تجاوزت حدود العالم المباشر ، ولهذا السبب كان

---

(١) cf. J. Chevalier, Bergson.

(٢) Louis Lavelle, La conscience de soi.

متوحد دائما شـــأنه فى ذلك شـــأن الأنبياء ، وليست بالفيلسوف حاجة الى أن يوحد نفسه مع الوعى الجماعى لكى ينغلب على عزلته ، فانه يستطيع أن يحقق ذلك بطلبه للمعرفة ، وسنبحث هـــذا الجانب من الموضوع بتفصيل أعظم فيما بعد ·

والماهية التى لا تتحول فى عملية التحول تعريف متنـاقض للأنا ، فلولا أن هناك « ذاتا » تتحول ، ذاتا قادرة على الاحتفاظ بذاتيتها فى عملية التغير ، فان الأنا لا تستطيع أن تعـــانى تغيرا مؤقتا ، بيد أن « الأنا » تستطيع الاحتفاظ بذاتيتها وتفردها رغم تغيرها الدائم · وقد تنكمش أو تمتد ، وهناك أنا أصغر أو أكبر كامنة فينا جميعا · فمن الممكن اذن تعريف « الأنا » بأنها الوحدة الدائمة التى تكمن وراء كل تغير ، والمركز الذى يتجاوز الزمن ، وأنهـا الشىء الذى لا يمكن تعريفه الا بحدود نفســـه الخاصة ، ولكن بينما يكون من الممكن تحـــديد تغيرات « الأنا » موضوعيا ، فان ماهيتها لا يمكن أن تتحدد على هذا النحو ، فهى تحدد نفسها بنفسها ، وهى تحدد نفسها من الداخل حينما تتجاوب تجاوبا فعالا مع كل المؤثرات الخارجية ·

وكل « أنا » تتشابه مع غيرها فى أنها جميعا فريدة متميزة ، وكل « أنا » حقيقة قائمة بذاتها ، عالم قائم بنفسه ، يضع وجود « الأنات » الأخرى دون أى محاولة لأن يجعل من نفسه شيئا واحدا معها ، والأنا التى أعنيها هى « الأنا » غير الموضوعية التى تتجاوز المجتمع ، ووجود الأنا يسبق احالتها المادية فى العالم ، ومع ذلك فانها لا تفترق عن وجود الذوات الأخرى و « الأنات » الأخرى ·

والوعى الذاتى يقتضى الشعور بالآخرين ، فهو اجتماعى فى أعمق أعماق طبيعته الميتافيزيقية · وما دامت حياة الانسان تعبيرا عن الأنا ، فانها تفترض وجود الآخرين ، ووجود العالم ، ووجود الله · وانعزال الذات انعزالا مطلقا ورفضها الاتصال بأى شىء خارجها أو « بالأنت » عبارة عن انتحار · ووجود الأنا يصبح مهددا كلما أنكر الوجود الكامن فيها لذات أخـــرى أو للأنت ، وكما قال « آمييل » بحق ان عملية الاحالة الظاهرية للأنا هى الوسيلة التى يتكشف بها سر الكون · و « الأنا » عند « فخته » ليست أصيلة لأنها كلية أكثر من أن تكون فردية ، ولأنها تضع « اللا ــ أنا » أكثر من أن تضع « الأنات » الأخرى أو « الأنت » · والأنا تصبح شاعرة بنفسها نتيجة لنشاطها الخاص ، ولكن هذا النشاط يقوم على أساس وجود شىء أو شخص آخر ، كما يقوم على « الأنا »

الفـــــاعلة . ولكننا نهتم هنا أولا بوجـــــود ذات أخرى .. بوجود ال « أنت » .

و « الانا » جسم وروح معا ، والنظرية الثنائية الخاصـــة بالجسم والروح نظرية عقيمة تماما ، فالجسم يشارك في مجال الوجود الخارجي والداخلي على السواء ، والعالم الداخلي لا يتوقف على تحققه الخارجي ، فهو قائم بذاته بوصفه كشفا عن حالة أخرى من حالات الوجود . ومشكلة « الأنا » وعلاقتها بالأنات الأخرى او بالموضوع تتخذ أصلها في مجال الوجود الذي يتميز عن هذه الكلمة « الحياة - في - العالم » . ولعل مما يبعث على العجب أن الوعي وخاصة الوعي الذاتي يرتبط بحالة من العـذاب والضعف والتهافت والتمزق ، وهـذه الحـالة من الشقاء تتصل بما أطلق عليه بعض الفلاسفة من أمثال « زمـل » و « تليتش » و « يسبرز » . « الموقف الحـدى للانسان » . ومن الحق أن « الأنا » تستحيل الى شيء خارجي ، وأنها تخضع لقوانين العالم الموضوعي ، بيد أن خضوعها لهذا العالم جزئي فحسب . والحياة الانسانية تتطلع دائما الى العلو على نفسها ، ولكن هذه الحقيقة وهي تحول الانسان الى شيء مادي مهما تكن جزئيته يجعل من وجوده شقاء وتعذيبا له . وحقيقة « الأنا » تكمن في محاولتها العلو على نفسها ، وهي تهلك في اللحظة التي لا تجد فيها مخرجا لنفسها ، وفي هذا يكمن لغز « الأنا » الاساسي .

ولكي تحقق « الأنا » نفسها يجب أن تفي بشرطين : **أولا** : ينبغي الا تكون مجرد أداة موضوعية أو اجتماعية . **وثانيا** : عليها أن تعمل دائما على أن تعلو على نفسها . وفي عملية العلو على نفسها تميل الى الخروج عن عزلتها والى أن تتحد بالذات الأخرى ، وبالآنات الاخرى .. بال « أنت » وبالناس ، وبالعالم الالهي . وليس ثمة ما هو أسوأ أو أكثر هدما من الانطواء على الذات ، واستغراق « الأنا » في نفسها ، وهي في حالاتها المختلفة تنسى (الآنات) الأخرى والعالم والمجموع ، وبكلمة واحدة تخفق مثل هذه (الأنا) في العلو على نفسهـــا ، ومثل هـــذه الحالة تشـــبه حالة بعض النســـوة المصابات بالهستيريا ، ولايستطيع ســـوى شاعر غنائي أن يخلق شيئا جميلا من مثل هذه الحالة الشاذة، وحينذاك يكون الابداع الشعري وسيلة للعلو .

ومشكلة العزلة - التي لم تنل حتى الآن غير حظ ضئيل جدا من النظر الفلسفي - تلقي ضوءا شديدا على الأنا ، كما أنها تتصل اتصالا واضحا بمشكلة المعرفة التي تساعد على الانتصار على العزلة ، وتحقيق

التنوير الداخلي • واخفاق « الأنا » في اقامة الـلاقه مع الـ « نحن » ، والشعور الحاد القلق بالعزلة الذى ينشأ عن هذا الاخفاق يمهد لنشأة شعور الذات ــ المتزايد ــ بنفسها (١) • والغالبية العظمى من الجنس البشرى لا يرهقها هذا الشعور بالعزلة ، اذ تخنق هذا الشعور الجماعة البدائية بطريقتها النوعية في الحياة • ذلك أن الشعور بالعزلة ينبثق من محاولة الانســـــان تنمية شخصيته بغض النظر عن حياة النوع الانسانى • والانسان لا يدرك شخصيته واصالته وتفرده وتميزه عن كل شخص وعن كل شيء الا عندما يكون وحيدا ، والا عندما يستبد به ذلك الشعور الحزين الكئيب بانعزاله • والشعور بالعزلة الحادة يميل الى أن يجعل كل شيء آخر يبدو غريبا معاديا ، وحينئذ يشعر الانسان أنه غريب متوحد لا وطن روحيا له • وهذا الشعور بالمنفى الروحى قد عبر عنه التصور الأورفى لأصل الروح تعبيرا ممتازا :

وظلت (أى الروح) فى العالم نهبا للضياع وقتا طويلا ،

تستهلكها أعجب الشهوات •

ولم يكن فى قدرة أغانى الأرض الحزينـــــة الشـــاكية

أن تنسيها موسيقى السماوات •

(لرمنتوف)

وما دام الانسان لم يشعر أنه في بيته ، وفى عالم وجوده الحقيقى، واذا ظل يرى الناس فى ضـــوء هذا العالم الغريب • فانه لا يستطيع الا أن يتصور العالم والناس الذين يعيشون فيه باعتبارها موضوعات تعكس عالم الضرورة الموضوعى • بيد أن العالم الموضوعى لا يمكن أن يكون وسيلة لتخليص الانسان من سجن عزلته ، وهكذا تبقى الحقيقة الأساسية صحيحة ألا وهى أن أى اتصـــال موضوعى لا يمكن أن يساعد « الأنا » أثناء مسيرها فى طريق الحرية والاتصال الروحى ، أيا كانت العلاقة بينهما • وفى أعماق عزلته ووجوده التنسكى ينمو فى الانسان الشعور الحاد بشخصيته وأصالته وتفرده ، فيتوق الى الهرب من سجنه الوحيد ليدخل فى اتصال روحى مع أنا أخرى •• مع الـ « أنت » أو « نحن » : « والأنا » تتلهف للخروج من سجنها لكى تلتقى بأنا أخرى ،

---

(١) يستطيع القارىء أن يرجع فى بحثه عن العزلة والاتصال الى الفصل الذى كتبه « لافل » عنهما فى كتابه « الشعور بالذات » La Conscience de soi

ولتجعل من نفسها شيئا واحدا مع هذه الأنا . ولكنها فى الوقت نفسه يجب أن تسير بحذر خوفا من ألا تلتقى الا بالموضوع . وللانسان حق مقدس فى العزلة ، وفى حياة خاصة . ومن الخطأ اعتبار العزلة نزعة انعزالية ، وانما على العكس من ذلك لا توجـد عزلة الا وكان وجود الذات الأخرى والأنا الأخرى مرادفا للعالم المجرد الموضوعى . والأنا لا تعانى عزلتها داخل نفسها مثلما تعانيها وسط الآخرين ، وسط عالم مجرد . والعزلة المطلقة لا يمكن تصورها ، بل من الضرورى أن تكون مقترنة دائما بوجود الغير و « الذات الأخرى » .

والعزلة المطلقة مرادفة للجحيم وللعدم ، ولا يمكن تصورها الا عن طريق السلب . والعزلة النسبية تقتضى العجز والسلب ، ولكن لها أيضا جانب ايجابى حينما تعلو على ما هو مألوف ونوعى ، وعلى العالم الموضوعى ، فهى تمثل حينئذ حالة عليـا من حالات « الأنا » . وحينما يحدث ذلك فان درجة الانفصال الحادثة لا تكون عن الله والعالم الالهى ، وانما عن « الروتين » الاجتماعى اليومى للعالم الوضيع . وهذا الانفصال مرحلة من مراحل نمو الانسان الروحى .

وحينما تتجرد « الأنا » من العالم المألوف للحياة اليومية ، تشتاق الى وجود أكثر عمقا وأشد أصالة ، وتتردد بين عزلتها وبين حيـاة المجتمع اليومية . وتأكيد « كيركجورد » أن المطلق يقسم أكثر مما يوحد لا يصدق الا فى مدى تطبيقه على التقسيم والتوحيد المعمول بهما فى الحياة الاجتماعية اليومية . والزمان والمكان اللذان يحددان حياة عالمنا الموضوعى هما المصدر الحقيقى للعزلة ، كما أنهما مصدر للوهم الخاص بالعلو عليها . فالمكان والزمان يقسمان ويوحدان الناس لا على مستوى الوجود الحقيقى والاتصال الروحى الصادق ، ولكن على مستوى الحيـاة الموضوعية والاجتماعية وحدها . والحركة التى تكتسبها « الأنا » فى وجودها الزمانى المكانى لها أعظم الأهمية بالنسبة لها ، واستبعاد فكرة المكان والزمان وسيلة للهروب من تثبيت العزلة ، غير أن فكرة العزلة تفترض دائما الحاجة واللهفة الى الاتصـال الروحى . وحينما يصـبح الانسان مدركا لنفسه بوصفه شـخصا ، وحينما يتطلع الى تحقيق شخصيته ، عندئذ ينبغى عليه أن يعترف أولا بعجزه عن الاستمرار فى وجوده التنسكى ، وأن يعترف ثانيا بالمصاعب العظيمة التى تكتنفه من كل جانب فى محاولته الهروب من عزلته ، وأن يجعل من نفسـه شيئا واحدا مع الذات الآخرى ، والآنات الأخرى .

والعزلة ظاهرة اجتماعية بمعنى من المعاني لأنها تفترض الشعور بالذات الأخرى ، وان أكثر أشكال العزلة تطرفا وكآبة هو ما تعانيه وسط المجتمع ، فى العالم الموضوعي · واتصال « الأنا » » باللا ـ أنا »، وبالعالم الموضوعى لا يحل مشكلة العزلة ، فهذا الاتصال يحدث كل يوم ، ولكنه يضاعف من عزلة الانسان أكثر من أن يخففها · ومما لاجدال فيه أنه ما من شيء يستطيع أن يقضى حقا على عزلة الانسان · وهذه العزلة لا يمكن التغلب عليها الا فى المستوى الوجودى بالتقاء الأنا مع آنا أخرى ·· مع « أنت » أو مع الذات · وحينما تتجرد الانا من حياتها الجماعية الأولى ، وتعانى المولد المؤلم للوعى ، والانفصال والعزلة فانها لا تستطيع أن تحقق التكامل والانسجام والاتصال الروحى بالآخرين بأن تعود الى الحياة الجماعية فى عالم موضوعى ، بل ينبغى عليها أن تجد مخرجا من العالم الموضوعى الذى لا يوجد فيه أى اتصال روحى · والعزلة تستتبع تناقضا ما ، ويعرف « كيركجورد » المأساة بأنها تناقض ينطوى على العذاب ، والملهاة بأنها تناقض يخلو من العذاب · والعزلة الانسانية تضع المأساة ، فهى محاولة للتغلب على المأساة التى ينطوى عليها موقف معين والعجز عن الوصول الى هذه الغاية ، ومن ثم نجد تناقضا أعظم بين استحالة حل مأساة النقيضين من ناحية ، وضرورة حلها من ناحية أخرى ·

وتحاول « الأنا » أن تتغلب على عزلتها بوسائل عدة : كالمعرفة ، والحياة الجنسية ، والحب ، والصداقة ، والحياة الاجتماعية ، والأعمال الأخلاقية ، والفن ، وغير ذلك من الوسائل المتعددة · ونجانب الصواب اذا قلنا ان العزلة لا تهون الى حد ما بهذه الوسائل ، ولكن من الامعان فى المبالغة أن نقول انها يتغلب عليها نهائيا بهذه الوسائل، لأن هذه الوسائل جميعا تقتضى عمليات الاحالة الموضوعية ومواجهة الأنا للموضوع بدلا من « أنا » آخرى ، أو « أنت » فى أعماق الاتصال الروحى الداخلى ·

وهناك أشكال ودرجات متباينة من العزلة · وهى باعتبارها تجربة لا نقتصر على شكل واحد أو كيفية واحدة · والنزاع والصراع ، بل الكراهية نفسها كلها مظاهر اجتماعية تستخدم غالبا للضغط على الشعور بالعزلة واسكاته ، ولكن الأثر النهائى الذى تتركه هذه الوسائل أيا كان الأمر هو مضاعفة هذا الشعور · وعدم الفهم ، أو انعكاس الذات غير الصادق فى ذات أخرى قد يوقظ أيضا الشعور بالعزلة · والذات تعانى حاجة عميقة الى أن تنعكس انعكاسا حقيقيا فى ذات آخرى ، وأن

تتأكد وتتحقق بواسطة ذات أخرى ، وهى تتطلع الى أن تسمع والى أن ترى . والنرجسية أعمق تأصلا فى « الأنا الأصيلة » مما يعتقد الناس عادة . فالأنا نبحث عن انعكاسها فى مرآة أو فى الماء حتى تؤكد وجودها فى « أنا » أخرى . والواقع أن الذات تسعى الى الاتصال الروحى « بأنا » أخرى أو « بالأنت » وهى تتلهف الى أن تجد ذاتا أخرى ، صديقا يريد أن يتوحد معها وبذلك يؤكدها ويعجب بها ، ويصغى اليها ، وباختصار أن يعكسها . وهنا تكمن الدلالة العميقة للحب ، والنرجسية باعتبارها انعكاسا موضوعيا للأنا تمثل فشلها فى تحقيق ذلك ، فتظل الذات مستغرقة فى نفسها دون أن تجد لها مخرجا أو مهربا . والواقع أن الموضوع هو العقبة الرئيسية فى سبيل انتقال الذات من وجودها الداخلى ، واتصالها الروحى بذات أخرى ، ومن ثم فقد يبدو أن الموضوعية شكل متطرف من أشكال الذاتية .

واشتياق الانسان الى المعرفة عبارة عن تعبير عن محاولته للتغلب على العزلة . وطلب المعرفة ينطوى على اشتياق للذات الأخرى ، وللآخرين ، وينطوى على امتداد غير عادى من الذات والوعى ، وهو أخيرا انتصار على العالم المنقسم فى المكان والزمان . ولكن ما دامت المعرفة موضوعية فلن يكون ثمة دافع للأنا لأن تخرج من أعمق أغوار عزلتها ، وأى شكل موضوعى — سواء أكان معرفة أم طبيعة أو مجتمعا — لا يستطيع أن يوفق بين المتناقضات الفاجعة الكامنة فى الأنا ، وانما المعرفة القائمة على أساس الاتصال الروحى هى وحدها التى تستطيع أن تقوم بمثل هذا التوفيق . وفى المجتمع تميل المعرفة الى اكتساب اتجاه اجتماعى وطابع كلى يساير تحقيق الحياة الجماعية أكثر مما يساير الاتصال الروحى .

وتستتبع العزلة من الناحية الأنتولوجية الحنين الى الله باعتباره ذاتا ، وباعتباره أنت (١) ، والعامل الالهى هو وحده الذى يستطيع أن ينتصر على العزلة ، وأن يجعل الانسان مدركا للشعور بالألفة والصلة ، ومتوخيا غاية جديرة بوجوده . والله لا يمكن أبدا أن يكون موضوعا ، وحينما تتحول الصلة بينه وبين الانسان الى شىء موضوعى فانه يصبح حينئذ مجرد سلطة خارجية ، والله أساسا « هو » الذى يمكن أن نؤمن به ايمانا مطلقا .. هو الذى يؤلف منه الانسان جزءا لا ينفصل ، وهو الذى يمكن أن يستسلم له الانسان استسلاما كاملا .

(١) cf. Martin Buber : Ich und Du.

ومن الممكن أن نؤكد أن العزلة الانسانية ليســـــت جزءا من الوجود الأنتولوجى ، وانما لا وجود لها الا فى صورة ذاتية ، والوجود الذاتى لا يمكن أن تقترب منه غير ذات على صلة وثيقة بأعماق الوجود • وعلاقة « الأنا » بالعالم ثنائية ، فهى تستلزم من ناحيته شـــعورا بالعزلة ، وبالتجرد من عالم الوجود الحقيقى ، وهى من ناحية أخرى تفسر تاريخ العالم باعتباره جزءا من مصيرها الشخصى (١) ، وهكذا يبدو كل شىء فى لحظة مجردا متباعدا ، وفى لحظة أخرى قد يبدو كل شىء جزءا متكاملا مع تجربة « الأنا » الخاصة •

بيد أن تجربة الأنا الخاصة قد تكون مجردة أيضا • ولهـــذا فان المجتمع والحيــــاة الاجتماعية ليسا وجوديين ، وانما هما موضـــــوعيان مجردان ، ولا يستطيعان أن يقدما حلا لمشكلة العزلة ، ولكن من الحق أن الاحالة المادية للأنا فى حياة المجتمع اليومية ذات أهمية هائلة بالنسبة لمصيرها ، لأنها تثبت وجودها على مستويين : المستوى الداخلى للوجود الحقيقى ، والمستوى الخارجى للعالم الوضيع • ويجب أن يتحقق مصير الأنا فى العالم المفكك بالضرورة فى الحياة الاجتماعية ، والمجتمع كامن فى « الأنا » بمعنى خاص • ويعتقد « كاروس » أن الوعى يرتبط بالجزئى والفردى ، واللاوعى بالعالم ، وما فوق الفـــردى (٢) ، وهذا صحيح اذا أخذ بمعنى أن تاريخ العالم كله ، وتاريخ المجتمع وكل العناصر التى قد تبدو مجردة بعيدة بالنســـــبة للذات الواعية التى لا تكشف أبدا مضـــــمونها جميعه ••• ان ذلك كله كامن فى أعمـــاق « الأنا » اللاواعية •

فاذا صعدت « الأنا » من أعماق الوجـــــود ، واتصلت بالمجتمع الموضوعى ، فلا بد لها أن تبذل كل ما فى وسعها لتحمى نفسها من هذا العدو • وفى الحياة الاجتماعيـــة ، عنـــدما يقوم الانســـان بأدوار لا تعكس ذاته الحقيقية على الاطلاق ، فلابد له من أن يحـــاول الاحتفاظ بتكامل الأنا • وأيا كان مركز الانســـان الاجتمـــاعى ، فانه يخلع على نفسه شخصية معينة ، سواء أكانت شخصية ملك أم أرستقراطى أو بورجوازى ، أو رجل مجتمع ، أو رب أسرة ، أو موظف مدنى ، أو ثائر ، أو فنان ، أو أى شخص آخر • وليست « الأنا » التى تنتسب الى الحياة

---

(١) cf. Berdiaeff, Le sens de l'histoire. Essai d'une philosophie de la destinée humaine.

(٢) cf. Bernoulli, Die Psychologie von Karl Gustav Carus.

الاجتماعية هى « الأنا » الأصيلة ، وهذه هى النغمة الأساسية التى تشيع فى أعمال « تولستوى » الأدبية • ولهذا السبب ، ليس من اليسير كشف « الأنا » الانســانية الحقيقيــة ، وانتزاعها من تيــاب التنكر الاجتماعية (١) • والانسان فى المجتمع ممثل دائما ، وهو يعيش فى مستوى السلوك الذى يفرضه مركزه الاجتماعى (٢) ، فاذا قام بدوره خير قيام ، كان من العسير عليه أن يعيد كشف نفسه الأساسية ، وهكذا نجد أن « أنا » الانسان المسرحية ليست غير صورة أخرى من سور الاحالة الموضوعية • والانسان يعيش فى وقت واحد فى عوالم مختلفة ، ويلعب أدوارا مختلفة ، يحيل نفسه فى كل منها احالة موضــــوعية مختلفة ، ويصور لنا « زمل » هذا الاتجاه تصويرا جيدا ، ولكن يجب أن نتذكر أن شعور الانسان بالعزلة مشروط بالموضوعية التى يجد نفسه فيها ، وبما ينتج من تجريد عن ذاته الحقيقية ، وعن « الأنا » التى تنتسب اليه • وهـــكذا يبدو أن « الأنا » تضع تجريدها الخاص لنفسها •

وتلقى الرومانتيكية ــ كما ظهرت فى تاريخ الفكر الأوروبى ــ ضوءا شديدا على مشكلة العزلة • والحق أن الرومانتيكية تعبير عن العزلة ، وعن الانفصال بين المجالين الموضوعى والذاتى للحياة • وهى تبدأ منذ أن تجردت الأنا من النظام التصاعدى الموضوعى ، ذلك النظام الذى كان له حتى ذلك الحين مظهر الأبدية • فهى نتيجة لانفصام الروح عن نظام تصاعدى موضوعى ، وتجردها عن هذا النظام ، وعن « كون Cosmos القديس « توما الاكوينى » و « دانتى » والأنا الرومانتيكية تحدث «طلاقا» بين الذات والموضوع •• طلاقا لم يكن ثمة محيد عنه برفض الأنا للنظام الموضوعى للأشياء ، وهذا « الانفصام » قد تحقق فعلا بنظام « كوبرنيك » الفلكى ، وفلسفة « ديكارت » ، وكذلك باصلاح « لوثر » • وهو يفترض تطور الأفكار الجديدة فى المجال العلمى والفلسفى والدينى ، فهو اتفاق النظرة العلمية عن الكون مع تفسير جديد لوظيفة الأنا ، ومع كشف فكرة حرية الضمير • ولم تؤكد النتائج الرومانتيكية لهذه الثورة فى الوعى الانسانى نفسها الا فيما بعد • وحينما انفصل العالم الموضوعى عن العالم الذاتى ، وحينما كفت عن أن تكون الكون ذا النظام التصاعدى ، والمركز العضوى ومقر الذات ، بدأ الانســان فى البحث عن مخرج من وحدته

---

(١) يعرض « كارلايل » فى كتابه Sartor resartus فلسفة عجيبة عن الملابس •

(٢) cf. Tarde, Les lois de l'imitation.

وعزلته ، وأخذ يصبو الى الألفة والاتصال الحميم فى نطاق العالم الذاتى ، وبهذه الوسيلة أصبح قادرا على تنمية حياته الوجدانية واثرائها · وكان « الرومانتيكيون » يعتمدون على العالم الذاتى بالنسبة لمشاعرهم الكونية التى ترمى الى الاتحاد بالوجود ، ولم يكن كونهم يؤلف معطيات موضوعية كتلك التى نراها فى كون العصر الوسيط فى الفلسفة المدرسية ، وانما على العكس من ذلك كانت الذاتية المتأصلة فى « الرومانتيكيين » قد دفعتهم الى أن يوحدوا بين الانسان والطبيعة ، بينما عنيت الفلسفة المدرسية دائما بالتمييز بين الاثنين ، فالأنا الرومانتيكية حينما جابهت الشعور المتزايد بالعزلة الانسانية لجأت الى التوحيد بينهما وبين الكون ·

وعلى الرغم من اخفاق الحركة الرومانتيكية فى كشف حل ملائم للمشكلات التى أثارتها ، فقد كانت حدثا بالغ الأهمية فى تحرير « الأنا » من استبداد العالم الموضوعى والاجتماعى قد حررت (الأنا) من أغلال العالم المتناهى ، ومن مكانها المعين فى نظام متصاعد ، وفتحت أمامها آفاقا لا نهائية ·· ولكن على الرغم من أنها فعلت الكثير لتحرير « الأنا » من العالم الموضوعى ـ ولتنبيه قواها الابداعية واستثارة خيالها ، فانها أخفقت ـ ومن هنا كان ضعفها الشديد ـ فى أن تجعلها تشعر بحاجتها الى خلق شخصية لها ·

وهكذا أخفقت الفلسفة الرومانتيكية فى أن تكون ذات نزعة شخصية وأخفقت الفردية الرومانتيكية فى أن تجعل لنفسها شخصية · فالأنا الرومانتيكية تميل الى فقدان ثباتها وأن تتفكك فى اللانهاية الكونية ·

وهكذا طغت الحياة الوجدانية فى شعورها لاول مرة بمتعة النمو الحر الذى لا يعوقه عائق على كل مضمون للأنا ، ووضعت المعرفة وضعا ثانويا بالنسبة للخيال المبدع ·

وقد اتخذت الرومانتيكية أشكالا متعددة فبعضها ممعن فى التفاؤل ويقوم على الاعتقاد ببراءة الطبيعة الانسانية وفى اندماجها بالحياة الكلية وبعضها الآخر ممعن فى التشاؤم من حيث أنه يؤكد عزلة الأنا ، ومصير الانسان التعس التراجيدى أصلا ، ولكن هذا النوع من التشاؤم الرومانتيكى لا يظهر أى ادراك لطبيعة الانسان الآثمة الكامنة فيه · ومظهر آخر من مظاهر « الرومانتيكية » هو تغير الآفاق الذى تقتضيه ، ففى الطفولة تبدو الأماكن المنعزلة كركن أو حجرة أو ممشى أو عربة أو شجرة ، وكأنها تؤلف عالما مستسرا شاسعا ·

وفى وعى البالغ يميل هذا الشعور الى الخفوت والى الاختفاء

ويبدو الكون العظيم نفسه أقل غموضا من الركن المظلم أو الممشى الذى كان يبعث الفزع فى وعى الطفل ، والرومانتيكية تؤكد من جديد وجود السر الكامن فى العالم ، وبذلك تغير من نظرتنا اليه ، ولكن وجهة النظر الرومانتيكية تفتقر الى صفة الدوام ، وهى تساعد على تفكك الشخصية الانسانية فى اللانهاية الكونية ، وفى محيط الحياة العاطفية ، بيد أن الانتصار الحقيقى للأنا على العزلة ينبغى ألا يكون نتيجة لأى اعتماد ذليل على العالم الموضوعى ، أو لأى قبول للذاتية الرومانتيكية ، اذ يجب أن تظفر الأنا بانتصار روحى فى قلب وجودها نفسه ، ويجب أن تؤكد نفسها باعتبارها شخصية قادرة على الاحتفاظ بذاتيتها فى عملية العلو على نفسها ٠

ونستطيع أن نضع أربعة أنـــــواع من العلاقات بين الأنا المتوحدة والبيئة الاجتماعية :

أولا : هناك ذلك النوع الأولى الشائع ، وهو أن الانسان باعتباره حيوانا اجتماعيا لا يشعر بالعزلة ، ففى هذه الحالة تتكيف الأنا تكيفا تاما مع البيئة الاجتماعية ، ويبلغ وعيها الدرجة القصوى من الموضوعية والروح الاجتماعية ، وهذه الأنا قد تجنبت تجربة الانفصام أو العزلة اذ يشعر الانسان وكأنه فى بيته أثناء وجوده فى البيئة الاجتماعية اليومية التى قد يحتل فيها مركزا هاما ٠ ولكن هذا النوع يتألف من أناس لهم غرائز قوية فى التقليد ، ومن قوم يفتقرون الى كل أصالة فى الفكر ، ويقنعون بالعيش عالة على تراث مشترك ، وعلى تقليد قد يكون محافظا أو حرا أو ثوريا على حد سواء ٠

ثانيا : الانسان الذى لم يجرب العزلة ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يبالى بالمجتمع ، فالأنا لديه منسجمة مع البيئة الاجتمـــــاعية والحياة الجماعية ، ولكنه على الرغم من وعيه الاجتماعى لا يكترث اكتراثا ايجابيا بالحياة الاجتماعية أو بمصير قومه ، وهذا النوع من الناس منتشر جدا ، وهو النوع الاول ، يستبعد كل فكرة عن الصراع ، وينتشر انتشارا كبيرا فى عصـــور الاستقرار الاجتمـــاعى نسبيا ٠ أما فى عصـــور ، الانفصام ، والثورة ، فان من الطبيعى أن يجد نفسه فى عسر وحيرة ٠

ثالثا : النوع الذى يشعر بالعزلة ، ولكن ليست لديه أية اهتمامات اجتماعية ، وهذا النوع اما أن يكون متكيفا مع المجتمع تكيفا ضئيلا جدا ، أو غير متكيف معه على الاطلاق ، وهو يعانى من شعور الانقسام ، وفقدان الانسجام الداخلى ، ومثل هذا النوع على الرغم من أنه اجتماعى الى أدنى

درجة ممكنة فانه لا يميل الى الثورة على الحياة الاجتماعية التى تحيط به ، اذ أن مثل هذا الفعل يفترض من ناحيته عاطفة واهتماما اجتماعيا ، ولكنه بدلا من ذلك يظل بمنأى عن كل شيء ، مهتما بالعمل على فصل حياته الروحية وغرائزه الابداعية عن الجو الاجتماعى ، وهذه هى عادة حالة الشاعر الغنائى ، والمفكر المتوحد ، والفنانين المستأصلين . فهؤلاء يعيشون حياتهم الانفصالية تلك فى مجتمعات صغيرة من الحواريين . وهم على كل حال مستعدون استعدادا كافيا للتصالح مع البيئة اذا فرضت عليهم ضرورات الحياة هذا فرضا ، وهم مهيئون لهذا الصلح لأنهم لا يعتنقون مبادىء محددة أو معتقدات معينة . وعلى الرغم من عدم اكتراثهم الفطرى بالمسائل السياسية والاجتماعية فانهم على استعداد لأن يكونوا محافظين أو ثوريين حسبما يقتضى الأمر . وهم ليسوا مكافحين أو مجددين .

رابعا : نوع يشعر بالعزلة واللجتمع فى آن واحد ، وقد يبدو هذا غريبا لاول وهلة ، اذ تتنافر العزلة عادة مع الروح الاجتماعية ، غير أن هذا النوع هو نوع الأنبياء الذى نجد له رمزا خالدا فى أنبياء العهد القديم . ولكن هذا النوع لا يقتصر على الميدان الفلسفى وحده . وانما يضم المبدعين والمجددين والمصلحين وأصحاب الثورات الروحية ، وهذا النوع الذى يتسم بالنبوة فى صراع دائم مع المجتمع الدينى أو الاجتماعى، وقلما يكون فى انسجام مع البيئة الاجتماعية أو الرأى العام .

والواقع أنه دائما عرضة للاضطهاد . وعلى النبى أن يواجه العداء من الكاهن أو رئيس الكهنة باعتباره رمزا للجماعة الدينية . وما دام النبى عرضة للاضطهاد فى أية لحظة فانه يعانى الوحدة فى أقصى حالاتها من التطرف . ومن الصعب أن نعتقد أن هذا النوع الذى يمتاز بالنبوة لم يكن غير مكترث بالمجتمع ، فان العكس هو الصحيح . فالنبى يهتم دائما بمصير قومه أو بالمجتمع وبالتاريخ ، أو بمصيره الشخصى ، ومصير العالم عامة . وهو يستنكر رذائل قومه ومجتمعه ويصدر أحكامه عليهما ، ولكنه لا يفقد اهتمامه بمصيرهما مطلقا . وهو لا يهتم بخلاصه الشخصى وبتجاربه وحالاته الخاصة ، ولكنه يهتم بمملكة الله ، وبكمال الانسان والكون كله .

وهذا النوع يمكن أن نجده خارج المجال الدينى .. فى الحياة الاجتماعية ، وفى الفن ، وفى العلم ، الذى يمكن أن يتخذ أيضا طابع النبوة .

والسمات المميزة التي وضعناها بين هذه الأنواع الأربعة نسبية شأنها في ذلك شأن كل التصنيفات ، ويجب أن تدرك نتائجها بطريقة ديناميكية لا استاتيكية ، والنوعان الأولان في انسجام مع البيئة ، بينما نرى النوعين الآخرين معادين لها . وقد يظل النوع الثوري الاجتماعي من الصف الثالث جامدا بالنسبة للمعارك التي لا تنفصل عن العزلة ، وهو في الوقت نفسه في انسجام مع بيئته ويملك وعيا اجتماعيا كاملا .

وهكذا قد يبدو أن مشكلة العزلة متأصلة في أهم مشكلة من مشكلات الفلسفة وهي مشكلة الأنا وما يتصل بها من مشكلات الشخصية والمجتمع والاتصال الروحي والمعرفة . وفي النهاية تتصل مشكلة العزلة بمشكلة الموت .. فان يموت الانسان هو أن يعاني العزلة المطلقة ، أن يقطع كل علاقة بينه وبين العالم . والموت يقتضي انقطاع مجال كامل لوجوده ، وانتهاء كل العلاقات والصلات .. وباختصار يقتضي العزلة التامة . واذا تكن أن يشارك الانسان في سر الموت ، واذا كان هذا السر ينطوي على علاقة مع الذات الأخرى ومع الآخرين ، فاننا ما كنا لنسمي هذه الحالة بالموت ، لأن الموت انقطاع لكل علاقة ، ونهاية لكل اتصال ، وبلوغ للعزلة المطلقة . فالموت يضع حدا لحديث الانسان مع العالم الموضوعي .

وما زالت مسألة العزلة وهل هي نهائية أو أبدية موضوع الاشكال ، فهل هي لحظة من حياة الانسان والعالم والله ؟ ان هدف الانسان في الحياة يجب أن يضع مثل هذه العلاقات والاتصالات مع الآخرين ومع الكون ومع الله بطريقة تساعده على العلو على العزلة المطلقة للموت ، أو بتعبير أدق ينبغي ألا نفكر في الموت باعتباره فناء الأنا فناء تاما .

ومثل هذا الأمر من أصعب الأمور في تحقيقها ، وعلينا أن نواجه الموت باعتباره لحظة انقطاع الأنا انقطاعا كاملا وتجردها عن العالم الالهي .

والموت ينطوي على مناقضة ، لأن هذا الانقطاع وهذا التجرد نتيجة لاستحالة « الأنا » استحالة مادية في عالم الحياة اليومية الموضوعي الوضيع . والعلاقات التي تتضمنها هذه الحالة تفضي حتما الى الموت . وهكذا تواجهنا مشكلة الأنا في علاقتها بالموضوع من ناحية ، و « الأنت » من ناحية أخرى ، وقصارى القول ، علينا أن نعالج مشكلة الاتصال بين وعي ووعي آخر .

الفصل الثانى

- أنا وأنت ونحن والشيء ـ الأنا والموضوع ـ
- الاتصال بين شعور وشعور آخر

وضع « مارتن بوبر » الفيلسوف الديني اليهـــودى فى كتابه القيم « أنا وأنت » التفرقة الأساسية بين « الأنية » و « الغيرية » و « الشيئية » ٠٠٠ بين الأنا والأنت والشيء ٠ والعلاقة الأولية وفقا لهذا الفيلسوف بين الأنا والأنت هى علاقة بين الانسان والله ، وهذه العلاقة علاقة « حـــوار » و « ديالكتيك » ، فالأنا والأنت يواجه كل منهما الآخر ، والأنت بالنسبة للذات ليست موضوعا أو شيئا ٠ وحينما تتحول الأنت الى موضوع فانها تصبح شيئا ، وهـــذا الشيء فى مصطلح فلسفتى الخاصـــة يكون نتيجة لعمليات الاحالة الموضوعية التى تطمس « الأنت » وتجعل مواجهتها أمرا محالا ٠ والشخص الثالث اما أن يكون « أنت » أو الشيء ٠

و « الأنت » لا يمكن أن تكون موضوعا فى علاقتها بالأنا ، ولكن مامن شيء يمكن أن يتنزه عن عمليات الاحالة الموضـــوعية التى تقتحم الحياة الدينية نفسها ٠ والموضوع مرادف للشيء عند « بوبر » ، وكلما أحيلت الطبيعة والمجتمع احالة موضوعية تعرضا لأن يتحولا الى شيء ، ولكن حالما نواجه « الأنت » ، فان العالم الموضوعى يفسح مكانا للعالم الوجودى ٠ ويعتقد « بوبر » بحق أنه لا وجود حقيقيا للأنا خارج علاقتها بالذات الأخرى أو « بالأنت » ، ولكنه يعتبر أن العلاقة بين الأنا والأنت تقتصر على أن تكون علاقة بين الأنا والله كما ورد ذلك فى « الكتاب المقدس » ، وأبحاثه لا تمتد الى العلاقة بين وعى انسانى ووعى آخر ، بين الأنا والأنت ، وبين كائنين انسانيين ، أو بين العلاقات المختلفة المتضمنة فى حيـــاة البشر ،

كما أنه لا يتعرض لمشكلة الميتافيزيقا الاجتماعية والانسانية ، أى الميتافيزيقا الخاصة « بنحن »

بيد أن وجود « نحن » لا يمكن تجاهله ، كما يجب البحث فى علاقتها بالأنا والأنت والشىء ، وامكان تحويل « نحن » الى « شىء » بعمليات الاحالة الاجتماعية والموضوعية أمر واضح فى تاريخ الكنيسة باعتبارها منظمة اجتماعية ، و « نحن » التى استحالت الى شىء موضوعى مرادفة للجماعة المفروضة على الأنا من الخارج ، ولكن لها مظهرا آخر وهو الاتصال الروحى بالآخرين ، وهو اتصال لا يكون فيه كل شخص شيئا وانما « أنت » ، فالمجتمع هو الشىء ، وليس « نحن » ، واحالته الموضوعية تحيل كل عضو من أعضائه الى موضوع . وفى هذه الحالة يصبحون جيرانا ، لا زملاء أو أصدقاء ، لأن الصديق لا يمكن أن يستحيل موضوعا ، والمجتمع يتألف من أمم وطبقات ، وأحزاب ومواطنين ورؤساء ، ولكنه لا يتألف من « أنا » و « أنت » ، لأن « نحن » الاجتماعية موضوعية ، وهى تجريد من الشخص العينى .

ولكن هناك نوعا من الاتصال الروحى الآخر بين وعى انسانى ووعى آخر يقوم على أساس مشاركتهما فى الـ « نحن » التى لا تمثل الشىء أو الموضوع أو أى معطيات خارجية فى علاقتها بالأنا . و « نحن » مضمون كيفى باطن فى الأنا ، فان كل « أنا » بلا استثناء لا تتصل بالأنت فحسب، ولكن بمجموع البشر ، والفكرة الأنتولوجية الخالصة للكنيسة تقوم على مثل هذه العلاقة ، وأثر هذه الاحالة الموضوعية هو تجريد الكنيسة من مضمونها الوجودى . والوجود يتكشف فى « أنت » و « نحن » كما يتكشف فى الأنا ، ولكنه لا يتكشف مطلقا للشىء . وقد استطاع فرويد (١) رغم سذاجته الفلسفية التى تقترب به من المادية — أن يميز بين « الأنا » والنفس . وهو يرى أن فى كل انسان أساسا لا شخصيا هو النفس التى قد تسيطر على الأنا . و « الناس » عند « هيدجر » يقابلون الشىء عند « بوبر » بمعنى من المعانى ، وهذا الشىء الذى أسميه أنا بالعالم الموضوعى لا يلخص المشكلة الاجتماعية كلها . وعالم هيدجر للوجود الواقعى المحدد Dasein هو الوجود مع ، هو عالم المعية ، ولكنه يختلف عن يسبرز فى أنه لا يبحث أو يوسع من مشكلة علم الاجتماع الميتافيزيقى ، وحتى اذا اعتبرنا أن « نحن » شأنها فى ذلك شأن « الأنت » و « الشىء » ، من

---

(١) cf. Freud, Eassais de Psycho-analyse, III Le Moi et le soi.

المعطيات المباشرة (١) ، فان « الأنا » تبقى الحقيقة الأولية البدائية ، وأنا لا أستطيع أن أقول « أنا » دون أن أؤكد وأضع فى هذه اللحظة « أنت » و « نحن » • وعلى هذا الأساس نرى أن الروح الاجتماعية ما هى الا صفة مكونة لوجود « الأنا » الحميم • ويجب أن نميز تمييزا واضحا بين « أنتا » و « نحن » ، بين الوجودى والموضوعى • « فالأنت » ما هى الا « أنا » أخرى مضمونها الخاص هو « نحن » ، و « اللا أنا » معاد ومضاد للأنا ، وقد تجد « الأنا » قدرا من التبادل مع اللا أنا ، مع النصف الآخر للوجود ، ولكن هذا التبادل ليس هو كثرة الناس الآخرين ، لأن « اللا أنا » بوصفه موضوعا يستبعد الأنا •

ولم تلتفت الفلسفة حتى وقت قريب التفاتا كافيا الى العلاقة بين الأنا والأنت و « نحن » ، فقد قنعت بالبحث فى حقيقة الأنا الأخرى ، ووسائل ادراكها • بيد أن هذه الحقيقة وقدرتنا على ادراكها يمكن أن توضعا موضع التساؤل ، فادراكنا وفقا للنظرية القديمة مقصور على الجوانب الفزيائية من حضور الآخر ، ووجود الروح لا يمكن استنتاجه الا عن طريق المماثلة ، وهذه النظرية مخطئة تماما ، ويجب رفضها رفضا قاطعا • والواقع أن معرفتنا بجسم الآخر محدودة جدا ، ولا نستطيع أن ندرك هذا الجسم الا ادراكا سطحيا ، ولا يمكن أن تكون لدينا فكرة عما يجرى داخله ، غير أن معرفتنا بحياة الآخرين النفسية أعظم بصورة لا متناهية ، ونحن أقدر على ادراكها والنفاذ مباشرة اليها ، والادراك الحدسى لحياة الآخر العقلية ظاهرة لا يمكن انكارها وهى عرضة للحدوث فحسب عندما ننظر الى الكائن أو الوجود باعتباره « أنا » أو « أنت » لا باعتباره موضوعا ، ذلك أن « الأنا » حينما تواجه بموضوع ما تظل وحيدة مكتفية بذاتها ، ولكنها فى حضور « أنا » أخرى هى « أنت » أيضا ، فانها تنتقل من عزلتها فى محاولة لتحقيق الاتصال الروحى ، والادراك الحدسى للحياة الروحية لأنا أخرى يعادل الاتصال الروحى بها •

ويمكن أن تكون رؤية ملامح شخص آخر ، والتعبير الذى نلمحه فى عينيه ، كشفا روحيا ، فان العيون والحركات والعبارات كل هذا أبلغ كثيرا فى التعبير عن روح الانسان من جسمه •

ونستطيع أن نستمد معرفتنا وادراكنا لحياة شخص آخر لا مما قد

---

(١) cf. S. Fraux, Les Foudements spirituels de la Societé.

يبوح به هذا الشخص ، ولكن مما قد يحاول أن يخفيه عن نفسه · وهذا المنهج الأخير في اكتساب المعرفة عن الآخرين قد تعرض لكثير من النقد نتيجة لاكتشاف اللاوعى · فتحليل « فرويد » النفسى يثبت بلا شك امكان ادراك ماهية الحياة النفسية متميزة عن الحياة الفسيولوجية ، اذ أن تعريف « فرويد » لما يسميه « بالليبيدو » يعزو للحياة النفسية أصلا روحيا أكثر من أن يعزو اليها أصلا عضويا ، ولايقل عن ذلك مجانبة للصواب اعتقادنا بأن المنهج التحليلى هو المنهج الوحيد الذى يمكن أن يلقى ضوءا حقيقيا على حياة الانسان الباطنة ، أو بعبارة أخرى على « الأنا » الحقيقية ، وان أى محاولة لجعل « الأنا » موضوعا للمعرفة لايساعد الا على عزلها عن أعماقها الخاصة ، ومهما يكن من أمر فانه توجد طريقة مباشرة لادراك حياة الآخر الروحية ، وهى الطريقة الوجدانية التعاطفية التى تنشأ عن الحب ، ولكن سر « الأنا » يظل قائما ، يقاوم كل المحاولات لحله ، ومن الخطأ على كل حال أن نقول انه من المستحيل تمام الاستحالة ادراك حياة الأنا الروحية (١) ·

ولم تلق مشكلة الاتصال بين وعى وآخر الا القليل من الالتفات رغم أنها من المشكلات الأساسية فى الفلسفة (٢) · **ويجب أن نميز تمييزا واضحا بين الاتصال والمشاركة** · فالمشاركة شىء واقعى · وهى نفاذ الى الحقيقة الأولية ، بينما الاتصال رمزى فى أغلبه ، فهو يستخدم الرمزية ، أو العلاقات الخارجية ليشير الى حقيقة داخلية · ورمزية الاتصال هى ذلك الجزء من الحياة الداخلية الذى يتبدى فى العالم الموضوعى المفكك · وهذه الرمزية التى تساعد على اقامة الاتصال كما تشير الى حالة من التفكك تتخلل معرفتنا وفننا ، ومعرفتنا بحياة الآخرين الروحية تكتسب غالبا خلال العلامات والرموز ، وهى وسيلة للاتصال تمنع أى حل حقيقى للغز الوجود وذلك بمساعدتها على اخفاء حالة التفكك المستقرة فى الأساس ، ومن ثم ، فليس لهذه الاتصالات غير قيمة رمزية فحسب ، وهذا ينطبق على العادات والمعاملات وعلى التقليد والتأدب والمجاملة ، وعلى كل أشكال الاتصال التى تتألف منها الحياة الاجتماعية ، ولكنها لاتفترض أية درجة من الاتصال الروحى بين الأشخاص ، فالعلاقات المالية ــ وهى علاقات موضوعية الى حد ما ــ تتحكم فيها رموز ذات طابع اصطلاحى أساسا · بيد أن « الأنا » لاتستطيع

---

(١) cf. Max picard, Das Menschengesicht.

(٢) يعالج يسبرز هذه المشكلة فى المجلد الثانى من كتابه : Philosophie Existenzerhellung

أن تقنع بالاتصال بالآخرين عن طريق المجتمع أو الدولة ، أو عن طريق المنظمات والعلامات المتواضع عليهـا ، وانما تصبو الى الاتصال الروحى بالآخرين ، و:لى أن تحقق الوجود الحقيقى بالعلو عن نفسـها · ونطغى الاشكال المتعارف عليها للاتصال الروحى على الأنا فى العالم الموضوعى ، بينما حنيننا الى الاتصال الروحى يشير الى الطريق المؤدية الى العالم فوق الطبيعى للوجود الحقيقى · ورمزية الاتصال تختلف تبعا لدرجة الاحالة الموضوعية ·

والاتصال الروحى يقتضى التبادل ، اذ لا يمكن أن يتم مطلقا من طرف واحد ، ولا وجود لاتصـال روحى فى الحب المرفوض ، وفى حالة الاتصال الروحى تكون « الأنا » و « الأنت » فاعلتين على حد سـواء ، بينما من الممكن ألا يكون ثمة تبـادل فى رمزية الاتصـال الموضوعى · ومن الضرورى لكى يتحقق الاتصال الروحى فى المسـتوى الوجـودى أن تتصل « الأنا » بأنا أخرى ، هى « الأنت » ·· « أنت » فاعلة · وتظل الأنا منعزلة مادامت لم تستطع أن تتصل الا بالموضوع وحده · ولايمكن القضاء على وحدتهـا الا بالاتصـال بين الشخصـيات ·· بين « الأنا » و « الأنت » فى أشد أغوار الـ « نحن » عمقا · وللشعور الانســانى أســاس اجتماعى ما دام يضـع وجود الآخرين وعلاقاتهم ، أى يقتضى الأخوة الانسانية ، ولكن الوعى الانسانى ـ كما هى الحال غالبا ـ يمكن أن يكون عقبة أكثر من أن يكون وسيلة للاتصال الروحى الحقيقى حينما يتخذ شكلا اجتماعيا قائمـا على الاتصـال الرمزى · ووعى الانسـان ـ كما يتم التعبير عنه فى الأشكال الاجتماعية ـ يكون تحت رحمة الحياة الجماعية اليومية · بيد أن الوجد الصوفى يستطيع من ناحية أخرى أن يتخطى جميع الحدود والعقبات الموجودة فى سبيل الاتصال الروحى بين وعى وآخر · وقد يحدث أن يحاول الانسان فى سبيل اطفاء هذا الشوق الى الاتصال الروحى أن يشبع وعيـه فيتجاوز الحدود والمعايير الخاصة بالمجتمع اليومى بقوة أصـالته المبدعة ونشـوته الشخصـية المتسامية · والفكر الشخصى الأصيل الذى هو أقرب الأشـياء للمنبع الأصيل للحياة لايفسد الاتصـال الروحى ، وانما يفسـده الخضـوع للمجتمع اليومى ·· المجتمع الموضوعى · والفـكر الشخصى لايستنكر الاتصال الروحى ، وانما يستنكر النزعة الى التعميم · ويرى « يسبرز » بحق أن « الأنا » لايمكن أن توجد دون اتصال بالآخرين ، ودون صراع ديالكتيكى · وتحويل العالم الى مجرد موضوع للمعرفة يستلزم بالضرورة

الاحالة الموضوعية ، أى نسق من الاتصالات القائمة على السلطة الخارجية والمبادىء العامة التى تستبعد الأمل فى تحقيق اتصال داخلى .

وعملية الاحالة الموضوعية تقتضى عملية احالة عقلية ، بيد أن الأنا تنعكس انعكاسا صادقا فى الحياة الوجدانية ، بينما المعرفة تكون فى أقل حالاتها الموضوعية ، وتكون العواطف لم تخضع بعد لعملية الاحالة الاجتماعية الى حد طمس حياة « الأنا » الداخلية . ويمهد الاتصال الروحى الحميم بين « أنا » و « آخرى » لنوع وجدانى من المعرفة . وخطأ أن نفكر فى أن الاتصال الروحى لايمكن الا أن يكون علاقة انسانية فحسب ، أى صفة مقصورة على الصداقة الانسانية ، فهى شائعة فى عالم الحيوان والنبات والجماد التى تتمتع جميعا بحياة داخلية خاصة بها. ويستطيع المرء أن يتصل مثل القديس « فرانسيس » بمظاهر الطبيعة المختلفة كالمحيطات والجبال والغابات والحقول والأنهار ، ومن الأمثلة الواضحة على هذا النوع من الاتصال الوجدانى تلك العلاقة التى تقوم بين الانسان وصديق حميم هو الكلب ، وهذه العلاقة تجعل الانسان على وفاق مع الطبيعة الموضوعية المعادية ، وبذلك تحيل الموضوع الى ذات .. الى علاقة من الألفة والود ، ومثل هذه العلاقة لها قيمة ميتافيزيقية حقيقية ما دامت مقاومة الموضوع قد أمكن التغلب عليها ، وأمكن تحقيق الوجود الأصيل .

ويحاول « فرويد » فى نظريته عن « النرجسية » أن يوحد بين الأنا وموضوع « الليبيدو » الخاص بها ، والنرجسية علامة على « أنا » منقسمة .. على « أنا » أصبحت موضوع نفسها ، أى جزءا من العالم الموضوعى ، وهذا الانقسام يمكن التغلب عليه حينما تسعى « الأنا » الى أن توحد نفسها مع « أنا » أخرى . والنرجسية ظاهرة غالبا ما نلتقى بها فى مجال المعرفة . ويرى « فرويد » أن أعمق غرائز الانسان هى الموت . ومن الواضح أنه لا يدرك سر الاتصال الروحى ، وانتقال « الأنا » الى « أنت » و « نحن » . والغريزة الجنسية لاتفضى فى حد ذاتها الى الاتصال الروحى، الى توحيد نفسها مع « أنا » أخرى ، اذ تحتوى على عنصر شيطانى هدام ، وتميلنا الى استعبادنا للعالم الموضوعى ، ومن هنا كان اقتناع فرويد بأن غريزة الموت تلى فى الأهمية الغريزة الجنسية دليلا على أنه لم يعرف شيئا خلاف ذلك .

والاتصال الروحى المتوحد الذى يعلو فوق المستوى الشخصى ، وانتفاء الشخصية ، هما من وسائل الهروب من الأثر القاهر المشتت

للحياة اليومية ولحل مشكلة العزلة ، وفي الأديـان القديمة ـ كالديانة الديونوزيسية مثلا ـ كان القناع يرمز لانتصـار الانسـان على العزلة ومشاركته في السر الالهي ، بيد أن هذا لا يحل مشكلة الاتصـال بين « الأنـا » أو الشخصـية وبين غيرها من « الأنات » و « الشخصيات » ، اذ يكمن الحل في الحب ‥ الحب العاشـق الصادق ٠ فالحب يتصل اتصالا وثيقا بالشخصية ، وهو الوسـيلة التي تخرج بهـا « الأنا » من اكتفائها الذاتي في طلبها « لأنا أخرى » في مقـابل النفس الجمـاعية اللاشخصية ٠ غير أن « الأنا » شخصية في طـور الجنين ، ولكي تصبح شخصية فعلا ، فلابد أن تتصل « بالأنا » أو « النحن » ، وهذا الاتصال الروحي بين الشخصيات التي تتوق الى الانعكاس بعضها في البعض الآخر هـو الذي يؤكد الشخصية ، وما تحفظ « الأنا » الا تعبير عن عزلتهـا وانعزالها ، وهـذه هي وسيلتها لحمـاية نفسها من العـالم الاجتمـاعي الموضوعي ، والحاجة الأساسية للأنا هي الاتصال الروحي « بالأنت » ، ولكنها في خطر دائم من مواجهة الموضـوع ، ونتيجة لهذا فانها تتخذ موقفا دفاعيا تحصن به شعورها من الاتصال الفظ بالأشياء ، وهكذا على الرغم من أن عزلتها التي تفرضها على نفسها تعد مرحلة في تطور الشخصية نحو الوعي الذاتي ، الا أنها مرحـلة يجب العلو عليهـا ٠ والاحـالة الموضوعية وتشييد عالم لا شخصي لا يمكن أن يكون وسيلة لتحقيق هذه الغاية ٠ ومن ثم ، يتحتم علينا أن نبحث مشـكلة الشخصية بحثا أكثر تفصـيلا ٠

الفصل الثالث

- العزلة والمعرفة
- العلو
- المعرفة والاتصال الروحي
- العزلة والجنس
- العزلة والدين

ليس من شك أن طلب المعرفة وسيلة من وسائل التغلب على العزلة ، اذ تدفعنا المعرفة الى الانصراف عن عزلتنا المركزة في ذواتنا ، وتنقلنا الى مكان آخر وزمان آخر حيث نتصل « بالذات الأخرى » • فهي فرار من العزلة ، ومخرج لمعرفة « أنا » أخرى •• أعني العالم الالهي • وعن طريق المعرفة يخرج الانسان من توحده ، ويتوقف عن الحياة في نفسه ولنفسه • وليس من الممكن أن نتجاهل الجانب الاجتماعي للمعرفة ، وأنها تساعد على اقامة الاتصال بين الناس ، فان كل محمولاتها وكل منطقها جماعي ، وجهازها المنطقي من تصورات ولغة ومعايير وقوانين •• كلها اجتماعية (١) • واللغة هي أقوى الأدوات لتكوين المجتمع ، واقامة الاتصال بين الناس ، ولكنها ترتبط أيضا بالفكر ، وبتكوين الأفكار التي لا غنى عنها للاتصال العقلي بين الناس • وقد يكون للأسماء تأثير السحر الاجتماعي (٢) • والنتائج العملية للمعرفة تتوقف على درجة الاتصال بين الناس ، وعلى طوائفهم الاجتماعية، وعلى تعاونهم المثابر ، وبكلمة واحدة على الطريقة التي يحاربون بها

---

(١) حول هذه الوجهة من النظر نجد آراء صائبة عند رجال الاجتماع من أمثال « دوركيم » و « ليفي ــ برول » •

(٢) عند « جوندولف » Gundolf الكثير مما يقال عن المضمون السحري لاسم « قيصر » ، انظر كتابه « قيصر » Caesar .

العزلة ، وهذه الحقائق تثير تلك المشكلة المعقدة الخاصة بالعلاقة بين العزلة والمعرفة ·

ولكن كون المعرفة اجتماعية وتساعد على الاتصال بين الناس لايستخلص منه أنها تيسر الاتصال الروحي الكامل وتعلو على العزلة ، وكلمتا اجتماعي وموضوعي مترادفتان ، والموضوع يطمس السر الكامن وراء الوجود ، وفهم هذا السر هو وحده الذي يحقق الاتصال الروحي ، ويتيح للانسان الانتصار على العزلة · وعلى هذا يمكن أن نعالج مشكلة المعرفة بطريقتين : فاما أن نعالجها من وجهة نظر المجتمع الموضوعي ، واما نعالجها من وجهة نظر الاتصال الروحي ، والوجود الداخلي ، والالفة مع الأنت · والطريقة الأخيرة هي وحدها القادرة على التغلب على العزلة · وهناك جانبان للمعرفة · جانب يشمل العلاقة بين الذات العارفة والوجود ، والجانب الآخر يشمل العلاقات بين الذات العارفة و « الأنات » الأخرى ، أى عالم الكثرة من الأشخاص والمجتمع · وفي الحالة الأولى تحل مشكلة العزلة بمشاركة الذات العارفة في سر الوجود ، وفى الحالة الثانية لا تنجح العمليات الاجتماعية الا فى احالة الانسان احالة موضوعية ، وفي افساد حساسية الأنا ووعيها ، أى أنها لا تحقق غير نتائج سطحية ·

ولا يحدث الاتصال الروحي الحقيقي ، والانتصار الحقيقي على العزلة الا عندما تتوحد « الأنا » مع ال « أنت » في حالة الحب والصداقة · وهذا صحيح أيضا بالنسبة للمعرفة ، واتصال « الأنا » بالموضوع أو المجتمع ليس كافيا للقضاء على العزلة ، فلا بد لها اذن من الاتصال بال « أنت » أو بنحن · ولما كانت المعرفة تهتم أساسا بما هو عام ومجرد وكلي ، فانها تميل الى تجاهل الفرد والفريد والشخصي · ولكن عندما يتم اتحاد الأنا بال « أنت » فى الاتصال الروحي ، فان النتائج الكلية لهذا الاتصال تكتسب صحة أعظم لأنها قائمة بالذات على ما هو فردي وفريد وشخصي · ويمكن أن نلتمس التوكيد الحقيقي للفردية فى كل ما هو كلي وعيني ، لا فى كل ما هو عام ومجرد ، كما يمكن حقا أن نتغلب على العزلة عندما يسيطر الكلي والعام الجزئي والمفرد ، ولكن هذا لايتم الا على حساب الكبت الكلي « للأنا » ، ويتبع ذلك كبت «الأنت» · غير أن المعرفة تتعلق أصلا فى الفلسفة الوجودية بالأنا والأنت ، فهى « شخصية » في جوهرها ، والحق ، أنه من المهم جدا ألا نفرق العزلة فى التعميم اللاشخصى ، بل علينا أن نعلو عليها بواسطة الشخصية · وتستطيع المعرفة بتحرير نفسها من نير المجتمع والجماعة المنطقية والاجتماعية ، أن تعلو على المنطق ·

والانتصار على العزلة معناه العلو على « الانـا » فى مجـال الحياة العقلية والوجدانية .. بيد أن « الأنا » تسـتطيع أن تسـلك طريقين مختلفين للعلو على نفسها : بأن تتوحد مع موضـوع ما أو مبـدأ عام ، أو بأن تدخل فى اتصـال روحى مع ال « أنت » . وليس من شـك أن هناك قيمة ايجابية فى الفعل الذى تقوم به « الأنا » للاندماج فى العالم الموضوعى فى عملية انشـاء المجتمع أو اقامة المبادىء العامة والتصورات اللازمة للاتصال ، غير أن هذا العالم من العلو عالم منحط مفكك محدود . وأنوار « اللوغوس » تنعكس حتى فى المبـدأ العـام الكامن فى المعـرفة الموضوعية ، غير أن هـذا الانعكاس ليس أكثر من ومضة فى عالم صفيق تستعبد فيه « الأنا » الانسانية . وهكذا نرى أن مشكلة المعرفة غنية بالمتناقضات كما يبدو ذلك فى مشـكلة الاتصـال الروحى والزمان والشخصية . وتنجح العمليات الموضوعية فى تحقيق توافق سطحى لهذه المتناقضات . والواقع أن تقدم المعرفة الموضوعية يساعد على مضاعفة هذه المتناقضـات ، وفكرة الله هى الحل الوحيـد الذى يمـكن أن يفض هذه المتناقضات غير المحتملة جميعا ، والله وفقا لتعريف نيقولا Nicolas of Cuse البارع « ملتقى المتناقضات » .

وطبيعة المعرفة أشـبه بطبيعة العـلاقة بين الزوج والزوجة ، فهى تفترض الثنائية ، ولا يمكن أن تكون نتاجا للموضوع وحده أو الذات وحدها ، ولهذا السبب ، ليس من الممكن التغلب على العزلة الا بفعـل ادراكى يقوم على الحب الصادق ، اذ لا وجود لاتحاد حقيقى مع العالم ، بل يكون الاتحاد الحقيقى « بانا » أخـرى ، « بأنت » ، وهذه الطبيعة المزدوجة ذات جانبين : الهى وانسانى . أما العمليات الموضوعية فليس لها من أثر الا استبعاد هذين العنصرين وأن تسـتبدل بهما المبـادىء اللاشخصية العامة . وتتألف الصعوبة الكامنة فى المعرفة فى العلو على هذه الحالة اللاشخصية العامة حتى يمكن تحقيق هذا الاتحاد التزاوجى بين الشخصيات . ولكن قد يحدث أن تفشل « الأنا » فى سعيها وراء المعرفة — فى الانتصـار على العزلة ، فتجد نفسها مرغمة على البحث عن الاتحاد بطرق أخرى . والمعرفة التى أقصدها لا تشمل المعرفة الأكاديمية عند العلماء والفلاسفة فحسب ، بل تجربة حياة الاتصال اليومية ، وهى الحياة التى تتعرض خاصة لطغيان المبادىء العامة والتقليد الاجتماعى .

والجنس من الأسباب الرئيسية للعزلة الانسانية ، والانسان كائن

جنسي ، أي أنه نصف كائن (١) منقسم وناقص يسعى الى أن يكون كاملا · والجنس يحدث انقساما عميقا في « الأنا » التي هي بطبيعتها ثنائية الجنس ، فهي ذكر أو أنثى · وهكذا نرى أن محاولة الانسان في التغلب على العزلة عن طريق الاتحاد الروحي هي أساسا محاولة للتغلب على العزلة التي يسببها الجنس لتحقيق الاتحاد بالتكامل الجنسي. ووجود الجنس يقتضي الانفصال والحاجة والشوق والرغبة في أن يجد المرء نفسه في الآخر · بيد أن الاتحاد الجسدي للجنسين ـ وهو الذي ينهي الشهوة الجنسية ـ ليس في حد ذاته كافيا للقضاء على العزلة ، بل انه على العكس من ذلك قد يزيد من شدة شعور الانسان بعزلته ·

ومن نتائج الاتحاد الجنسي أنه قد يساعد على اندفاع « الأنا » في العالم الموضوعي ، وذلك لأن الجنس ظاهرة طبيعية موجودة في العالم الموضوعي، والزواج وتكوين الأسرة من نتائجها الاجتماعية ، والجنس باعتباره ظاهرة بيولوجية واجتماعية له طابع موضوعي ، ومن ثم فهو عاجز عن الانتصار على العزلة انتصارا كاملا ، وقد يكون الاتحاد البيولوجي للجنسين وتكوين الأسرة انتصارا وتخفيفا من الشعور بالعزلة الى درجة ما، ولكنهما لايستطيعان القضاء على العزلة قضاء مبرما ، وثمة عنصر « شيطاني » في الكبت كما هي الحال في اشباع الشهوات الجنسية ، وهذه « الشيطنة » تجعل من النزعة الجنسية شيئا مميتا هداما ·

والحب والصداقة هما أمل الانسان الوحيد في الانتصار على العزلة والحب حقا هو أفضل الوسائل لبلوغ هذه النهاية لأنه يجعل « الأنا » في اتصال مع « الذات الأخرى » مع « أنا » أخرى يمكن أن تنعكس فيها انعكاسا صادقا ، وهذا هو الاتصال الروحي بين شخصية أخرى · والحب اللاشخصي الذي لا ينحصر في صورة فردية معينة ليس جديرا بأن نسميه حبا · وقد تحدث « روزانوف » عن هذا النوع من الحب وسماه « الحب الزجاجي » glass love ، وهو في الغالب نوع مقلوب من الحب المسيحي ، والصداقة لها أيضا أساس شخصي عاشق ، والشخصية والحب يرتبطان ارتباطا وثيقا ، ذلك أن الحب يحيل الأنا الى شخصية ، والحب وحده هو الذي يستطيع أن يحقق الاندماج الكامل مع كائن آخر ، هذا الاندماج الذي يعلو على العزلة · وطلب المعرفة لايمكن أن يحقق ذلك الا اذا كان ملهما بالحب · وقد يتجلى المظهر الشيطاني الممزق للحياة الجنسية في الحب أيضا ، اذ تميل الاحالة المادية للوجود

---

(١) الأصل الرمزي لكلمة جنس Sex معناه أيضا نصف half

الانساني في العالم الموضوعي الى أن تجعل من الحب تجربة فاجعة فانية ۰ والعالم الموضوعي أي العالم البيولوجي والاجتماعي – لايمكن أن يهضم فكرة الحب الحقيقي واحتقاره للقوانين الطبيعية والاجتماعية على السواء . فان هذا الحب لايعنى الا بالنظام الذى يعلو فوق الطبيعي حيث تختفى العزلة ، وهذا يفسر لنا علاقته الوثيقة بالموت ۰

وها نحن أولاء نلتقي بالثنائية مرة أخرى ، فالاتصال الجنسي يمكن أن يقع داخل اطار المجتمع والنظم الاجتماعية ، ولكنه عاجز عن تحقيق الاتصال الروحي الحقيقي عجزه عن القضاء على العزلة ۰ وقد يتحد الجنسان في اتصال عاشق يسمو على المجتمع ، وحينئذ يستطيعان التغلب على العزلة ۰ وأيا كان الأمر فان الاتحاد الجنسي فى العالم الاجتماعي الموضوعي تمهيد لمصير فاجع ، لتحالف غامض مع الموت ۰ والثنائية لا يمكن تجاوزها اذا بقى المرء في حدود العالم الطبيعي ، ومع ذلك فهى تشمل مبدأ العلو الذى بدونه لايمكن تحقيق الحياة الحقيقية أو الهروب من حدود عالم محصور ۰ والعلو هو الماهية الحقيقية للحب ، والانسان مدفوع نحوه بشعوره الحاد بالعزلة فى عالم بارد من الأشياء ، وبحاجته الى الاتصال الروحى « بالذات الأخرى » ۰ غير أن الجنس ينطوى على سر ميتافيزيقي الى درجة أنه حتى فى أسمى درجات العاطفة – مثل العاطفة التى نلمسها فى حب جارف كحب تريستان وايزولدا – يخفق فى القضاء التام على الشعور بالحنين والعزلة الجنسية ، ذلك أن عنصرا شيطانيا من العداء يظل باقيا بين المحبين ۰ وهكذا يمكن أن ننظر الى الانتصار النهائي على العزلة بأنه تحقق لصورة الجنس الواحد الكامل ، بيد أن هذا بدوره يقتضى تغيير الطبيعة ، فمن الحق اذن أن نقول ان مشكلة العزلة يكون الشعور بها حادا فى نطاق الجنس ۰

والشيوعية تستبعد هذه المشكلة بأن تجعل « الأنا » و « الجماعة » شيئا واحدا ، وبأن تستبدل بالوعي الشخصي وعيا جماعيا ۰ ويحدد وجود الأنا تحديدا موضوعيا فى عملية البناء الاجتماعي ، ومن ثم كانت الأهمية التى تخلعها الشيوعية على تحسين النسل والى المظاهر الآلية والتكنيكية للجنس ، وقصارى القول أنها تنكر الحب الشخصى انكارا مطلقا ، ويهدف مثل هذا النظام فى التربية الى خنق الحنين الجنسي وما ينطوى عليه من شعور بالعزلة ، ويقدم الجانب العاطفى من الحياة الانسانية قربانا على مذبح الجوانب الاقتصادية والفنية ، ونلمس هذا الاتجاه نفسه واضحا في مذهب الألمان فى السلالة الجنسية الذى يحاول

أن يحل مشكلة وجودية فى أساسها وفوق اجتماعية حلا موضــوعيا . غير أن ذلك ليس شيئا جديدا ، فان هذا الانكار نفسه للحب الشخصى ، وهذا التصور ذاته للحياة الجنســـية منبث فى بعض تعليمات « دكاترة الكنيسة » . وللحياة الجنسية جانبان أساسيان . **أولا :** أن تكون جزءا من وجود « الأنا » الداخلى ، والمصير الانسانى والشخصية الانســانية . ولكنهــا تظــل فى صراع فاجــع مع عالم المجتمع والأسرة ، هذا العــالم الموضوعى العدائى ، **ثانيا :** أنها تقوم على أساس دافع من ناحية السـلالة يدفعها الى اتخاذ أشكال موضوعية واجتماعيــة ، وهذا ينطبق أيضا على ارادة القوة التى وان كانت تتصل بمصير الانسان الخاص اتصالا وثيقا . فان آثرها يدفعه الى الغوص فى العالم الاجتماعى الموضوعى . ولا ينبسط حكم القوة والسلطان الا على العالم الموضوعى ، ولا يستطيع الانتصــار على العزلة ، ومن ثم فان مصير انســــان مثل « قيصر » أو « نابليون » فاجع بالضرورة .

والدين معناه قيام رابطة ما ، ومن الممكن تعريفـــه بأنه محاولة للتغلب على العزلة ، والى تحرير الأنا من انعزالها ، والى تحقيق الاتصال الروحى الحميم ، وماهيته الخاصـــة تربطــه بسر الوجود ، وبالوجود نفسه . غير أن الله هو وحده القادر على قهر العزلة ، والدين يستتبع علاقة ما ، وهو باعتباره كذلك لايمكن الا أن يكون ثانويا عابرا ، أما العلو والامتلاء والغاية من الوجود فلا تتحقق جميعا الا فى الله . وثمة اتجاه الى تجاهل هذه الحقيقة وهى أن الله نفسه هو الاعتبار الأول ، وأن الدين قد يكون عقبة فى سبيل الاتصال بالله (١) ، ولا تخلو صــلات الانسان بالله كما يتضح ذلك تاريخيا فى الدين من عنصر معين من الموضوعية . وحينما يصبح الدين مجرد ظاهرة اجتماعية موضــــوعية فان الشعور بالعزلة لا يمكن العلو عليه من الناحية الانتولوجية ، فاذا خفت حدة هذا الشعور فذلك راجع الى دخول « الأنا » فى العالم الموضوعى والمجتمع ، حتى وان سمى هذا العالم بالكنيسة . ويمكن أن يتم العلو اذا كانت العلاقة بين « الأنا » والعالم الالهى ضاربة بجذورها فى الحيــاة الداخليــــة . فى الكنيسة باعتبارها اتصـــالا روحيا لا بوصفها مجتمعا . ويتبع ذلك أن يظل تأكيدنا للثنائية الكامنــة أو لأى تقابل بين الروح والطبيعة ، بين الحرية والضرورة ، بين الوجود أو الحياة الأولى الموضوعية ، يظل

---

(١) وهذا ما لاحظه بوضوح « كارل بارت » وهذا الجانب الايجابى من لاهوته ، وهو أكثر اقناعا فى كتابه « رسائل رومانية » Römerbrief منه فى فلسفته القطعية dogmatic

هذا التأكيد للثنائية صادقا عن الدين وعن المعرفة والحياة الجنسية ·
ولا ريب أن الدين نظام اجتماعي ، وانه شيء ثانوي وموضوعي او هو اسقاط للحياة الداخلية في العالم الطبيعي · بيد ان الدين قد يكون وحيا أيضا ، وما صوت الله الا تجسيد له ، وتحقق أولى مستقل عن العالم الاجتماعي والموضوعي (١) · وحتى في هذه الحالة لا يلزم أن يكون الدين حادثة فردية أو امتيازا مقصورا على عدد معين من الأرواح المنعزلة ، وانما على العكس من ذلك نجد أن الدين لايربط أو يوحد بين الانسان والله فحسب ، ولكنه رابطة أساسية · بين الانسان وبني جنسه أيضا ، فهو اجتماع واتصال روحي في آن واحد · وهذا الاتحاد يتم في مستوى أعلى من الطبيعة حيث يكون كل انسان ــ والله نفسه ــ « أنت » لا موضوعا · ويتمثل سر المسيحية في علو « الأنا » في المسيح ·· في الانسان الالهي ، وفي طبيعته المزدوجة الانسانية الالهية معا ·· وفي جسد المسيح · والانتصار على العزلة يتطلب أكثر من مجرد الاعتناق الصوري للايمان المسيحي ، أو الانضمام الى عضوية الكنيسة ، بل انه يتطلب أكثر من مجرد العلو السطحي ، ومثل هذه المسيحية الاجتماعية الخالصة لايمكن أن تصل الى أكثر من تصور تقليدي رمزي زائف للحب فالحب الصادق اذن بوصفه أعلى ذروة في الحياة يظل الوسيلة الفعالة الوحيدة للعلو على العزلة ·

وثمة درجة من الموضوعية تكمن في أي اعتناق صوري خالص للاعتراف المسيحي ، والنفاذ الى الموضوع لايحرر الأنا من شعورها بالعزلة ، لأنه لايمكن أن يتم اتحاد أنتولوجي حقيقي بين الأنا والموضوع، ومن ثم فمن الممكن معاناة شعور مؤلم محزن من العزلة داخل قلب الكنيسة نفسها · وقد يشعر الإنسان أنه وحيد وحدة لامتناهية وسط زملائه من المتدينين أكثر مما يشعر بهنا بين أناس يختلفون عنه اختلافا تاما في العقائد والمشارب ، وقد تكون علاقته بهؤلاء الزملاء من نوع موضوعي صرف ، وهذه حالة فاجعة محزنة ، كما أنها تثبت وجود الثنائية الأساسية في الحياة الدينية ، وزيادة الروحانية قد تزيد من خطورة الشعور بالعزلة ، فربما صاحبها انقطاع تام لعلاقات الانسان الاجتماعية في العالم الموضوعي ، بيد أنه لا سبيل هناك لاجتناب هذه

---

(١) راجع كتاب برجسون الذى ذكرناه آنفا ،ففيه فكرة مشابهة لفكرتي الرئيسية التي تضمنها كتابي « مصير الانسان » The Destiny of Man

الانقطاعات رغم ما قد تسببه من ألم ما دام الانســـان قد سلك سبيل التقدم الروحى ، ذلك أنــه لا يمكن العلو على العزلة الا فى المســـتوى الروحى ، وفى التجربة الصوفية وحدها حيث تشارك الأشياء جميعا فى « الأنا » وتشارك « الأنا » فى الأشياء جميعا (١) • وهذا السبيل يتعارض على خط مستقيم مع الموضوعية التى لا تحقق الاتصال الا بين الأشياء الخارجية المجردة فحسب • والرمزية المسيحية هى فى حد ذاتها اشارة الى أن وسائلها فى الاتصال وعلاقاتها قد تكون تقليدية ولفظية وخطابية ، والواقع أن حياة المجتمع كلها قائمة على أساس خطابى حرفى تقليدى •

بيد أننا نجد من ناحية أخرى أن هنـاك أيضـا محاولة لتحقيق الحياة الروحيـة الصوفيـة الصادقة • والتصوف نفسه لايخلو مطلقا من الخطابية التقليـدية أو من العمليات الموضوعية التى تتم فى المجتمع اليومى ، غير أننا ما هنا نهتم بطبيعتها الأساسية • والوجود الانسانى فى أعماقه يشارك فى النظام الروحى الذى يسمو على الطبيعة ، وفى هذه الاعماق وحـدها التى تـكون الصوفية فيهـا رمزا لهـا ، يمكن القضاء على العزلة قضاء حقيقيا • وقد يكون من آثار الموضوعية أن تطرد القلق الذى لا ينفصل عن العزلة ، وهى فى توحيدها بين «الأنا» وبين موضوع ما أو مجتمع ما تميل الى استبعاد الشعور المباشر بالعزلة ، ولكن مثل هذا التوحيد ـ حتى ولو حدث فى المجال الدينى ـ ليس انتصارا حقيقيا على العزلة بحال من الأحوال • وهو حالة تســبق الشعور الوليد بالعزلة باعتبارها كشفا عن الطبيعة الأساسية للوجود • وهنا تكمن كل ما فى مشكلة العزلة من تعقيد كما تتبدى فى المجالات المختلفة للمعرفة والحياة الجنسية والاجتماعية الدينية • وتنطوى دراسة الشرور التى تصاحب العزلة الانسانية على دراسة المشـكلات الرئيسية فى الفلسفة الوجودية باعتبارها فلسفة المصير الانســانى ، وما فى الزمان من شر مشكلة من المشكلات التى تتصل بها اتصالا وثيقا ، كما أنه لا يقل عنها اثارة للقلق •

(١) cf. Berdyaev, Freedom and the Spirit.

التأمل الرابع

■ شرّ الزمان
التغيّر والأبديّة

الفصل الأول

● مفارقة الزمان ، دلالتها الثنائية
● لا وجود الماضى
● تحول الزمان
● الزمان والهم
● الزمان والنشاط الخلاق

مشـكلة الزمان هي المشـكلة الأساسية فى الوجود الانسانى ، وليس من قبيل المصـادفة أن كلا من « برجسـون » و « هيدجر » — وهما من أعظم الفلاسفة فى أوروبا المعاصرة — قد جعل من هذه المشكلة محورا لفلسفته (١) • وتواجه الفلسفة الوجودية مشكلة الزمان بطريقة تختلف عن الفلسفات الرياضية والطبيعية ، فهى تفسر مشكلة الزمان على أنها مشكلة المصير الانسانى • وهى لاتهتم بمثـل تلك التصـورات : « كاللامتناهى بالقوة وبالفعل » ، و « باللامتناهى » و « اللا محدود » وما هو « عبر المحدود » ، وهى التصـورات التى نجدها فى الفلسفة الرياضية •• الفلسفة الوجودية لا تهتم بهذه التصورات الا عن طريق غير مباشر (٢) والمصير الانسانى يتحقق فى الزمان ، وتحت راية الزمان • وتخطىء الواقعية الساذجة حينما تتصور الزمان اطارا يشمل تحولات الوجود ويحتمها • والواقع أن الزمان لا يجلب التغير • وانما التغير هو الذى يجلب الزمان • فالزمان موجود لأن هناك نشاطا ما •• وفعلا خالقا ، وعبورا مستمرا من العدم الى الوجود • بيد أن هـذا النشاط الخلاق متقطع غير متكامل ، ولا جـذور له فى الأبدية ، فالزمان نتيجة للتغير

(١) cf. Bergson. Essai sur les données immédiates de la conscience, et Heidegger. Sein und Zeit.

(٢) cf. Bertand Russell. Introduction à la philosophie mathématique, et Brunschsicg. Les étapes de la philosophie mathématique.

الذى يطرأ على الوقائع والموجودات وأنواع الوجود ، ومن ثم كان من الممكن العلو على الزمان · والزمان الساقط déchu الذى ينتسب الى عالمنا هو نتيجة « للسقطة » التى حدثت فى أعماق الوجود ، وهو نتيجة للعمليات الموضوعية فى عالم موضوعى ممزق محدد · ومن السذاجة أن نتصور أنه لا وجود لشىء فوق الزمان ، فالزمان ليس الا حالة من حالات الأشياء ، غير أن هناك حالة تتجاوز الزمان ، وللزمان دلالة ثنائية بالنسبة للوجود الانسانى ، فهو من ناحية نتيجة للنشاط الخلاق ، ومن ناحية أخرى نتيجة للتفسخ والتفكك · وهو مرادف للخوف والقلق · ويزعم « برجسون » أنه اكتشف فى « الديمومة » Duration المعنى الايجابى للزمان ، أما « هيدجر » فعلى العكس من ذلك يعنى بالجانب السلبى للزمان ، وبما ينتج عنه من قلق ·

والزمان قد يكون ذاتيا ، وقد يكون موضوعيا ، وقد يبدو أنه نتاج عملية موضوعية تعاينها الذات · والزمان موضوعى بمعنى آخر غير ذلك المعنى الذى تخلعه عليه الواقعية الساذجة · فالموضوعية نتيجة للعمليات الموضوعية وليست حقيقة خارجية كما جرى على ذلك مألوف الاعتقاد · وهذا أيضا يصدق على الزمان ، فان « هيدجر » يجعل من الزمان الأساس الأنتولوجى للوجود العينى Dasein ، أى « الوجود المادى » أو وفقا لمصطلحى الخاص للاحالة الموضوعية Objectivation وهو يعتقد أن القلق له من الأثر ما يجعل الوجود زمانيا ، وهكذا فان الزمان شعور بالقلق ، غير أن هذه ناحية واحدة فحسب من العملية الزمانية التى لاتنشأ عن الخوف والقلق وحدهما ، ولكنه قد ينشأ أيضا عن التغير الذى يحدث النشاط الخلاق · وفى عملية الزمان يتحول اللاوجود الى وجود ، وفلسفة « هيدجر » فى جوهرها فلسفة « الوجود العينى » أكثر من أن تكون فلسفة للوجود ، وهى فلسفة القلق أكثر من أن تكون فلسفة الخلق ، وهى لهذا السبب تهتم بجانب واحد من جوانب الزمان · ونظرة الانسان الى المستقبل لا تتحدد بواسطة القلق والخوف وحدهما ولكنها تتحدد بالنشاط الابداعى وبالأمل ، وهنا تكمن الدلالة المزدوجة للزمان ، والشعور بالزمان لا يقوم على الخوف وحده ، ولكن على النشاط الابداعى · بيد أن كلا من « برجسون » أو « هيدجر » لم يهتم اهتماما كافيا بهذه الثنائية التى تقوم على استحالة قبول الناحية الاستاتيكية (الثابتة) أو الديناميكية (الحركية) وحدها من الطبيعة الانسانية ، ذلك أن قبول الجانب الاستاتيكى معناه انكار عملية التجدد الأبدى ، وقبول الجانب الديناميكى معناه انكار الأسس الأبدية

للطبيعة الانسانية ، وهكذا نجد أن الثنائية قائمة في تركيب الشخصية اذا عرفناها بأنها اتحاد الثابت والمتغير •

والزمان يستتبع نوعين من التغير : تغير عن طريق ارتقاء الحياة ، وتغير عن طريق الموت • وفي ذلك الجزء من الزمان الذى نسميه المستقبل نجد أن الزمان خوف ورجاء ، حزن وسرور ، قلق ونجاة ، وقد أكد الفلاسفة الهنود كما أكد « بارمنيدس » والفلاسفة الأفلاطونيون و « اكهارت » أن الزمان وهم غير حقيقي ، وعبث وحط من قيمة الأبدية . غير أن الفلسفة المسيحية التى تعد أيضا أساسا للنزعة الديناميكية في التاريخ (١) ، قد اعتقدت فى القيمة الأنتولوجية للزمان بوصفه تحقيقا للغرض ، وهذا هو نفسه تصور النزعة الديناميكية للتطور • وقد اعتبرت بعض المدارس الفكرية هذا التغير مجرد وهم ، ولذلك لم تضف القيمة الأنتولوجية الا على ما هو ثابت لايتغير • واعتقدت مدارس أخرى أن التغير نفسه حقيقة واقعة ، وأنه ينشأ عن الفعل الخلاق والنشاط تجديد ومنافع ذات طابع ايجابى ، كما أنهما يضيفان شيئا الى دلالة الوجود ، ولاتستطيع أية فلسفة حقيقية عن الوجود الانسانى الا أن تعتنق وجهة النظر الثانية •

ويصل « القديس أغسطين » فى اعترافاته الى بعض الأفكار القيمة عن الزمان (٢) • فهو يدرك تمام الادراك طبيعة الزمان المتناقضة الوهمية ، والزمان عنده ينحل الى الماضى والحاضر والمستقبل • ولكنه يعود فيقول ان الماضى لم يعد موجودا ، وأن المستقبل لم يأت بعد ، كما أن تحلل الحاضر الدائم بين الماضى والمستقبل يجعله سريع الزوال وينبغى علينا اذن أن نستنتج من ذلك أن هناك ثلاثة أنواع مختلفة من الزمان : حاضر الأشياء الماضية ، وحاضر الأشياء الحاضرة ، وحاضر الأشياء المستقبلة • فالزمان نوع من الأبدية الممزقة التى تتصف أجزاؤها جميعا وهى الماضى والحاضر والمستقبل بأنها دائمة الافلات ، ومصير الانسان يتحقق فى هذه الأبدية المفككة ، فى هذه الحقيقة المرعبة للزمان •• هذا السراب من الماضى والحاضر والمستقبل • وهذا يفسر عدم استقرارها الأساسى • ويميز « برجسون » من ناحية أخرى بين الزمان والديمومة ، وهو يعتقد أن الديمومة هى مصدر الوجود الحقيقى •• وفى الوقت نفسه يدرك تمام الادراك الثنائية الماثلة فى العالم • ويسمى عالم

(١) cf. Berdyaev, The Meaning of History.

(٢) Saint augustine, Confessions Book, IX.

الوجود الوضيع بالعالم الموضوعى المكانى ، وعالمه المكانى يشـبه عالم « هيدجر » الزمانى شبها أساسيا • فالأبدية الممزقة تنحـل الى الزمان الموضوعى حيث يتبعثر الماضى والحاضر والمستقبل جميعا • وفى هـذه الظروف يـكون لزاما علينـا أن نبحث كيف يرتبط الماضى والحاضر والمستقبل بمصير الأنا ، وأى دلالة يمـكن أن نخلعهـا على هذا الوجـود المتحول • ويجب أن نوجه الى أنفسنا أولا هذا السؤال : هل وجد الماضى حقا ؟ واذا وجد فكيف يؤثر ذلك على وجودنا ؟

فالماضى لم يعـد له وجود ، اذ ابتلع الحاضر مضـمونه الواقعى الوجودى • والماضى والمستقبل ما داما موجودين يؤلفان جزءا من الحاضر ، وتاريخ حياتنا ، وتاريخ البشرية عامة مندمج فى حاضرنا ولا وجود له الا على هذا الأساس • وهذا هو حقا التناقض الأساسى فى الزمان وهى أن مصيرى يتحقق داخل زمان ينقسم الى ماض وحاضر ، وأن الزمان هو نفسه تحقيق مصيرى على الرغم من هذه الحقيقة وهى أن الماضى والمستقبل لا وجود لهما الا فى حاضرى ، فيجب أن يكون هناك اذن نوعان من الماضى : الماضى الذى كان ولم يعد له وجود الآن ، والماضى الذى مازال باقيـا • والذى يـكون جزءا متكاملا مع حاضرنا • فالماضى الذى يعيش فى ذاكرة الحاضر ماض مختلف تماما •• هو ماض قد تسامى وساعدت أفعالنـا الابداعية على ادخاله فى حاضرنا ادخالا متكاملا • وليست الذاكرة مجرد احتفاظ أو بعث للماضى ، وانما تقتضى الذاكرة تجديدا خلاقا ، وتحويلا مبدعا للماضى • ومن الممكن اثبات تناقض الزمان بهذه الحقيقة وهى أن الماضى لم يوجد حقا بوصفه ماضيا ، فان ما وجـد فى الماضى كان حاضرا بالفعل ، وكان نوعا آخر من الحاضر ، والماضى باعتباره ماضيا لا يوجد الا فى حاضر اليوم • غير أن للحاضر والماضى وجودا متميزا تميزا مطلقا ، والماضى الحاضر يتميز عن الحاضر الذى ننظر اليه من الحاضر ، اذ توجد طريقتان للنظر الى الماضى أى الى الأشياء والكائنات التى انقضت : النظرة المحافظة التى تعود أدراجها الى الماضى وتتطلب الايمان بالتقاليد ، والنظرة الابداعية المتسامية التى تعيد تكامل الماضى فى المسـتقبل وفى الأبدية ، والتى تبعث الأشياء والكائنات الميتة • والنظرة الثانية هى التى تنسجم مع الحاضر الكامن فى المـاضى ، والأولى تعكس فقط الحاضر الفعلى الذى يصير دائما ماضيا •

ولمشـكلة الماضى والمسـتقبل وعلاقاتهما المتبـادلة جانب مزدوج ، فهى أولا مشكلة كيف يمكن أن نقضى على الماضى الآثم المؤلم الشرير ؟ ومن ناحية أخرى كيف نعمل على استمرار ما مضى من الجمال والخير والحب ؟

وهذا الاقتراب من الماضي يشبه الى حد كبير الوسيلة التي نقترب بها من الحاضر ، فاننا نحاول أن نحتفظ بحاضرنا الذى نعتز به ، ونأسف حينما نجده يفارقنا ويموت • ونحن نحاول أن ننسي ذلك الجزء المؤلم القبيح من الحاضر ، أما الحاضر الذى نعتز به ونقدره فينبغى أن يدوم الى الأبد بعيدا عن أى تحول مقبل نحو الماضى فان من أثر المستقبل أن يجعل الحاضر ماضيا ، وهذه هى العلاقة المنكودة بين الماضى والمستقبل • فالزمان شر • ومرض قاتل يقطر حنينا مهلكا • وانقضاء الزمن يصيب قلب الانسان باليأس ، ويفعم نظراته بالحزن • وجدير بالذكر أن كاتبا مرموقا مثل « بروست » قد اختار السعى وراء الزمن العابر ، وخلق الماضى خلقا فنيا جديدا فى الذاكرة باعتباره الموضوع الأساسى فى مؤلفاته • وكان « بروست » يعتقد فى ختام حياته أنه قد استعاد وركب من جديد الزمن الضائع • وفى الجزء الثانى من « الزمان المستعاد » يكاد يصل الى نوع من العاطفة الدينية • والحق أن مشكلة الزمان أصبحت جزءا أساسيا فى الفلسفة والفن على السواء ، وقد كانت دائما جزءا أساسيا فى الدين ، وخاصة فى المسيحية ، وأسرار التكفير والغفران والموت والبعث والغاية النهائية والرؤية هى أساسا مشكلات تنبع عن الزمان ، وعن السر الذى ينطوى عليه الماضى والحاضر والمستقبل (١) •

فأين يكمن أصل الشر فى الزمان وما يواكبه من حنين ؟ انه يكمن فى هذه الحقيقة وهى أن الانسان يجد من المحال أن يجرب الحاضر بوصفه كلا كاملا سارا ، وبوصفه جزءا من الأبدية ، أو أن ينتزع نفسه من الجزع الذى يثيره الماضى والمستقبل وما فيهما من حنين حتى وهو يستمتع باللحظة الحاضرة • فليس مقدرا لنا أن نشعر بما فى اللحظة الحاضرة من غبطة وكأنها أبدية حافلة ، فان هذه الغبطة تتحدد بمعنى الزمن المتدفق ، واللحظة الحاضرة بوصفها جزءا من الزمان العابر حية بكل ما فى الزمان من حزن وقسوة وأبدية فى عملية التقسيم الى ماض ومستقبل • غير أن اللحظة الحاضرة صفة أخرى لأنها تشارك فى الأبدية ، وعدم ثبات الأشياء وتحولها يبعث فى النفس شعورا عميقا بالكآبة والخوف فى وجه الحوادث الماضية والمستقبلة • وهذا الشعور بالكآبة والخوف لايمكن التغلب عليه الا بممارسة النشاط الابداعى فى الحاضر ، والامتناع عن مواجهة المستقبل فى حدود القدرية أو الجبرية •

---

(١) cf. Eberhard Grisebach, Gegenwart. Eine Kritische Ethik.
وابرهارد يعالج مشكلة الحاضر علاجا يختلف عن علاجى لها ، لأنه يتأثر بكيركجورد واللاهوت الجدلى •

وهكذا نحن نحقق مصيرنا وشخصيتنا فى الزمان ، ولكننا نفزع من الزمان بوصفه مرادفا للتحلل والموت • وينحدث « كاروس » عن مبادىء التنبؤ البروميثى والتذكر الايبوميثى ، غير ان المبدأ البروميثى ليس مجرد مبدأ للتنبؤ ، ولكنه قبل كل شىء مبدأ بطولى يتسم بالنشاط الخلاق القادر على الانتصار على الخوف والحنين معا ، كما يستطيع الانتصار على الخوف من المستقبل بوصفه ضرورة وتحديدا سابقا • وليس من شك أن الذاكرة هى أعمق مبدأ أنتولوجى للانسان ، فهى التى تحتفظ لشخصيته بوحدتها وتماسكها ، ولكن الانسان لايستطيع أن يعيش فى عالم وضيع دون أن يشعر بحاجته الى النسيان ، والى نسيان أشياء كثيرة • والذاكرة التى تكامل فيها الماضى والمستقبل حمل أثقل من أن يحتمله الانسان ، والنسيان بهذا المعنى خلاص وراحة ، والانسـان يحاول دائما أن ينسى نفسه وأن ينسى الماضى والمستقبل ، وهو ينجح فعلا فى أن ينسى نفسه ، ولكن فى لحظات قصار جدا • غير أن حاجته الماسة الى النسيان تثبت ما فى الزمان من شر قاتل •

وثمة قوم يعيشون فى الماضى والمستقبل أو فى الأبدية ، والواضح أن مجال الحياة الانسانية محدود جدا ، ولا يستطيع أن يبلغ رؤية الابدية غير عدد قليل من الناس ، وحينئذ يكون ذلك انتصارا على شر الزمان • ويستشف الأنبياء المستقبل لأنهم يستطيعون العلو على الزمان ، والحـكم عليه فى المستوى الروحى للأبدية • ومن الأخطاء الشائعة توحيد الماضى بالأبدية ، والواقع أن هناك عنصرا من عناصر الأبدية فى الماضى ، كما هى الحال تمـاما بالنسبة لحاضرنا ومستقبلنا • والمـاضى ينطوى على كثير مما يتسم بالفناء والعرضية ، أى أنه الواقع أكثر من الأبدية شرا • والوعى المحافظ الذى يميل الى أن يجعل من الماضى شيئا مثاليا يمكن أن يخطىء فى هذه العناصر العابرة فيحسبها الأبدية ، ولكن من الخطأ أيضا أن ننكر مشاركة الماضى فى الأبدية ، وأن نؤكد أن الأبدية تتكشف فى المسـتقبل فحسب ، فليس للماضى أو المستقبل بوصفهما أجزاء من الزمان المتحلل أى امتياز على الأبدية • ولحظة الاتصال بالأبدية هى التى ينبغى أن نعدها مقدسة • والمستقبل يتمتع بصفة الحرية والنشاط الخلاق بوصفه الوسيلة الوحيدة للتغلب على فكرة القدرية التى ترتبط ارتبـاطا ثابتا بالماضى ، غير أن الحرية يجب أن ترتبط أيضـا بالماضى بطريقة تجعل من انقلاب الزمان شيئا ممكنا (١) ، ويواجه الشعور الدينى هذه المشكلة كما يواجه

---

(١) Vide V. Mauravieff La Conquête du Temps.
فقى هذا الداب يتجلى تأثير أفكار فيودوروف •

مشكلة البعث وهى المشكلة التى نجدها لدى « فيودوروف » فى « فلسفة العمل الجماعى الروحى » وفى هذا الكتاب يثبت أنه فى الامكان الانتصار على الطبيعة الثانية للزمان ٠

و « الزمان المستعاد » ليس محاولة لتفسير الماضى والمستقبل فحسب وانما يمثل هذا العمل انتصارا حقيقيا على شر الزمان ، وهكذا حينما يعاد تكامل الزمان على هذه الصورة يستحيل الى الأبدية ٠ وعلى ذلك ينبغى على النشاط الخلاق ألا يتركز على المستقبل بما ينطوى عليه من خوف وقلق وجبرية بل على الأبدية ، وحركته تسير فى اتجاه معاكس لسرعة الزمان التكنولوجية وللحنين الذى لا ينفصل عن القبول العاطفى السلبى لزمان فان ٠ وفى هذه الحالة يكون على العكس من ذلك علامة على الانتصار الروحى ٠

وفى المستوى الأنتولوجى لايوجد ماض أو حاضر ، وانما هناك حاضر يخلق بلا انقطاع ، وتفسيرنا للزمان يتغير تغيرا عميقا حينما ننظر اليه من وجهة النظر الابداعية ، وبينما يؤكد « هيدجر » أن القلق يساعد على جعل الوجود زمانيا ، فمن الواضح أن النشاط الخلاق يمكن أن يحرر الوجود من طغيان الزمان من ناحية أخرى ٠ والفعل الخالق نفسه يعلو على الزمان ، بيد أن النتائج المادية الفعلية تتخذ موضعها فى قسم من أقسام الزمان فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل ٠ والزمان ــ وكل ما يرمز اليه ــ ليس الا التعبير الموضوعى عن التجربة الكلية التى تنطوى عليها اللحظة فوق ــ الزمنية ٠ وقد يكون المستقبل احالة مادية للقلق الناشىء عن وضاعة العالم ، أو قد يكون احالة مادية للفعل الخالق الذى تؤلف نتائجه العينية جزءا من العالم الوضيع ٠ والاحالة المادية للوجود عن طريق الزمان والمكان عملية موضوعية لأن العالم الموضوعى زمانى مكانى فى أساسه ٠ ويتخذ الزمان دلالة مختلفة كل الاختلاف حينما ينظر اليه من وجود الانسان الداخلى ٠ والطابع الزمانى لمصير الانسان فى العالم الوضيع ليس غير صفة ثانوية ، لأن الزمان محكوم بمصير الانسان ، وبكل ما فيه من تغيرات وأحداث ٠ والمذهب اللاهوتى عن الخلق ليس كشفا عن الحقيقة الأولى لأنه محاولة منه لكى يصبح موضوعيا ، فهو بالأحرى تعبير عن الواقعية الساذجة ٠ والواقع أن « السقطة » لم تحدث فى الزمان ، وانما الزمان كان نتيجة « للسقوط » ٠ والواقع أن فكرة الخلق عبارة عن مجرد تناقض عقلى ، ذلك أن العالم لا يمكن أن يكون أبديا ، كما أن أصوله لايمكن أن تكون زمانية خالصة ٠

وينشأ هذا التناقض عن الاحالة الموضوعية ، اذ أننا نميل الى تصور الخلق من وجهة نظر الموضوع ، ومن جهة نظر العالم الموضوعى والزمان . أما فى ضوء الوجود الداخلى ، وضوء الروح ،فان كل شىء يتحول ، ولا يعود الخلق معتمدا على أية مقولة للزمان . فالخلق أبدى ، بينما الزمان حالة وضيعة من حالات المصير الانسانى . ومن الخطأ أيا كان الأمر أن نواجه الزمان على ضوء الوضاعة الانسانية فحسب ، لأن الزمان نتيجة للديناميكية وللنشاط الخلاق أيضا ، وان يكن نتيجتهما المادية فحسب . والحقيقة أن الزمان ينتسب الى المستوى الداخلى للوجود ، والفكر الموضوعى ما هو الا التعبير الخارجى عن الأحداث الداخلية ، وتتمثل المأساة الحقيقية للوجود الانسانى فى أن الفعل الذى نقوم به فى الماضى يمكن أن يحدد مستقبلنا كله على مدى الزمان ، بل ربما فى الأبدية ، وهذه فى الواقع نظرة مفزعة ، واحالة مادية مرعبة لفعل لم يكن يقدر ذلك أصلا . وهذا يتضمن مشكلة الاحالة المادية المقبلة لمصير الانسان . وينبغى علينا أن ننظر فيما يتصل بذلك الى مشكلة النذور ، والوفاء ، والرهبنة ، والزواج ، ونظم الفروسية والجمعيات السرية ، وسنجد مناسبة للعودة الى هذا الموضوع .

وربما كانت أسمى أحلام الانسان وأعظم أعماله أن يختبر ما فى لحظة معينة من امتلاء . وحكمة « جيته » كلها وجوهر حياته نتيجة لهذه الملكة فى معاناة التجربة كاملة ، وفى كشف العنصر الالهى فى أدق أجزاء الحياة الكونية . وبهذه الطريقة استطاع أن ينتصر على سر الزمان . والزمان سابق على المكان ، والمكان يفترض الزمان ، والنظرية العلمية التى تؤكد أن الزمان البعد الرابع ليست لها قيمة ميتافيزيقية ، فان تطبيقها يقتصر على العالم الموضوعى ، وربما كان من الممكن أن نؤكد أن البعد الرابع لازم لوقوع الحوادث ، ولكنه من وجهة نظر الفلسفة الوجودية الزمان سابق على المكان ، والزمان يولد تلك الحوادث والأفعال التى تقع فى أعماق الوجود فوق الطبيعى ، والفعل الأول لايفترض الزمان ولا المكان ، ولكن هو نفسه الذى خلق الزمان والمكان . وعلى الرغم من ذلك فان الفعل الأول للوجود الانسانى يستبعد الجبرية والعلية معا ، فهما من نتاج العمليات الموضوعية ، ولا أثر للجبرية أو العلية فى الذات الخالقة .

وسنرى فيما بعد أن الموت هو الجانب النهائى فى مشكلة الزمان ، فالموت لاينفصل عن الزمان ، وهو يقع داخل اطار الزمان ، والخوف من المستقبل هو فوق كل شىء خوف من الموت . فالموت حادثة تقع داخل

الحياة نفسها ، هو حد للحياة ، بيـد أن الموت هو النتيجة النهائيـة للاحالة المادية للحياة ، وهو يحدث في الزمان داخل العالم الموضوعي ، لا داخل الذات أو في وجودها الباطني حيث لايكون غير لحظة في الحياة الأبدية • والماضي بما فيه من أجيال غابرة لايموت الا حينما ننظر اليه باعتباره موضوعا ، وحينما لا نكون نحن أنفسنا غير ظاهرة مادية فحسب• والذاكرة هي العلامة الظاهرة للحياة الداخلية ، ولهذه الحقيقة وهي أنه لايمكن لأي وجود انساني أن يكون جزءا من العالم الطبيعي فقط ، وحينما يشعر بالتقاليد يـكون ذلك بمثابة اعـلان الحرب على دولة الزمان ، والاتصال بسر التاريخ اتصالا روحيا • غير أن مجرد بعث الماضي من أجل الماضي ليس تحقيقا للأبدية أو انتصارا على الموت ـ ذلك الحاكم بأمره على العالم الطبيعي ، وانما على العكس من ذلك ، يدعم هذا الاحياء من قوة الزمان • وهكذا نرى أن فكرة « نيتشه » عن « العود الأبدي » هي من أكثر الرؤى اثارة للفزع من سـيطرة الزمان الدائمـة على « الوجـود » الحقيقي •

الفصل الثانى

- الزمن والمعرفة
- التذكر
- الزمان : حركة وتغير
- سرعة الزمان والتكنولوجيا

ترتبط المعرفة بالزمان ارتباطا وثيقا ، فعن طريق المعرفة يستطيع الانسان أن يهرب من أى زمان معين ۰ وقد علمنا « أفلاطون » ان المعرفة تذكر ، أو بتعبير آخر ، هى انتصار على دولة الزمان ۰ والتاريخ ـ وهو علم « اللا وجود » أى مالم تعد له صلة بالواقع ـ يصور هذه العلاقة بين المعرفة والزمان ، وسواء كان التاريخ يدرس الانسان أو الكون ، فهو حقا علم ما كان ، ومالم يعد موجودا الآن ۰ والحقيقة الموضوعية للعلم التاريخى قائمة على الوجود السابق للماضى ، وعلى هذه الحقيقة وهى أن عددا معينا من عناصر الماضى ما برحت قائمة فى الحاضر تؤلف جزءا منه ، هذه الحقيقة هى التى تحدد امكان قيام المعرفة التاريخية ۰ بيد أن الآثار الباقية من الماضى قد فقدت كل ارتباطاتها الأصلية ۰ فلنؤكد مرة أخرى أن الماضى لم يوجد مطلقا فى الماضى ، والتجربة الحقيقية من الناحيــة الأنتولوجية للماضى تقوم على الذاكرة والتذكر ، فهما اللذان يقاومان من الوجهة الأنتولوجية كل ما يحطمه الماضى ، والذاكرة هى التى تستطيع وحدها أن تدرك السر الداخلى للزمان ، وهى العامــل الزمانى للخلود ۰ ووعى « الأنا » يتصــل أيضــا بالذاكرة (١) التى تكشف فى الأعماق الميتافيزيقية لذلك الوعى عن تاريخ الماضى بأسره باعتبــاره جانبا من

---

(١) يناقش « برجسون » هذا الموضوع مناقشة عميقة ۰

جوانب تجربه الانسان الشخصية المتوارية فى أعماق الوجود • وللتاريخ ـ كما لكل شىء آخر ـ جانبان : فهو من ناحية عملية موضوعية طالما كان ينظر الى الماضى باعتباره موضــوعا ، وبالتــالى فهو مقصور على العالم الموضوعى شأنه فى ذلك شأن الطبيعة ، وهو من ناحيــة أخرى حادث روحى فى المجال الداخلى للوجود • وهو باعتباره حادثا روحيا ، لايمكن فهمه الا عن طريق الذاكرة الأنتولوجية والاتصال الروحى الفعال بالماضى• وينبغى على الانسان لبلوغ هذه النتيجة أن يفهم الماضى بحسبانه جزءا من وجوده الخاص •• جزءا من وجوده الروحى السابق على التاريخ ، وبهذا يصبح الماضى عنصرا مكونا متكاملا مع حاضره ، وبذلك يستطيع الانسان أن يتغلب على التفكك الزمانى •

والمعرفة تذكر حينما تتعلق بحقيقة لايمكن نقلها بواسطة التجربة الحسية المباشرة ، أى حينما تتعلق بتجــربة خــارج هذا الزمان المفكك الذى نسميه الحاضر • ويقوم نشاطنا الروحى على التذكر لأن التجربة الحاضرة لا يمكن أن تكون أكثر من شذرة من معرفتنــا ، ومن ثم فانه مادامت الذاكرة هى المقوم الأول للشخصية وللأنا ، فان الوعى الانسانى فى عملية الذكر يميل الى استغراق تاريخ العالم كله فى أعماق « الأنا » الوجودية • وهذا التاريخ اذا كان حقا تاريخ الأنا ، فيجب اذن أن يكون كامنا فى ذاكرتها • والمعرفة لايمكن أن تكون ناشئة عن الجهل ، كما أنها لا تتولد عن عمليــة تطورية ، وهى تقتضى ادراكا قبليا ، وتذكر حكمة قديمة • والمعرفة اتصال روحى « باللوغوس » ، غير أن هذا واحد من جوانبها وهو ما يعرف بالجانب الأفلاطونى ، ولهــا أيضا جانب خلاق • وهنا يجب علينا أن نعيد النظر فى مشكلة الزمان ، فالمعرفة حادثة من أحداث الوجود أيضا ، انها تحول وانارة للوجود ، ومن ثم فان معرفة الماضى تنطوى على تناقض لأنها « معرفة اللا موجود » ، ذلك لأن الماضى لم يعد له وجود ، وليست للمستقبل حقيقة أكثر مما للماضى ما دام أنه لم يتحقق تحققا ماديا • ولكن ، اذا كان التذكر الداخلى يتيح للانسان أن يفهم الماضى اللاموجود ، فان الروح المتسمة بالنبوة يجب أن تمكن الانسان من الكشف عن المستقبل اللاموجود • وينبغى أن نميز على كل حال بين التنبؤ بالمستقبل والرؤية العلمية ، فهذه الرؤية الأخيرة تحدث حينما ننظر الى المستقبل كما ننظر الى الماضى بوصفه شيئا ثابتا موضوعيا محددا تمام التحــديد • والتنبؤ من ناحية أخرى اذا فسرناه بأوســع معانيه فانه يمثل سر الزمان المتعالى ، وسر تحرر الانسان من ربقته ، وسر انتصاره على الحاضر الأبدى واتصــاله به • وهو يكشف عن سر الوجــود وعن

المستقبل باعتباره جزءا متكاملا لهذا الوجود · وكشف الحاضر الأبدى على هذه الصورة ليس حاضرا استاتيكيا ، ولكنه شيء واحد عملية الخلق المستمر خارج حدود الزمان المشتت ·

ويعد « بارمنيدس » المصدر الأصلى لكل المذاهب التى تؤكد الطبيعة الاستاتيكية للوجود ، وتعتقد أن الديناميكية والتغير مجرد وهم ، وهذا التصور قد أدمج فى اللاهوت المسيحى ، ولكنه أخفق فى تفسير لغز المعرفة ، والحقيقة ــ أيا كان الأمر ــ هى أن المعرفة مرادفه للتجديد فى الوجود ، وهى تمثل الديناميكية والتغير والخلق ، كما تنبت استحالة الوجود الاستاتيكى ، هى حدث يطرأ على الوجود ، وتغير يقع داخل أعماقه · والانتصار على الزمان الذى تحمله المعرفة ــ كما هى الحال فى الأفعال الروحية الأخرى ــ لايفترض بأية حال بلوغ حالة استاتيكية لا زمانية ثابتة ، والواقع أن عالمنا عالم ناقص مازال فى عملية الخلق · والعالم ــ من وجهة نظر الوجود الداخلى للانسان ــ يخلق نفسه دائما أكثر من أن يكون متطورا · والتغيرات التى تتسم بسمة التطور فى العالم ليست الا عملية ثانوية تستلزم الجبرية والاحالة المادية · فالحياة الداخلية تتحكم فيها الدوافع الابداعية والحرية والنشاط الروحى ، لا التطور والجبرية والعلية الطبيعية · والتطور ظاهرة زمانية تخضع للقوانين الزمانية · أما الأفعال الروحية الأولية فانها تولد الزمان نفسه · وثمة تغيرات لايحددها الزمان ، وانما على العكس من ذلك ، هى التى تحدد الزمان · وهكذا نرى أن الزمان وتطوره المحدد ليس الا الاحالة المادية أو الموضوعية للتغيرات الخالقة التى تحدث فى أعمق أغوار الوجود · والزمان ــ بمعنى ما ــ هو انقطاع عن الأبدية على الرغم من أنه يظل حاضرا داخل الأبدية · وهكذا خلق العالم ، ولكنه لم يتحدد فى الأبدية · والجبرية ما هى الا لمحة من لمحات العالم الموضوعى التانوى الذى يتحكم فيه الماضى والحاضر والمستقبل للزمان الممزق ــ أى بما ليس له وجود حقيقى · ونحن نميل فى هذا العالم الى تصور الأبدية نفسها على أنها لا نهائية زمانية ·

فالعالم الموضوعى اذن هو عالم الزمان الرياضى ، عالم اللامتناهى الرياضى ·· هذا الزمان الذى نقيسه بالساعة يختلف كل الاختلاف عن مصير الانسان الداخلى ، بيد أن المصير الانسانى يتم التعبير عنه فى العالم الموضوعى بحيث يصبح عبدا للزمان الرياضى المنقسم · والحياة الروحية وحدها هى التى يمكن أن تتحرر حقا من الزمان العددى · فثنائية الزمان يمكن الكشف عنها بوضوح فى اللحظة الحاضرة ، ولهذه

اللحظة دلالة اذا نظرنا اليها بطريقتين متباينتين تماما · **أولا : ان اللحظة** جزء دقيق من الزمان ، فهى صغيرة من الناحية الرياضية ، ولكنها منقسمة بدورها ، ومندرجة فى تيار الزمان بين الماضى والمستقبل ، **ثانيا :** هناك أيضا اللحظة الحاضرة للزمان فوق – العددى غير المنقسم ، للحظة التى لايمكن أن تنحل الى الماضى والمســـتقبل ، لحظة الحاضر الأبدى ، التى لاتنقسم ، وهى جزء متكامل مع الأبدية · وهذه هى لحظة « كير كجورد » · واليوم على الأخص ، وفى عصر التكنولوجيا والسرعة – أصبحت مشكلة الزمان مشكلة حادة · فقد خضع الزمان لسرعة جنونية ينبغى على ايقاع الزمان الانسانى أن يتجاوب معه ، ولم تعد لأية لحظة قيمة داخلية أو أى امتلاء ·· بل انهـــا تفسح المجـــال سريعا للحظة اللاحقة ، وكل لحظة وسيلة للحظة التى تتبعها ، وكل لحظة يمكن أن تنقسم انقساما لانهائيا ، ومن ثم تصبح بغير أساس من الصحة · وعصر التكنولوجيا موجه بأكمله نحو المستقبل ·· مستقبل يحدده تماما ســـير الزمن (١) · ولا يسنح للأنا أى فراغ – وقد اجتاحها تيار الزمان – أن تؤكد نفســـها بوصفها الخالقة الحرة للمستقبل · وهذه الظاهرة التى نلمســـها فى يومنا هذا علامة على عصر جديد · وللسرعة القائمة على الآلية المتزايدة للحياة أثر قاتل على « الأنا » الانسانية ، فقد اجتثت جذور وحدتهـــا وتماسكها · وأدى ظهور الآلة ، والاحالة الآلية للحياة الى الاحالة الموضوعية القصوى للوجود الانسانى ، والى احالته المادية فى عالم غريب ·· عالم بارد غير انسانى · وعلى الرغم من أن هذا العالم من صنع الانسان الا أنه أساسا معاد له · وبتأثير السرعة الفائقـــة انحلت « الأنا » الانسانيـــة الى أجزاء ضئيلة جدا ·· الى مجرد تتابع اللحظـــات فى الزمان المتفرق ، وتتصل وحدة الأنا وتكاملهـــا بوحدة الحاضر غير المنقســـم وتكامله ، وباللحظـــة الراهنة فى امتلائهـــا ·· اللحظة التى هى أكثر من وســـيلة للحظة اللاحقة ، باللحظة التى هى أيضا اتصال بالأبدية · والأنا أساسا فاعلة مبدعة ، ولكنها تفترض أيضا التأمل الذى لايمكن ثمـــة تركيز بدونه ، والذى لاتستطيع الأنا بغيره أن تتحول عن نشاطها الأولى ، أو أن تتحول تحولا موضوعيا وتتجرد من وجودها الحقيقى · و « الأنا » فى محاولتها لتحقيق شخصيتها تفتقر الى التأمل افتقارها الى النشـــاط الخلاق · و « الأنا » تعبر عن نفسها فى الحركة والنشاط والتجديد الخـــلاق ، ولكنها لكى تحقق نفسها ينبغى أن تكون قادرة على التأمـــل وعلى البحث العميق وعلى التركيز وتحريرها من الزمان ، وأخيرا ينبغى عليها أن تتوحد

---

(١) cf. Berdyaev, Man and the Machine,

مع اللحظة الحاضرة . وبدون قوة التأمل نتعرض الأنا لخطر الذوبان فى الكون اللامتناهى . وتصبح الأنا الموضوعية جزءا من الكون اللامتناهى وحركته المتعددة ، وحيثما تذهب تكن تحت رحمة اللاتناهى (وهو شيء آخر غير الأبدية) وقد كان المفكرون فى القرن التاسع عشر يرون أن اعتماد « الأنا » على اللانهائية الكونية دليل على الجبرية ، أما اليوم فان العلماء ـ والفلاسفة أيضا ـ يفسرون هذه الظاهرة بطريقة مختلفة اذ يميلون الى أن يجدوا فى هذا الفعل الدائم اللانهائية الكونية . وفى هذه الحركة الكونية المتعددة مصدرا لعدم التحديد . ويحبذ العلم فى الوقت الحاضر التفسير الاحصائى للقوانين الطبيعية ، وهو على استعداد لقبول عنصر المصادفة (١) . وعلى ضوء هذه النظرية يكون المصير الانسانى من صنع المصادفة أكثر من أن يكون من صنع الجبرية الطبيعية . غير أن نظرية « اللا ـ جبرية » التى وضعتها الفزياء الحديثة ، والتى قبلت حركة الذرات الحرة لا تساعد على تخفيف المصير الملقى على كاهل الانسان ويمكن أن تكون « اللاجبرية » ـ أيا كان الأمر ـ أقل اضرارا للانسان من الجبرية . وقد أحدثت نظرية النسبية تغييرا عظيما فى التصور الفيزيائى للعالم ، وقوضت دعائم النظرية العلمية القديمة عن الجبرية . ولكنها ساعدت على تأكيد الحالة المحزنة للوجود الانسانى فى العالم الموضوعى . والشر الزمانى الذى يصيب العالم الوضيع يجد ما يؤكده فى جميع النظريات العلمية والفزيائية الرياضية فى هذا الزمان وكلما أصبحت الحياة أكثر آلية ، ازداد شر الزمان عرامة . والنتائج الكاملة لهذا ـ أيا كان الامر ـ يمكن أن تدرك من الداخل ، عن طريق الفلسفة الوجودية .

---

(١) cf. Emile Borel, Le Haeard.

الفصل الثالث

- الزمان والمصير
- الزمان ، الحرية والجبرية
- الزمان والتناهى
- الزمان واللامتناهى

لا تنفصل فكرة المصير عن فكرة الزمان ، وعلى هيئة الزمان نعانى مصيرنا . ومشكلة الزمان هى فى النهاية مشكلة تتصل بعلم أشراط الساعة . وتضفى الفلسفة المسيحية على الزمان دلالة ايجابية . وهى فى ذلك تختلف عن فلسفات الهند واليونان . والشعور بالزمان معناه الشعور بالتاريخ ، والشعور بتاريخ الانسان الخاص ، وبالتاريخ الكلى . والوجود جزء من الأبدية ، ولكنه يستمد دلالته من الزمان كما يلاحظ **يسبرز** بحق . وهكذا لا يمكن تعقل الزمان الا على ضوء المصير الانسانى . وبتركيز الزمان فى نقطة واحدة ، وبالعمل على امتداد آثار كل فعل جزئى حتى يشمل الأبدية كلها ، دعمت المسيحية الزمان تدعيما ضخما ، ومذهب « التجسد » يقوم على العكس من ذلك على تصور مشتت للزمان ، هو زمان يجيب على نفسه . والزمان الحافل يبشر بالقبول المباشر للأبدية ، أى قبول تلك الحوادث التى لها دلالة أبدية وزمنية داخل الزمان على السواء . ولكن من المؤكد أنه من أشد ضروب الظلم أن نتحمل المسئولية على أفعال ارتكبت فى لحظة من لحظات الزمان حتى ولو كانت هذه اللحظة تمتد لتستوعب حياتنا كلها . فالانسان لا يستطيع فى لحظة منفصلة من الزمان أن يصل مطلقا الى ما فى التجربة والمعرفة من امتلاء ، أو أن يصل الى رحابة الرؤية التى تجعله يتحمل المسئولية الى الأبد وهو شاعر بذلك . ولا يستطيع المرء أن يتحمل طوال

الأجيال القادمة مسئولية ما حدث له في لحظة واحدة من الزمان ، اللهم الا اذا كانت هذه اللحظة لا تمثل جزءا من الزمان ، بل انها تشارك أيضا في الابـــدية ، أى اذا كانت قد تجردت عن الزمان · وليس في طاقة الانسان أن يحيط بالأبدية في لحظة من لحظات الزمان ، لأن الأبدية فوق الزمان ·

وهنا نتخذ المشكلة شكلا مختلفا · فاذا أردنا أن نتمثـــل مصــير الانســـان ونهايته من وجهـــة نظر الزمان المندمج في الابدية وحيث تكون مجموع الأزمنة والابدية نفسها مسئولة عن لحظـــة من لحظات الزمان . فمعنى ذلك أننا نحيل المصير الانســـانى احالة موضوعية ونستأصله من جذوره لنحيله احالة مادية · وفي هـــذا الضوء يصبح « علم أشراط الســـــاعة » ظاهرة طبيعية تتفق مع التفســــير الطبيعى للمذهب « الاسكاتولوجى » eschatological · وبلوغ الابدية يفترض أن الزمان جزء متكامل من الابدية ، بدلا من أن يضعه بحسبانه شيئا موضوعيا لا متناهيا ·· شيئا ينجرد تمـــاما من الأبدية فوق الزمانية · واعاده التكامل للزمان تتم فى تلك اللحظة التى تقطع التتابع الزمانى للحظات الأخرى وتصبح بدلا من ذلك كلا ذا كيفية اصيلة وغير منقسم · ومثل هذه التجربة عن اللحظة لا يمكن أن تستحيل شيئا موضوعيا من أجل منفعة المستقبل ، أو من أجل الزمان اللانهائى · ويوجد طريقان ممكنان لمعاناة الزمان : أحدهما أن نجرب الحاضر دون تفكير فى المســـتقبل او الأبدية ، والثانى أن نجعل من الحاضر والأبدية شيئا واحـــدا · والموقف الأول يقوم على النسيان ، على انقطاع فى الذاكرة باعتبـــارها جــــوهر الشخصية ، والحياة فى الحاضر وســـيلة أخرى لتعريفه · وفضـــلا عن ذلك فان هذه اللحظة من النســـيان قد تخلو من أية قيمة خاصة ، وقد تشير مثلا الى أن الانسان يستمتع بحالة من النشوة ، أو تستبد به عاطفة ما ، وهما حالتان لا يبدو أنهما يؤديان الى الابدية · أما الموقف الثانى فينغلب على شر الزمان ، ويفضى بنـــا الى الابدية ، وفى هذه الحالة لا تكون اللحظة لحظة نسيان ، وانما تكون على العكس من ذلك لحظة امتلاء خاص تمثل حياة الانسان تنيرها الذاكرة لاجزاء من حياته المنعزلة · وهكذا تســـتطيع الروح أن تتغلب على الخـــوف والفزع من المســـتقبل · والشر الذى نعانيه فى لحظة من لحظات الزمان لا يؤلف تجربة شاملة ، كما أنه لا يؤثر أى تأثير على ما فى المصير الانســـانى من امتلاء ، لأنها تجربة ناقصة تعـــزل الجزء عن الكل ·· غير أن هذه الجزئية وهذا الانعزال هما السبب الذى لا يجعل للمصير الانسانى حلا

محدودا . واللحظة المولدة للشر تظل مستعبدة للزمان ، وتفشل فى بلوغ الابدية حتى ولو كانت الابدية مرادفة للجحيم . وينشـــأ الطابع القاتل للماضى والمستقبل نتيجة لميلنا الى احالة الزمان احالة موضوعية ، والى أن نتمثل الماضى والمستقبل باعتبارهما موضـــوعين يجب علينا الاذعان لهما . ولكن ، ليس للماضى والمســـتقبل أى وجود أنتولوجى حينما يتحولان احالة موضوعية بهذه الطريقة ، والواقع أن الماضى والمستقبل ذاتيان . وهما جزءان من وجود الانســان الداخلى فحسب . والعقيدة التقليدية عن الجنة والنار هى فى الواقع من نتائج العمليات الموضوعية .

وللماضى كل المظاهر التى تدفع الى الاعتقاد بأنه قد تحدد ، وهذا هو المعنى الوحيد الذى يمكن أن نتحدث به عن الجبرية .. بيد أن هذا ينطوى أيضا على الاحالة الموضوعية وعلى الاحالة الخـــارجية للحوادث الداخلية . فحينما تستحيل الافعال الداخلية احالة موضـــوعية تبدو وكأنها تؤلف سلسلة ضرورية من الحوادث ، وأنها تتطور تطورا محددا . ولكن ، من التسرع أن نؤكد أن المستقبل ليس محددا على أية صورة من الصور ، اذ أنه من الممكن معاناة المستقبل بوصفه حرية ومصيرا ، غير أن المصير يستلزم الحرية أيضا . ومن ثم فهو ليس مرادفا للجبرية . وقد أشرت من قبـــل الى أن نظرية الكميـــة ونظرية الانفصـــال فى الفزياء الحديثـــة تدعو الى « اللاجبرية » وتنكر القوانين الطبيعية كما كانت تفهم فى القرن التاسع عشر (١) . واليوم تلعب المصـــادفة دورا عظيم الاهمية ، والمصادفة لا تستطيع بطبيعة الحـــال أن تتلاءم مع أية نتيجة محددة . والمصادفة أقرب الى الحرية بصورة لا متناهية من القوانين الطبيعية (٢) ، و « الأنا » فاعلة حرة ، وهى مصير حينمـــا تعـــانى المصادفة ، فقد يمكن تفسير لقاء حدث مصادفة . لقاء له تأثير دائم على مصير الانسان ـ بأنه نتيجة للحرية أو القدر ، أو قد يكون تحققا لعلة عليا فى الوجـــود ، أو علامة من عالم آخر ، ولكنه لن يكون أبدا نتيجة للجبرية . فهنا علاقة بين الزمان والحرية لم تفطن اليه مطلقا الجبرية المتسمة بالتطور .

---

(١) راجع مجموعة المقالات التى نشرها لوى دى بروليى وفياتون وغيرهما تحت عنوان المتصل والمنفصل » ، وهى مجموعة فى مجلد واحد تحت عنوان :
Les Cahiers de la Nouvelle Journée.

(٢) cf. E. Boutroux, De la Contingence des Lois de la Nature.

والزمان موجود لأن التغير موجود ، ولكن التغير يحدث دائما في أعمق أغوار الوجود · واحالة الموضوعية وحدها هي التي يمكنها آن تجعله يبدو نتيجة لسياق محدد ، أو للتطور أو عدم التطور · ولكن هل التغير خيانة للأبدية ؟ هذا الرأى من الآراء الشائعة التى يشترك فى اعتناقها هؤلاء الذين عقدوا العزم على التشبث بايمانهم فى النظام الثابت للطبيعة أو المجتمع · غير أن مثل هذا النظام لا وجود له خارج مرحلة موضوعية يمكن أن يصيبها التفكك والتحلل تحت ضغط الافعال الابداعية · فالتغير لا يستطيع اذن أن يؤثر على الابدية ، أو أن يكون خيانة لها ، لأنه لا يتصل بالزمان الابدى ، وانما بالزمان الماضى فحسب — الذى يخلق وهم الابدية · أما تحول العالم ، وبداية عالم جديد من السموات والارض فهو أعظم التغيرات وأقطعها · وهذا الشعور دليل على أن الابدية لا يمكن أن « تعايش » النظام الزمانى ·

والشخصية فى علاقة متناقضة مع الزمان ، والشخصية مرادفة للتغير والابداع المستمر ، وهى مع ذلك ثابتة فى الوقت نفسه ، ومن ثم فهى زمانية من ناحية ما دامت تحقق نفسها فى الزمان ، وهى تتحاشى الزمان من ناحية أخرى كما تتحاشى كل صورة من صور الاحالة المادية بحسبانها خطرا على وجودها · والتحولات التى تخضع لها الشخصية خلال وجودها تفترض علوها — أى الفعل الذى تتعالى به على نفسها · وتجربة العلو فى أعماق الوجود الداخلية هى عمل من أعمال العلو . وليست علوا موضوعيا فرض من الخارج ، والعلو الخارجى يحدث فى المستوى الثانوى الموضوعى فحسب ، ويمكن تصور ما هو عال باعتباره تيسرا تتصل به « الأنا » عن طريق عملية باطنة ، وهذا الاتصال الروحى يؤلف فعلا عاليا ينفذ الى أعمق أعماق الابدية ، ولا يحتاج الى الزمان الا فى العالم الموضوعى · وهكذا يفضى بنا البحث الى النظر فى مشكلة « الرؤيا » Apocalypse باعتبارها مشكلة من مشكلات الزمان ·

وترجع المصاعب التى تعترض فهم « الرؤيا » وتفسيرها الى هذه الحقيقة ، وهى أنها كأى « اسكاتولوجى » (علم أشراط الساعة) تعد كشفا عن الطبيعة المتناقضة للزمان ، كما أنها ترمز الى الصراع بين الزمان والابدية ، وما ينشأ عن هذا الصراع من متناقضات لا يمكن القضاء عليها · وثمة وسيلتان لتفسير « الرؤيا » : الاولى من وجهة نظر المستقبل والزمان ، والثانية من وجهة نظر الابدية وما فوق الزمان · وحينما نبحث مشكلة التناهى ، ومشكلة نهاية العالم والانسان يمكننا أن نسائل أنفسنا : هل هذه النهاية مرتبطة بالزمان — أى

بالمستقبل ؟ أم هل هي كامنة في الأشياء نفسها ، وفي مصير العالم والانسان خارج فكرة الزمان والمستقبل • ومن الممكن أن نصوغ تناقض الزمان الذى تنطوى عليه « الرؤيا » كالآتي : ان نهاية الزمان •• كل زمان ، وتحقيق الوجود اللازماني ستتم في الزمان ، في المستقبل • وهكذا نجد أن الكشف الرمزى عن الرؤيا يتعلق بالعالم الموضوعى والعالم فوق ــ الموضوعى على السواء ، وهو تاريخى وفوق التاريخى . وهو زمانى ، وأعلى من الزمان ــ أى أبدى • ومن المحال أن نصف الانتقال من الزمان الى الأبدية أو أن نفكر في العالم اللازماني في عبارات ذلك الجزء من الزمان المفكك الذى نسميه المستقبل • غير أن التصور يتضمن تناقضا •: لأن اللازمانية معناها الغاء كل ضروب المستقبل ، بل مجرد امكانية المستقبل • والمستقبل الذى يسبق اللازمانية ما زال هو مستقبلنا الزمنى الموضوعى ، وهذا يجعل من العسير علينا أن نتصور امكانية انقطاعه في أية مرحلة وتحوله الى ما فوق الزمان • ومن الحق أن هذا الحدث لا يمكن أن يقع في المستقبل •• في الزمان ، بل على مستوى آخر فنحن نواجه المستقبل دائما من مستوى موضوعى للوجود . أما « اللازمانية » فلا يمكن أن تواجه من مثل هذا الموقف • فاللازمانية معناها نهاية العالم الموضوعى ، وبلوغ الحياة الروحية الباطنية •

وهكذا نجد أن العقائد والتقاليد التى تتبعها الاسكاتولوجى المسيحية ممتلئة بالمصاعب التى لا يمكن التغلب عليها •• بل ان هذه العقائد والتقاليد لا تلقى أى ضوء على المصير الانسانى في انتقاله من الموت الى نهاية العالم • فكيف يمكن أن نوفق بين موت الانسان الفردى وبين بعثه مع فناء الكون وبعثه ؟ هذا هو التناقض الأساسى في الزمان ، تناقض المستقبل ، أعنى المستقبل الموضوعى • وان ما نسميه بالحياة الابدية ، ليس هو ما نعنيه بالحياة المقبلة • ويؤكد « هيدجر » أن القلق هو الدافع المسيطر على وجود الانسان الزمانى ، ومقولة « الآنية » Dasein تقوم عنده على أساس الطبيعة المتناهية للزمان ، وعلى فناء الوجود •• فالوجود وجود من أجل الموت Sein-Zum-Tode • وهكذا نجد أن تعريف الموت عنده هو « الوجود ــ الموجه ــ نحو ــ النهاية » • ويبدو أن « هيدجر » لا يعرف حلا آخر غيره للوجود ، والى هذا الحل يمكن أن نعزو طابع التشاؤم العميق في فلسفته التى لا تلعب فيها الابدية أى دور • وينطبق هذا القول أيضا على « برجسون » ، على

الرغم من أن فلسفته أشـــد تفاؤلا ، ذلك أن الديمومة عنده ليست هي الابدية (١) ٠

وتتعارض فكرة الابدية مع كابوس الزمان النهائى واللانهائى على السواء ، فالزمان ، كما لاحظنا آنفا هو العلاقة بعضها بين واقع وآخر ، كما أنه يفترض تغييرا فى تلك الوقائع وعلاقاتها بعضها بالبعض الآخر ٠ والتناهى مرادف للموت ، ولكنه يتصل بالزمان والمكان ٠ غير أن هذه الحقيقة وهى أن التناهى هو الموت تعد دليـلا على لاتناهى الزمان ٠٠٠ فلو أننا افترضنا نهاية الزمان لوقعنا فى التناقض ، لانه لو لم يكن الزمان لا متناهيا لانتفت بذلك نهاية الوجود ، ولما كان هناك شىء اسمه الموت ٠ فهناك اذن نوعان من اللاتناهى : أحدهما كمى ، والآخر كيفى ٠ وعلى ذلك يمكن الاقتراب من معالجة مشـــكلة اللاتناهى عن هذين الطريقين ، فاللاتناهى الكمى فان ، ولكنه يؤكد وجود الزمان اللامتناهى ٠ واللاتناهى الكيفى ينتصر على الموت ، ويؤكد الطـــابع المتناهى للزمان والقدرة على معـــالجة شر الزمان ٠ ويعتقد بعض الفلاســـفة من أمثال « رنوفييه » أن كل متناه كامل ، وأن كل لا متناه ناقص ٠ هذا هو على التحديد مثار الجدل فى الفلسفة القديمة ، وهو صحيح من وجهة نظر اللاتناهى ، ولكنه خاطىء فى حدود اللاتناهى الكيفى ٠ والابدية هى على وجه الدقة هذا اللاتناهى الكيفى ، وهى وحدها التى تقـــدم حلا لتناقض الزمان ٠

والابدية تقوم فى العالم فوق ــ الطبيعى ٠٠ بعيدا عن عالم اللاتناهى الكيفى والزمان المنقسم من الناحية الرياضية ٠ والزمان العددى لا يتحكم فى الحياة الداخلية ، وشدة هذه الحياة تعدل من طبيعة الزمان ، وتضفى عليه بعدا جديدا ٠٠ بيد أن هذه مسألة ينبغى على كل فرد منا أن يحاول كشفها بتجربته الشخصية وحدها ٠ والسعداء لا يحســـون بمضى الساعات ، أما الاشقياء فانهم يتحملون أبدية من العذاب المقيم ٠ وكلنا نعلم كيف يسرع الوقت أو يبطىء وفقا لشدة الحياة وطبيعة الاحداث التى يتألف منها الوجود الانسانى ٠ وقد يفقد الطابع الرياضى للزمان كل دلالة ، وقد يستطيع الوجود الانسانى أن يحرر نفسه من سيطرة الساعة والنتيجة ٠٠ ولو كان علينا أن نحصى الساعات ، فلا شك أننا نصبح تعساء ٠ وكذلك يستطيع الالهام الابداعى أن يستغنى عن الزمان العددى. فهو علامة من علامات الأبدية حينما تتدخل فى الزمان ٠ أما غير الأبدى،

---

(١) zzVide A. Eggenspielecr, Durée et Instant.

أو ما ليس له أصل أو هدف أبدى ، فلا يمكن أن تكون له أية صحه ، والهلاك مقدر عليه • والزمان الذى لا يشارك فى الابدية هو زمان منحط، غير أن الزمان يعد أيضا لحظة من لحظات الأبدية ، وهذا هو التبرير الوحيد له ، وهكذا نرى أن تناقض الزمان مبهم لان أساسه التناقض •

وتعذب الانسان مشكلتان أساسيتان يلقيان الضـــوء على جميع المشكلات الأخرى : مشكلة الأصل الأساسى ، ومشكلة المستقبل والهدف والغاية • وكلتا هاتين المشكلتين ترتبط ارتباطا لا انفصـــام له بفكرة الزمان ، وتشهد كلتاهما بأن الزمان هو حقا مصير الانسان الداخلى •• بيد أن البداية والنهاية ، الأصل والغاية ، تمتد عبر الزمان • وزمانية الوجود الانسانى نتيجة لحالة منحطة على الرغم من أن طبيعته الاساسية فوق ــ الزمان • غير أن المسار الزمانى للطبيعة الانسانية محصور فى المرحلة الوسطى التى تتعرض لشر الزمان المميت ، ولهذا السبب فان الزمن زاخر بالحنين الى الماضى والى المستقبل على السواء ، والخـوف من المستقبل هو الى حد ما خوف من الموت ، وهذا بدوره خوف من الجزاء • وهذا الخوف يثيره فى النفس الجانب الزمانى من المصـــير الانسانى ، وافتقار الزمان الى التناهى ــ أى الخوف من الاحالة المادية اللامتناهية • وما نخافه من المستقبل ليس هو الفعل وانما الموضوع ، وليس ما نستطيع أن نخلقه ، بل ما يمكن أن نحتمله • وقد يوحى الينا المستقبل بالأمل أو الجزع ، وعلى كل انسان أن يحيا رؤياه الداخلية التى تقوم على التناقض الأساسى للزمان والابدية ، والتنـــــاهى واللاتناهى •• وهذه « الرؤيا » تكشف عن السبل التى نستطيع بها تحقيق شخصياتنا • وهكذا نواجه من جديد مشكلة الشخصية •

التأمل الخامس

■ الشخصية والمجتمع والاتصال الرّوحي

الفصل الأول

- الأنا والشخصية
- الفرد والشخصية
- الشخصية والشيء
- الشخصية والموضوع

مشكلة الشخصية هي المشكلة الاساسية في الفلسفة الوجودية (١) · وأنا « أنا » قبل أن أصبح شخصية · فالأنا أولية ولا اختلاف فيها أو تنوع ، وهي لا تفترض مذهبا في الشخصية · الأنا مفروضة منذ البداية ، أما الشخصية فمطروحة للبحث · وغرض « الأنا » تحقيق شخصيتها ، وهذا يجرها الى صراع لا ينقطع ، والشعور بالشخصية ومحاولة تحقيقها مفعمان بالالم · وكثيرون يؤثرون اطراح شخصيتهم على احتمال العذاب الذي يجلبه عليهم تحقيق هذه الشخصية· وترتبط فكرة الجحيم التي لا يعرف الوجود اللاشخصي عنها شيئا ــ بهذه المحاولة الانسانية للمحافظة على الشخصية وتنميتها · وليست الشخصية هي الفرد (٢) ، لأن الفرد مقولة بيولوجية طبيعية لا تشمل النبات والحيوان وحدهما ، ولكنها تشمل أيضا الحجر والزجاج والقلم ··

---

(١) كان هذا الكتاب قد وجد طريقه الى المطبعة عندما وقعت على كتاب هارتمان الجديد
Dos Problem des geistigen Gesist.

ومضمون هذا الكتاب خليق بالاهتمام بيد أن تعريفي للموضوع يختلف اختلافا أساسيا عن تعريف هارتمان · ومن ذلك مثلا انني لا أعترف بوجود روح موضوعية لأن الروح لا يمكن أن تكون موضوعية ·

(٢) يميز « ماريتان » من وجهة نظر الفلسفة القومية (نسبة الى القديس توما الاكويني) بين الفرد كجزء ، والشخصية ككل أنظر كتابه « النظام الزماني والحرية » · Du Régime temporel et de la liberté.

أما الشخصية فمقولة روحية ، هي الروح محققة لنفسها في الطبيعة والشخصية هي التعبير المباشر عن صدمة الروح لطبيعة الانسان الجسدية والنفسية . وقد لا يتمتع فرد لامع بأية شخصية . وقد يكون بعض الرجال الذين يتمتعون بمواهب عظيمة وبالفردية ممن لا شخصية لهم ، بل قد يكونون عاجزين عن بذل المجهود الذى يتطلبه تحقيق شخصياتهم . وقد نقول عن شخص ما انه يفتقر الى الشخصية ، ولكننا لا نستطيع في الوقت نفسه انكار فرديته . وكان كل من « مين دى بيران » و «رافيسون» يعتقد أن الشخصية ترتبط ارتباطا وثيقا بالمجهود البشرى الذى لا ينفصل بدوره عن العذاب ، وهذا المجهود متحرر من كل تحديد خارجي . والشخصية ، فوق الطبيعة ، وهي تتصل بالله اتصالا حميما ، وهي تفترض ما فوق ـ الشخصي . ولا يمكن أن توجد الا من اجل قوة عليا ومضمون فوق ـ شخصي . والشخصية قبل كل شيء مقولة من مقولات القيمة axiological ، هي تحقيق لغاية وجودية ، أما الفرد فلا يفترض بالضرورة مثل هذه الغاية ، ولا يضفي على الحياة أية قيمة من ناحية أخرى .

والشخصية ليست جوهرية بأى معنى من المعانى ، وتصورها على أنها جوهرية معناه أن نتخذ موقفا طبيعيا لا وجوديا . ويعرف « ماكس شيللر » الشخصية تعريفا أكثر صحة بأنها اتحاد أفعالنا بامكانيات هذه الأفعال (١) . ويمكن تعريف الشخصية أيضا بأنها وحدة معقدة ، مؤلفة من الروح والنفس والجسم . فان أى وحدة روحية مجردة ينقصها التنوع والتعقيد لا يمكن أن تؤلف شخصية ، فالشخصية شاملة اذ تستوعب الروح والنفس والجسم جميعا ، والجسم جزء متكامل مع الشخصية ، وله مكانه لا في المجال المادى فحسب بل في المجال الادراكي أيضا .

والشخصية رمز أيضا على التكامل الانساني ، وعلى القيم الدائمة ، وعلى صورة ثابتة فريدة خلقت وسط تدفق لا ينقطع جريانه . وبهذه الطريقة تحفظ الذاتية الفردية للجسد رغم التجدد التام والتغير اللذين يعتريان تركيبها المادى . وتفترض الشخصية شيئا أبعد من ذلك ألا وهو وجود مبدأ مظلم عنيف لا عقلي ، كما تفترض قدرة في الروح على معاناة الانفعالات العارمة ، وكذلك تفترض أيضا انتصار الروح

---

(١) Max Scheller, Der Formalismus in der Ethik und die materiale Werthetik.

النهائي الدائم على هذا المبدأ اللامعقول · وعلى الرغم من أن جـذور الشخصية تمتد في اللاوعي ، فان الشخصية تقتضي وعيا ذاتيا حادا ، وشعورا بوحدتها وسط ما يحيط بها من تغير · والشخصية مرهفة الحس بالنسبة لكل تيارات الحياة الاجتماعية والكونية ، وهي مفتوحة على عديد متنوع من التجارب ، ولكنها تحاذر من أن تفقد ذاتيتها في المجتمع أو في الكون ، والنزعة الشخصية تتعارض مع وحدة الوجود الكونية والاجتماعية على السواء · ومهما يكن من أمر فللشخصية الانسانية مضمون وأساس ماديان ، وهي لا يمكن أن تكون جزءا من أي كل اجتماعي أو كوني (١) ، فان لها صحة Validity مستقلة تمنعها من أن تتحول الى وسيلة · وهذه بديهية من النوع الاخلاقي ··· ذلك النوع الذي مكن « كنت » من التعبير عن حقيقة خالدة بطريقة شكلية خالصة · وليست الشخصية من وجهة النظر الطبيعية سوى جزء دقيق من الطبيعة ، وهي من وجهة النظر الاجتماعية جزء ضئيل من المجتمع ، ولكنها من وجهة النظر الوجودية والفلسفة الروحية لا يمكن أن نتصور الشخصية على أنها شيء جزئي فردي في مقابل ما هو عام أو كلي · وهذا القضاء الذي يميز الحياة الطبيعية والاجتماعية لا يمكن أن ينطبق على الشخصية الانسانية ، وما فوق ــ الشخصي يساعد على بناء الشخصية ، بينما يكون العام أساس الجزئي دون أن يحول الشخصية الى وسيلة · وهنا يكمن سر الشخصية ، سر يقوم على تعايش النقيضين · والخطأ الذي تقع فيه النزعة الى الشمول ــ التي كان ينبغي أن تجعل من الشخصية جزءا عضويا من العالم ــ يكمن في تصورها اللاعضوي للشخصية · وجميع النظريات الاجتماعية ذات طابع لا شخصي ، وهي تخلع على الشخصية وظيفة عضوية بحتة · وينبغي علينا لكي نفهم الشخصية أن نلتمس العلاقة بين الجزء والكل لا من وجهة النظار الطبيعية ، بل من وجهة النظر التقويمية axiological فالشخصية لا يمكن أن تكون جزءا على الاطلاق ، ولكنها دائما كل واحد ، وهي لا يمكن أن تكون من معطيات العالم الخارجي أبدا ، ولكنها من معطيات العالم الداخلي للوجود دائما أبدا · وهي ليست موضوعا ، ولا مكان لها في العالم الموضوعي المجرد · هي ليست من هذا العالم ، وحينما أواجه « الشخصية » فانني أكون في حضور « أنت » هي ليست موضوعا أو شيئا أو جوهرا ، كما

---

(١) أنظر كتاب ليفي برول القيم والنفس البدائية L'Ame Primitive وخاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين الفردي والجماعي في المجتمعات البدائية ·

أنها ليست صورة موضوعية للحياة النفسية ـ أى موضوع علم النفس . وهكذا يصبح انتصار الشخصية الغاء للعالم الموضوعى . وللشخصية « صورة » image ـ أى شكل عينى ، بيد أن هذه الصورة تعبير عن كل ، وليست جزءا على الاطلاق . والشخصية هى التحقق الذى يتم داخل الفرد الطبيعى لفكرته ، أو للغرض الالهى الذى يسعى اليه . وهى لذلك تفترض الفعل الخالص ، والانتصار على الذات . الشخصية روح ، وهى على هذا الاساس مضادة للشيء ولعالم الأشـــياء ... عالم الظواهر الطبيعية ، وهى تكشف عن عالم الناس ... عن عالم الكائنات العينية بفضل علاقاتهم واتصـــالهم الوجـودى . والشخصية تفترض الانفصال . ومن ثم فهى تتنافى مع الواحدية . ولأنها ضمير فهى لا يمكن أن تتحدد بأى تركيب نفسى ـ فزيائى ، بل تمتد جذورها فى نظام آخر . الشخصية حياة واحدة فريدة وتاريخ . والوجود تاريخى دواما .

وعلى الرغـم من أن فلسفة « شترن » ذات نزعة عقلية أساسية الا أنها شخصية فى وضعها للتعارض بين الشخصين والشيء (١) ، وهو تمييز يحل محل التمييز القديم بين الروح والمادة . ويعرف « شترن » الشخصية بأنها ذلك الشيء الوجودى الذى يستطيع أن يؤلف ـ رغم ما فيه من تعـــدد ـ وحدة ذات أصالة وقيمة ، وهو رغم كثرة وظائفه الجزئية ـ وحدة تتميز بالاستقلال والغائية . وهذا التمييز صحيح من وجهة النظر الفزيائية كما هو صحيح من وجهة النظر النفسية . والصفة الأساسية للشخصية فى نظر « شترن » هى الوحدة المتعددة ، الشخصية كل متكامل ، وليست حاصلا لمجموع الاجزاء وهى غاية فى ذاتها ، بينما « الشيء » وسيلة لغاية ما . والملكة التى تجعل من الانسان فاعلا حرا هى الصفة الأساسية للشخصية .

ويضع « شترن » نظاما تصاعديا لشخصيات يتجاوز بعضها البعض الآخر ، بل انه يتورط فيضع الأمة فى هذا النظام التصاعدى (٢) . وهنا يكمن التهافت فى مذهبه ، فالأمة فرد ، ولكنها ليست مقولة شخصية .

---

(١) يمكن أن نجد عرضا موجزا لهذه النظرية فى كتابه Grundgedanken der personalistischen Philosophie اما كتاب شترن الرئيس فهو Person und Sache, System der Philosophischen Weltanschauung.

(٢) ريدعو جرفتش الى مذهب مضاد للفردية حيث لا يوجد نظام تصاعدى ، وهو مدين بذلك لكراوس وبرودون بشكل واضح .

cf. G. Gurvitch, L'Idée de Droit Social

غير أن « شترن » استطاع على الرغم من ذلك أن يميز عددا من السمات الخاصة التى تفرق بين الشخصية والشىء · ولكن تعريفه عقلى كالغالبية العظمى من التعاريف ، ومن ثم فان مذهبه الشخصى لا يمكن أن يدعى أنه وجودى بالمعنى الصحيح ، وماهية الشخصية تفلت من بين يديه ، ونزعته الشخصية ليست انسانية على الاخص لان مقولة الشخصية عنده تشمل الموضوعات والمجموعات التى لا يعود فيها الانسان مركزا للاهتمام· وأهم الصفات التى تميز الشخصية عن « الشىء » هو أنها تستطيع معاناة الحزن والفرح ، وهى تمتلك تلك الحساسية التى تفتقر اليها ــ الحقائق فوق ــ الشخصية ، والشعور بمصير فريد غير منقسم هو أهم مقوماتها · وهذا هو الجانب اللاعقلى المطلق من وجود الشخصية ، بينما تؤلف حرية الاختيار جانبها العقلى · والصفة الأساسية للشخصية لا تقوم فى علمها بالغايات ، وانما فى قدرتها على تحقيق خليط متناقض من الحرية مع المصير المكتوب أو القدر حينما تجتاز مصيرا محفوفا بالمكارة ·

ومن طريف ما يذكر أن الكلمة اللاتينية «persona» معناها قناع ، ولهذه الكلمة ارتباطات مسرحية ، فالشخصية هى أساسا قناع يستخدمه الانسان لا ليظهر به أمام العالم فحسب ، بل ليحمى نفسه من تعاسته أيضا · وهكذا نجد أن التمثيل والعرض لا يرمزان الى رغبة الانسان فى تمثيل دور الحياة فحسب ، وانما يرمزان أيضا الى حاجته لحماية نفسه من العالم المحيط به ، والى الاحتفاظ بذاتيته فى أعماق الوجود (١) · وللغريزة المسرحية دلالة مزدوجة ، فهى من ناحية نتيجة لظروف الانسان الاجتماعية وحياته وسط أقرانه من الناس الذين يود أن يمثل بينهم دورا ، وأن يشغل مركزا · فالغريزة المسرحية اجتماعية بطبعها ، وهى ترمز من ناحية أخرى الى توحد « الأنا » مع « أنا » أخرى أو حلولها فى شخصية أخرى وهذه بلا شك علامة على أن الشخصية قد أخفقت فى التغلب على عزلتها فى المجتمع ، وفى الاتصال الطبيعى بين الناس ، والانسان وحيد دائما فى تنكره · وقد حاولت الطقوس الديونيزيوسية الانتصار على العزلة بالغاء الشخصية · والعزلة لا يمكن القضاء عليها حقا الا بالاتصال الروحى ، وبمعرفة العالم الروحى ، لا فى العالم الاجتماعى المألوف بين الناس وما بينهم من علاقات موضوعية · وحينما يتحقق الاتصال الروحى الحقيقى تصبح الشخصية نفسها ، وتخضع لما تمليه عليها طبيعتها بدلا من أن تحل فى « أنا » أخرى وهى

---

(١) أنظر الكتاب المذكور آنفا من تاليف « افراينوف » Evreinoff

تتحد مع « الأنت » وتحتفظ بذاتيتهـا فى الوقت نفسه ، ولكن حينما تنغمس الشخصية وسط الجموع ٠٠ وسط العالم الموضوعى ، فانها تسعى لأن تلعب دورا مرسوما ، وأن تحل فى الآخرين ، ومن ثم تكف عن أن تكون شخصية ، بل مجرد شخص أو فرد ٠ والمركز الاجتماعى يتطلب عامة القيام بدور ، واتخاذ قناع ، وتجسيد شخصية مفروضة من الخارج ٠ غير أن الشخصية فى المستوى الوجودى والمستوى فوق ـ الطبيعى وفوق ـ الاجتماعى ، تصر على أن تكون نفسها ، ويسعى الانسان للعثور على انعكاسه الخاص فى ملامح انسانية أخرى ـ أى فى « الأنت » ـ وهذا الشوق الى الانعكاس انعكاسا حقيقيا كامن فى الشخصية وصورتها ، وهذه الصورة تبحث عن مرآة أمينة ، وهذا بدوره ينطوى على شىء من النرجسية ، والحب ، وصورة المحب ، مرآة أمينة ، هى هذا الاتصال الروحى المنشود ٠ وثمة شىء يبعث على الأسى فى التصوير الفوتوغرافى الذى لايعكس الملامح العاشقة وانما يحيلها الحالة موضوعية ، وبذلك يسلبها تعبيرها الصحيح ٠

وليس ثمة ما هو أكثر دلالة ، ولا أكثر قدرة على انعكاس سر الوجود من الصورة الانسانية (١) ، وهى ترتبط ارتباطا وثيقا بمشكلة الشخصية ، وهى كشعاع من الضوء الصادر عن العالم الملفع بالأسرار للوجود الانسانى ـ الذى يعكس العالم الالهى أيضا ـ تهتك حجب العالم الموضوعى ٠ وبفضل ذلك تستطيع الشخصية أن تدخل فى اتصال روحى مع شخصيات أخرى ٠ ولا مجال للمقارنة بين الادراك الحسى للملامح وبين الظاهرة الفزيائية ، فتلك اتصال النفس بالروح ، ومن الواضح أن الانسان كائن متكامل غير منقسم الى جسد وروح ، والى جسد ونفس ، فهو يرمز الى انتصار الروح على مقاومة المادة ، وهذا هو حقا تعريف برجسون للجسد ، ولكنه ينطبق قبل كل شىء على الصورة الانسانية ، وليس تعبير العينين موضوعا أو ظاهرة فزيائية ، فهو التحقق الخالص للوجود ، وظهور الروح فى صورة عينية ٠ والموضوع يخدم الغايات الانسانية فحسب ، والصورة الانسانية لا وجود لها الا من أجل الاتصال الروحى ٠ وقد لاحظ « شترن » بحق أن وجود الشخصية وراء ما هو نفسى وفزيائى ٠

وقد تستطيع « الأنا » تحقيق نفسها ، وأن تصبح شخصية ، ولكن هذا التحقيق يصاحبه دائما وأبدا التحديد الذاتى وخضوع

---

(١) cf. M. Picard. Das Menshengesicht.

الذات الحر لما هو فوق ــ الشخصي ، وابداع القيم فوق ــ الشخصية ، والهروب من الذات ، والنفاذ الى ذوات أخرى • وقد تظل الذات أيضا عاكفة على نفسها مستغرقة فيها ، عاجزة عن آن تكون في توحد مع الآخرين ، غير أن التركيز الذاتي قاتل لتطور الشخصيه ، وهو العقبه الكبرى في سبيل تحققها ، أما التطور الحر للشخصية فيستبعد الاهتمام بالذات ، ويقوم كلية على تطلع الذات الى الاتصال بال «أنت» وال «نحن» • والشخص المركز حول نفسه خال من كل شخصية ومن كل شعور بالواقع ، والعالم الذى يعيش فيه يموج بالتهاويل والأوهام والسراب • أما الشخصية فتفترض الشعور بالوقائع والقدرة على فهمها • وتفضى الفردية المتطرفة الى انتفاء الشخصية ، والشخصية اجتماعية من وجهة النظر الميتافيزيقية لأنها تشعر بالحاجة الى الاتصال بالآخرين • وعلم الأخلاق ذو النزعة الشخصية يتجه أيضا ضد النزعة الى التمركز حول الذات (١) التى تهدد احتفاظ الانسان بذاتيته ووحدته وشخصيته • والتمركز حول الذات يمكن أن يؤدى حقيقة الى تحطيم هذه الذاتية وتفتيتها الى لحظات متميزة غير مرتبطة بأى خيط من خيوط الذاكرة . والرجل العاكف على نفسه قد لا تكون له أية ذاكرة ، بل قد يفتقر الى ماهية الذاتية الشخصية ووحدتها نفسها • والذاكرة ظاهرة روحية ، وهى محاولة روحية للمحافظة على وجود الانسان من تأثير الزمان الذى يصيبهما بالتفكك • وتاثير الزمان الضار هو تفكيك وحدة الشخصية الى أجزاء منفصلة ، غير أن هذا الضرر لا قدرة له على خلق شخصية متكاملة على صورته ، وهكذا يبقى دائما عنصر من عناصر الخير ، والنضال من أجل الاحتفاظ بالشخصية يوجه أيضا ضد جنون العظمة ، وضد الجنون عامة • والتوقف عن هذا النضال قد يؤدى الى اختلال القوى العقلية وفقدان كل احساس بالواقع • وتعانى النسوة المصابات بالهستيريا من اختلال التوازن عادة ، وهن يستغرقن فى « الأنا » ، وهى حالة ذهنية مدمرة تماما للشخصية • والشخصية المنقسمة نتيجة أيضا لهذا التمركز حول الذات • والنزعة الانعزالية ــ وان لم تكن غير رياضة ذهنية فى الفلسفة ــ مرادفة فى علم النفس لانتفاء الشخصية ، واذا كانت « الأنا » مكتفية بذاتها ، فلا مجال لاثارة مشكلة الشخصية • وثمة أشكال مختلفة من الأنانية ، بعضها سطحى شائع ، وبعضها الآخر متطرف مثالى • والمثالية الأنانية ليست ملائمة بحال لتطور الشخصية • والفلسفة المثالية كما ظهرت فى الفلسفة

(١)

الألمانية فى القرن التاسع عشر تؤدى مباشرة الى النزعة اللاشخصية ، ويتضح ذلك خاصة فى نظرية « فخته » عن « الأنا » التى انتزع منها كل الصفات الانسانية . وتتجلى الآثار الضارة لهذه النزعة اللاشخصية فى مذهب « هيجل » خاصة عن الدولة .

والواحدية فى أية صورة من صورها لا تتفق مع النزعة الشخصية . وفكرة الشخصية تقتضى الثنائية . والمذهب الواحدى عن « الأنا » الكلية لا يتفق فى شىء مع مذهب الشخصية . ومهما يكن من أمر فاننا قلما نعثر على النزعة الشخصية فى الفلسفة (١) . والمذاهب العقلية كلها واحدية بلا استثناء ، وقد ظل لغز الشخصية محيرا أشد الحيرة للفكر الفلسفى باعتباره أكثر الالغاز اعتمادا على الوحى لحله . وليست الشخصية ظاهرة طبيعية — كما هى الحال بالنسبة للفرد ، كما أنها ليست من معطيات العالم الطبيعى أو الموضوعى . والشخصية صورة خلقت على مثال الله (٢) ، وهذه هى دعواها الوحيدة للوجود ، فهى تنتسب الى النظام الروحى ، وتكشف عن نفسها فى مصير الوجود ، وجوانب المعرفة التى تعزو الصفات الانسانية الى الله ترتبط ارتباطا وثيقا — رغم ما تقوم به من تشويه غالبا — بمصير الشخصية ، وبالتشابه المباشر بين الصورتين الالهية والانسانية ، وهذا أقوى دليل على التمييز الحقيقى بين الشخصية والتمركز حول الذات .

ويوجد الأساس الأنتولوجى للشخصية الانسانية تبعا للمسيحية — فى القلب الذى لايمثل عنصرا متباينا للطبيعة الانسانية ، بل كلا متكاملا، وهى تمثل أيضا ماهية المعرفة الفلسفية للانسان ، والذكاء وحده لايمكنه أن يؤلف مثل هذا اللباب للشخصية الانسانية . وفضلا عن ذلك فان علم النفس وعلم الانسان المعاصرين يرفضان التقسيم القديم للطبيعة الانسانية الى عناصر عقلية وارادية ووجدانية ، فالقلب ليس واحدا من هذه العناصر المتميزة ، وانما هو موطن الحكمة ، وعضو الضمير الأخلاقى ، والعضو الأعلى لكل تقويم .

ومن الضرورى التمييز بين المعنيين اللذين يمكن بهما تفسير فكرة الشخصية ذلك أن وجود الشخصية وجود متميز أصيل ، ولا ارتباط بينه

---

(١) يعتقد الأب « لابرتونيير » أن النزعة الشخصية هى الفلسفة المسيحية الوحيدة ، وقد بدأت الفلسفة الشخصية « بمين دى بيران » .

(٢) هذه هى النظرية المسيحية وهى تخالف معتقدات المسلمين .

وبين أى وجود آخر · والفكرة التى تكمن وراء الشخصية ارستقراطية بمعنى أنها لاتستطيع أن تقبل أى تشويش ، وانما تقتضى الاختيار ومستوى كيفيا معينا ، وهكذا تصبح مشكلة الشخصية مشكلة عالمة هى مشكلة الشخصية التى لها رسالة معينة ، وهدف فى الحياة ، ولها القوة الخلاقة للوصول الى هذا الهدف · وانتشار الأشكال الديموقراطية فى مجتمع ما قد يساعد على تحطيم الشخصية ، والوصول الى مستوى عام عادى واحالة الناس جميعا الى هذا المستوى ، وأخيرا خلق شخصيات « لاشخصية » · وهذا التأكيد يمكن أن يغرينا باستنتاج أن أساس التاريخ والحضارة يقوم على تنمية عدد ضئيل من الشخصيات الاستثنائية ذات أصالة كيفية وذات مواهب ابداعية خارقة ، وقد نستنتج من ذلك أن الغالبية العظمى من البشر قد قدر عليهم أن تبتلعهم حياة لاشخصية مغمورة ، وربما كان هذا الحل مقبولا من وجهة النظر الطبيعية ، ولكنه ليس كذلك بالنسبة للمسيحية ، اذ تؤكد المسيحية أن لكل انسان القدرة على أن يصير شخصية ، وينبغى أنه تتاح له الفرصة ليصل الى هذه الغاية · ولكل شخصية انسانية قيمة باطنية ، وكل الناس سواء أمام الله ، وكلهم مدعوون لاقتسام الحياة الأبدية والمشاطرة فى مملكة الله · وما نجده من عدم مساواة عميقة الجذور بين مواهب الناس وصفاتهم ورسالاتهم وسجاياهم لا تناقض هذا الغرض · وتقوم المساواة فى حالة الشخصية على أساس نظام تصاعدى للصفات الأصيلة المتنوعة · ولا يتحدد عدم المساواة الأنتولوجى بين الناس بالمركز الاجتماعى الذى يعد انقلابا للنظام التصاعدى الصادق ، وانما تحدده صفاتهم الحقيقية ومواهبهم ومزاياهم · وهكذا يمزج مذهب الشخصية بين المبادىء الارستقراطية والديموقراطية وأى مذهب ميتافيزيقى يقوم على أساس المبادىء الديموقراطية الخاصة خليق بأن يسىء فهم مشكلة الشخصية ، واساءة الفهم نتيجة لخطأ روحى أكثر من أن تكون نتيجة لخطأ سياسى ·

الفصل الثانى

- الشخصية والعام
- الشخصية والنوع
- الشخصية وما فوق الشخصى
- الواحدية ومذهب الكثرة
- الواحد والمتعدد

ترتبط مشكلة الشخصية أيضا بمشكلة الجزئى والكلى التقليدية كما تنظر اليها الفلسفات الواقعية والاسمية ، ومن الشائع أن المذهب الاسمى أكثر ملاءمة للشخصية من المذهب الواقعى . ولقد مالت التيارات الفردية فى الفكر الأوربى الى أن تكون اسمية دائما ، بينما لم تقم مشكلة الشخصية أو الفردية فى الفلسفة اليونانية بأى دور على الاطلاق ، وكان من الظاهر أن الافلاطونية غير قادرة على ادراك امكانية الانتقال من العدم الى الوجود ، اذ كانت ترى أن الوجود أصبح فرديا حين أضيف اليه العدم فحسب ، وأن الوجود يصبح عاما حين نجرده من العدم . بيد أن مشكلة « العام » قد أسيء وضعها فى أغلب الأحيان لأن أصلها الاجتماعى والموضوعى كان من نصيبه التجاهل عادة . و « العام » The General ليس مقولة وجودية ، ولكنه مقولة اجتماعية بحتة . و « العام » ـ باعتباره مضادا لما هو فردى ـ لايكون حقيقيا الا اذا كان هو نفسه فرديا فريدا ، أما العام اللافردى فهو مقولة منطقية أكثر من أن يكون مقولة انتولوجية ، ودلالته المنطقية تتحدد بدرجة الاتصال القائمة بين وعيين لا رابطة من الاتصال الروحى بينهما ، وبعبارة أخرى ، ما دامت اللفظتان : موضوعية واجتماعية ، مترادفتين فان طبيعتهما أساسا اجتماعية . وتصور « العام » نشأ نتيجة لظروف اجتماعية لا صلة بينها وبين الاتصال الروحى ، وهذا التصور ـ أى تصور العام ـ يقيم نوعا

من الذاتية يجعل الاتصال العادى ممكنا ، ولكنه لايفيد من ناحية خلق « الألفة » ، أو « الاتصال الروحى » الداخلى . وهذا هو حقـــا العامل الحاســـم فى مشكلة الشـــخصية . والعمليات الموضوعية والاجتماعية نفضى بنا الى العدد الذى يصبح مقياسا للأشياء جميعا فى مجال « العام »، وقانون العدد يتحكم فى المجتمع ، بل تمتد سيطرته أيضا على المعرفة فى شكلها الاجتماعى . وحينما يسود قانون العدد ، ويتعايش الجزء مع الكل ، فهنا نواجه الموضوع باعتباره عقبة فى ســـبيل الوجود الحقيقى أو الحياة الروحية . والحياة الروحية لاتحسب حسابا للعدد ، وانما رمزها « الوحدة » unity ، وهى لاتهتم بمقولات العـــالم المنقسم ، أو الكل أو الجزء ، أو العام والفردى . ويرى « كيركجورد » من وجهـــة النظر الدينية أن للفرد الأولوية على النوع ، وأنا على استعداد تام لتأييد هذا الرأى على شرط أن تحل كلمة « الشخصية » محل كلمة « الفرد » وهى تنتمى الى المقولة ذاتها التى تنتمى اليها فكرة النوع . وحينما نعرف الشخصية فمن المهم أن ندركها على أنها كل ، وليست جزءا ، بل ولا يمكن أن تكون جزءا فى لحظة من اللحظات . وليست الشخصية شيئا جزئيا فى مقابل ما هو عام ، وهى لايمكن أن تكون جزءا بالنســـبة للمجتمع أو بالنسبة لأى كل عام الا حينما تتحول تحولا موضوعيـــا . بيـــد أن الشخصية لايمكن أن تكون من الناحيـــة الباطنيـــة جزءا من أى جنس كالطبيعة أو المجتمع .. الشخصـــية روح وهى تنتسب الى عالم الروح الذى يتجاهل تماما كل ارتباط بين الجزء والكل ، بين الفردى والعام .

والعزلة هى النتيجة المباشرة للضغط الذى يفرضه العالم الطبيعى والاجتماعى على الشخصية لتحويلها الى موضـــوع ، ولكن ، للشخصـــية وظيفة خالقة عليها أن تمارسها فى الحياة الاجتماعية والكونيـــة ، ومن الناحية الروحية لايمكن عزل الشخصية لأنها تفترض وجود الآخرين .. وجـــود « الأنت » و « نحن » دون أن تصـــبح فى الوقت نفســـه جزءا أو وسيلة . وعزلة الأنا تتولد عن وجودها الموضوعى ، وتحدث فى العالم الطبيعى وحده . ويتمثل عدم انطباق مقولة العدد على الشخصية أحسن تمثيل فى هذه الحقيقة وهى أن شخصية انسانية واحدة قد تكون أفضل من شخصين ، أو من عدد كبير من الأشخاص ، بل من مجتمع بأسره . فليس عشرة رجال ضعف خمسة ، وليس مائة عشرة أضعاف عشرة .

والشخصية هى المقولة الرئيســـية فى المعرفة الوجودية ، وكلتا النزعتين الجزئية والكلية سواء فى الخطأ باعتبارهما نتاج الفكر العقلى الخالص الخاضع لقوانين العالم الموضوعى . والتضـــاد القائم بين الكلى

والجزئي تضاد موضوعي خاص • وليست الشخصية شيئا متحيزا أو جزئيا ، وهذا واضح فعلا في أنها لاتؤلف مطلقا جزءا من شيء • والجزئي لايمكن أن يحيط بالكلي ، وخطأ النزعة الجزئية يكمن في محاولتها اضفاء صفة الكلية على الجزئي ، وهذه بلا شك محاولة خطيرة • ولأن للشخصية مضمونا كليا ، فانها تتميز عن الجزئي والتحيز على السواء ، وهي تستطيع أن تفعل ما لا يستطيع جزء ما أن يتطلع اليه . فهي تستطيع أن تحقق نفسها في أثناء العملية التي تجعل بها مضمونها كليا • فهي وحدة وسط التعدد ، ومن ثم تستطيع أن تفهم الكون • اما من وجهة نظر العالم الموضوعي ، فان وجود الشخصية تناقض ما في ذلك شك ، **فالشخصية هي التضاد المجسد للفردي والاجتماعي ، للصورة والمادة ، للمتناهي واللامتناهي ، للحرية والمصير** • ولهذا السبب فان الشخصية لايمكن أن تكون كلا كاملا ، لأنها ليست من المعطيات الموضوعية ، فهي تشكل وتخلق نفسها لأنها ديناميكية ، وهي أساسا اتحاد المتناهي باللامتناهي ، ومن الممكن أن تنحل الى لا شيء عندما تتخطى حدودها ودعامتها ، وحينما تنتقل الى اللامتناهي الكوني • ولكن الشخصية لا يمكن أن تكون صورة أو مشابهة لله ان لم تكن لها قدرة لا متناهية ، فما من شيء جزئي يستطيع أن يحيط بهذا المضمون اللامتناهي ، والشخصية هي وحدها التي تستطيع القيام بهذا الدور لأنها غير منقسمة ، وفي هذا يكمن سرها الرئيسي • والشخصية الانسانية هي وحدها التي تمثل النقطة التي تتقاطع عندها عوالم متعددة لا يتضمنها أحد هذه العوالم تماما • ولهذا فانها لاتنتسب الا انتسابا جزئيا — لأي مجتمع أو دولة أو طائفة ، أو حتى للكون ، ومن ثم فان الشخصية توجد على مستويات متعددة ، ووجود المستوى الواحد الذي تدعو اليه الواحدية لايمكن الا أن يقضي على أساس الشخصية ويحطمه ، وما دامت الشخصية شاملة ، فانها لاتقتصر على مستوى معين أو نظام خاص ولو أنها تفرض حقيقة تتجاوز دائما ادراكها المباشر • والمذهب الاسمي الذي يتخذ طابعا منطقيا لا يستطيع أن يضع الأسس لمذهب في الشخصية ، لأنه يميل الى تقسيم الواقع وتفكيك الشخصية ، وبالتالي فهو عاجز عن ادراك الشخصية باعتبارها كلا •

والأفلاطونية ليست فلسفة شخصية ولكنها فلسفة ذات مبادىء عامة ، والوحي المسيحي باعتباره متضمنا لفكرة الشخصية ، ومن ثم لايستطيع أن يعبر تعبيرا ملائما عن طريق المقولات الفلسفية اليونانية ، قد أسهم بمضمون جديد تماما • وكذلك لم تستطع نظرية الشخصية

التى تعرضها الفلسفة الهندوسية (١) ، وهى أعمق فى أغلب الأحيان ، على الرغم من أن الواحدية ليست صنعتها الوحيدة ، حينما نرى تنوع المذاهب الهندوسية الفلسفية ، و « الأتما » Atma هى أساس الأنا ، ولباب الشخصية ، و « البراهما » هو الألوهية اللاشخصية ، ومن الممكن حقا نفسير مذسب « الأتما » بالمعنى الشخصى . وقد كان مذهبا الواحدية والكثرة في تاريخ الفكر الفلسفى على طرفي نقيض دائما ، وكان من العسير جدا التوفيق بينهما . والمشكلة الأساسية هي كيف نوفق بين وحدة الشخصية الالهية مع كثرة الشخصيات الانسانية . والمسيحية هى التى تمسك وحدها بمفتاح هذه المشكلة ، ومن ثم تساعد على اثراء معرفتنا الفلسفية ، ويعتقد « دلتاى » بحق ان العلم الميتافيزيقى حقيقة تاريخية محددة بينما الشعور الميتافيزيقى بالشخصية أبدى (٢) ، ولم تستطع أية نظرة ميتافيزيقية تنزع نزعة عقليـة أن تعبر عن هـذا الشعور ، فالفلسفة الوجودية هى التى تستطيع وحدها أن تضع مشكلة الشخصية .

وهناك مقولات مختلفة للفـردية فى العوالم الموضـوعية والطبيعية والاجتماعية ، والأمة واحدة من هذه المقولات ، والانسـانية لايمـكن تصورها فى حدود وحدة مجردة لا كيفية ، لأنها وحدة عينية كيفية تشمل كل مقولات الفردية . وينبغى الاستثناء فى حـالة الدولة التى ليست الا وظيفة بسيطة دون أن تكون لها قيمة أنتولوجيـة . بيد أن هنـاك اختلافا بين القيم الحقيقية التى نلقاها فى العالم الموضوعى كالانسـانية والمجتمع والقومية ، وبين الشخصـية الانسـانية ، فان القيـم الأولى لاتستطيع أن تشعر بالغبطـة أو الحزن بينما نجـد أن الشخصـية الانسانية مظهر حى عينى ، ومن وجهة نظر الوجود الداخلى للانسان ومصيره ، فان هذه القيم على الرغم من أنها تبدو أعلى من الانسان ، فهى محمولات وصفات كامنة فى الشخصية الانسانية ، والشخصية تحقق نفسها عينيا عن طريق القيم الكيفية المعبر عنها فى العلاقات القائمة بين جماعة أو أخرى فى المجتمع أو الأمة أو الانسانية ، ولكن بوصفها صورة وشبيهة بالله ، فان لها قيمة أنتولوجيـة أعظم كثيرا من الحقائق فوق الشخصية التى تسود العالم الموضوعى .

---

(١) أنظر الكتابين الحديثين عن تاريخ الفلسفة الهندوكسية

D. St-auss. Indische Philosophie and R. Grousset. les Philosophies. Indiennes.

وانظر أيضا

cf. Rene Guénon. L'Homme et son Devoir Selon le Vedanta.

(٢) cf. Dilthey Einleiting in die Geisteswissenschaften.

وهذه القضايا يمكن أن تنطبق أيضا على مشكلة العلاقة بين الشخصية والفكرة أو (المثال) idea وقد يقوم أساس وجود الشخصية في الولاء لفكرة قد تضحي بنفسها - بل ينبغي في بعض الاوقات أن تضحي بنفسها - في سبيلها . ولكن لا ينبغي مطلقا أن ننظر الى الشخصية على أنها وسيلة وأداة لخدمة فكرة ما . بل ان الفكرة يجب أن تكون على العكس من ذلك وسيلة وأداة تحقق الشخصية بواسطتها نفسها .. وتنمو وترتقي ارتقاء كيفيا . وفي تضحية الشخصية وتكريسها وموتها ان اقتضى الأمر من أجل فكرة ، تؤكد الشخصية أعلى أنواع صحتها ، وتكتسب أخيرا التعبير الرمزي عن الأبدية ، وهي تركز في نفسها سر الوجود والخلق كله . والشخصية تمثل أعلى مكان في سلم القيم غير أن قيمتها العليا تفترض مضمونا كافيا يتجاوزها ، أو عنصرا أعلى من الشخص تكون بالنسبة اليه أكثر من مجرد أداة . فالله الذي هو المصدر لكل قيمة - لايمكن أن يستخدم الشخصية باعتبارها وسيلة . واذا كان العكس صحيحا بالنسبة للمجتمع أو الأمة أو الدولة ، فان قواها المظلمة الشيطانية الكامنة فيها هي المسئولة . والشخصية هي التي تستطيع وحدها أن تكتشف عن الشعور الخالص الأصيل المتحرر من كل احالة موضوعية ، والمسيطر على كل شيء . وفي التكتلات الاجتماعية فوق الشخصية يستحيل الضمير الى موضوع ، وتنطمس بذلك طبيعته الحقيقية . أما الضمير الوجودي فينصهر في الكفاح الذي نوجهه ضد المؤثرات والدوافع الاجتماعية .

وعلينا بعد ذلك أن ننظر الى الشخصية في علاقتها بتصور النظام الكوني أو الانسجام العام ، وهل يمكن أن ننظر الى الشخصية كوسيلة لتحقيق الانسجام أو النظام الكوني ؟ هذا هو التصور القديم غير المسيحي للشخصية كما يعتنقه « القديس أغسطين » الذي شوه منذ ذلك الحين الوعي المسيحي . فقد كان « القديس أغسطين » يعتقد أن الشر منبعث في الأجزاء فحسب ، وأن عودة هذه الأجزاء الى التكامل في الانسجام أو النظام الكوني معناه نهاية الشر . وعلى ضوء هذا المذهب يكون الجحيم خيرا وعدلا ، حينما يمثل انتصار الخير الكلي والنظام والانسجام . والواقع أن هذه النظرية تعبر عن انتصار العالم الموضوعي على سر الحياة الداخلية وسيادة « العام » و « النوعي » على « الفردي » و « الشخصي » . ولايمكن أن يوجد ما هو أكثر تضادا مع المسيحية والانسانية من هذه النظرية . ولا قيمة أخلاقية أو روحية لفكرة النظام الكوني أو الانسجام ، لأنه لا وجود لأي علاقة ضمنية مع حياة الشخصية

الباطنة • فتصور النظام « الكونى » مشتق تماما من العالم الموضوعى الوضيع • وثمة ما يبرر تمرد « ايفان كرامازوف » وبطل رواية « دستيوفسكى » « مذكرات من تحت الأرض » ــ على هذا العالم • وسيطرة المبادىء العامة والنوعية وسيادة التصورات الاجتماعية والكونية فى ميادين الفكر والأخلاق يشير الى انتصار العالم الموضوعى الوضيع • وتاريخ المسيحية يقدم أمثلة كثيرة على هذا الاتجاه •

ولا يكتسب الوجود الانسانى دلالته الا حينما يقضى على كل عبودية انسانية ، والا حينما تتحرر الشخصية من سيطرة العالم والدولة والأمة ، أو من الفكر المجرد والأفكار ، وحينما لا يعلو عليها شىء مباشرة الا اله حى • وهذا الاذعان الحر الداخلى لله •• (الله الذى لايمكن أن يكون مرادفا « للعام ») هو الشرط الوحيد الذى يمكن الشخصية الانسانية من أن تحدد علاقاتها بالقيم فوق الشخصية والوقائع العامة تحديدا داخليا • ومن الضرورى لكى نكتشف الشخصية طبيعتها الاجتماعية الحقيقية ورسالتها أن يتحرر وجودها ووعيها من الضغط الاجتماعى ومن تأثير « العام » الذى يضع حولها القيود ، ومن تأثير التصورات النوعية الكلية • فالشخصية الروحية لاتنتمى الى المقولة النوعية وهى ليست متوارثة ، بل ان هناك شيئا يثير الاكتئاب فى التشابه الأسرى الذى يبدو وكأنه يخفى الطابع الفريد الذى لا يمكن تقليده لكل شخصية • ولهذا السبب فان أى مجتمع يتطلع الى الاتصال الروحى بين الأشخاص لا يمكن أن يقوم على الشكل النموذجى للموضوعية وهو الأسرة ، وانما يمكن أن يقوم على الاخاء الروحى • والشخصية المتحققة تماما لايمكن تقليدها ، فهى مكتفية بذاتها • والنظم الشيوعية والفاشية والقومية الاشتراكية فى التعليم ــ وهى نظم تقوم على الايحاء والتقليد ــ هى بالضرورة معادية للشخصية ، اذ تميل الى تنمية الشعور بالنظام العام والانسجام على حساب تحقيق الشخصية لذاتها • والفكرة المخيفة للنظام الكونى تهدد بالحط من الشخصية الى مستوى الوسيلة ، فهى مجرد صيغة موضوعية على نطاق كونى لحالة من الضرورة الاجتماعية ، وهى واحدة من الأشكال الموضوعية لوضاعة العالم الآثمة ، وكل فكرة موضوعية هى بالضرورة عقبة فى سبيل نمو الشخصية ، ولا صحة لها الا باعتبارها جزءا متكاملا للوجود الانسانى فحسب ، ويجب أن يعتمد تقدم الانسان وتحرره من طغيان العالم الموضوعى على انتصار الروابط الروحية والشخصية على العلاقات النوعية •

الفصل الثالث

- الشخصية والمجتمع
- الشخصية والمجموع
- الشخصية والأرستقراطية الاجتماعية
- النزعة الشخصية الاجتماعية
- الشخصية والاتصال الروحي
- الاتصال والاتصال الروحي

ليست مشكلة الشخصية من حيث علاقتها بالمجتمع مجرد مشكلة من مشكلات علم الاجتماع أو الفلسفة الاجتماعية ، وانما هي أساسا مشكلة في الميتافيزيقا والفلسفة الوجودية • وقد بينا من قبل أن سائر مشكلات المعرفة يمكن أن نتناولها من وجهة نظر المجتمع أو من وجهة نظر الاتصال الروحي • والمعرفة اما أن تكون اجتماعية فتهتم أولا بالعالم المادي ، أو تهتم قبل كل شيء بالاتصـال الروحي ، وبالكشف عن سر الوجود • والحدس هو أساس الاتصال الروحي ، وهو الملكة التي تمنح الانسان القدرة على أن يتوحد مع الأشـياء جميعا • والاتصال الروحي يخفف من وطأة الحنين المرتبط بالعزلة ، والشخصية والمجتمع الروحي يرتبط كل منهما بالآخر ارتباطا مختلفا في المجتمع وفي الاتصال الروحي •• ففي حالة الاتصال الروحي يصبح المجتمع الروحي جزءا من الشخصية ويمنحها صفة خاصة • أما في حالة المجتمع فان الشخصية من ناحية أخرى مجرد جزء من الجماعة • والجانب الاجتماعي من الاتصال الروحي هو أولا محور اهتمام الشخصية التي نجت من العزلة • ويفترض تحقيق الشخصية لذاتها الاتصال الروحي ، ومضمونها ورسالتها هما بطبيعتهما اجتماعيان ، ولكنهما لايتحددان بواسطة المجتمع فان تحديدهما الاجتماعي يأتي من الداخل ، وهكذا تؤكد الشخصية قيمتها العليا حتى في مجال الحياة الاجتماعية •

وليست الشخصية والمجتمع شيئا واحدا كما تزعم بعض المذاهب الاجتماعية المتعددة التي تعتنق النظرية العضوية للمجتمع · ووظيفة المجتمع هي أن يقيم نوعا من الاتصال الدائم الثابت بين الاشخاص ، فهو ظاهرة مادية تحقق نفسها في العالم الوضعي ، والقاعدة التي يسود فيها هي قانون العدد الاكبر ، وبعبارة اخرى : المجتمع وسيلة لتنظيم حياة الجماعات ، والمجتمع يفشل في أن يكون اتصالا روحيا لأنه لايستطيع أن يقدم أي حل لمشكلة العزلة ، ففي العالم المادي عالم الأشياء تحل الجماعة المنظمة تنظيما اجتماعيا محل الاتصال الحقيقي والمجتمع الروحي · وهكذا يمكن أن نفسر علاقات الشخصية بالمجتمع من الداخل ومن الخارج على السواء ، أي من وجهة نظر النزعة الطبيعية وعلم الاجتماع ، ومن وجهة نظر الفلسفة الروحية والوجودية وليست الشخصية — على ضوء علم الاجتماع الوضعي — غير مجرد جزء ·· جزء دقيق من المجتمع · والمجتمع أقوى بدرجة لانهائية بالقياس الى الشخصية ، والعلاقة بينهما قائمة على أساس مقولات الكم التي لاتدع مجالا لحل مشكلة القيم حلا حقيقيا · أما اذانظرنا من الداخل — من وجهة النظر الوجودية والروحية — فان المجتمع يصبح جزءا من الشخصية ، ويصبح مضمونا كيفيا تكتسبه الشخصية في عملية تحقيق ذاتها · وهكذا تحتوى الشخصية على المجتمع ، على الرغم من أنها لم تتوحد معه توحدا كاملا · والمجتمع — كما قال فينيه بحق — ليس كل الانسان ، ولكنه رابطة من الناس (١) · وثمة منطقة في أعماق الشخصية لايستطيع المجتمع أن ينفذ اليها على الاطلاق ، والحياة الروحية للشخصية تمتنع على المجتمع ، ولا يمكن أن تتحدد بواسطته · والحياة الروحية هي الطريق الموصل الى الاتصال الروحي ·· الى مملكة الله · بيد أن بعض نواحي الحياة الروحية يمكن أن تجد لها تعبيرا في أشكال اجتماعية ، وهكذا يتجه الدين الى أن يصبح ظاهرة اجتماعية ، ومملكة الله مؤسسة اجتماعية · وهنا نلمس منبعي الدين اللذين تحدث عنهما برجسون (٢) · والشخصية لايمكن أن تكون حقا جزءا من المجتمع على الاطلاق ، لأنها لايمكن أن تكون جزءا من أي شيء ، ولأنها لا تستطيع سوى المشاركة في الاتصال الروحي ·

ولسنا بحاجة الى القول بأن الدولة تمثل شكلا متطرفا من أشكال

---

(١) cf. Vinet, Essais sur la manifestation des Convictions religieuses et sur la séparation de l'Eglise et de L'Etat.

(٢) Vide. Bergson. les deux sources de la morale et de la religion.

الاحالة المادية . فالدولة لاتستطيع أن تدخل فى اعتبارها سر الشخصية حتى حين تزعم أنها ترى حقوقها ، وذلك لأنها تنظر الى الشخصية بوصفها وحدة مجردة ، لا حقيقة حية قائمة بذاتها . الدولة ليست وجودية ، ولا تتضمن عنصرا وجوديا كالعنصر الموجود فى فكرة « الوطن » . ولا تنبض بالدفء أو الحياة ، ووظيفتها موضوعية صرف ، وهى فى الواقع نقيض الاتحاد الروحى . والاتحاد الروحى لا يمكن أن يكون وظيفة الدولة ، ووجوده دليل لا شك فيه على مقولة أخرى للقيم ، وقد ميز « توينيس » Toennies بين المجتمعات العضوية كالأسرة والقبيلة والشعب من ناحية ، وبين المنظمات الفكرية والآلية والاجتماعية كالدولة من ناحية أخرى . ولكنه أخفق — على أية حال — فى أن يتبين مشكلة الاتصال الروحى فى ضوئها الحقيقى ، لأنه كان قانعا بالنظر الى المجتمعات العضوية من وجهة نظر النزعة الطبيعية . والتصور العضوى للمجتمع الذى حبذه الرومانتيكيون شكل من أشكال النزعة الطبيعية .

أما الاتصال الروحى فظاهرة روحية تعلو على الطبيعة العضوية . والى هذا المنحى يذهب « جارديني » Guardini فيضع الاتصال الروحى فى مقابل « التنظيم » (١) organization.

وتميل التصورات العضوية والطبيعية للشعب أو للمجتمعات الى اعتبار الشخصية خلية بسيطة للهيئة القومية ومجرد جزء من كل (٢) . ومن الممكن ملاحظة هذا الاتجاه فى الايديولوجيات الشعبية كالفاشية والهتلرية والأوربيه والآسيوية . وقوة مجتمع ما — وخاصة الدولة — لا تؤلف معيارا . فمثل هذه القوة قد تثبت أنها تحقق شيطانى ، وقد تكمن القيمة العليا للشخصية فى ضعفها حين تواجه المجتمع أو الدولة، فان من الخطأ أن نضفى القيمة القصوى لحكم القوى فى عالم مادى وضيع، وعلى الانسان أن تكون قيمته أعلى من المجتمع أو الأمة أو الدولة حتى ولو كانت للدولة القدرة على اضطهاده واستعباده فى عالم تقوم فيه العلاقات على القهر ، ووظيفة العالم الاجتماعى الموضوعى هو أن ينشىء النظام والقانون والسلطة ، هذا هو جوهر أى تصور اجتماعى . ومن

---

(١) Vide Romano Guardini, Vom Sinn der Kirche.

(٢) يذهب ن. ميخالوفسكى أحد علماء الاجتماع الروس فى سنة ١٨٧٠ فهما عظيما للمشكلة فى « كفاحه من أجل الشخصية » ولكنه قاصر من الناحية الفلسفية قصورا واضحا ، وهو لذلك يفشل فى ادراك أن الصراع من أجل الشخصية ينبغى أن نلتمسه فى الناحية الروحية لا فى الناحية البيولوجية .

الممكن أن نتصور العالم في حدود العمل فحسب ، أو في حدود التماثل بين العالم أو الحياة الاجتماعية والورشة أو المصنع . بيد ان الاتجاه العام يميل الى تجاهل هذه الحقيقة وهي أن أي فلسفة للعمل يجب أن تكون معادية للمادية ، لأن العمل روحي ونفسي في أساسه ، وليس شيئا ماديا خالصا كما يفسره « ماركس » (١) . وانا أعني بذلك أن العمل يمكن أن يكون أساسا للمجتمع (٢) ما دام يمثل جانبا من جوانب الشخصية . ونحن لا نجد في الشيوعية غير اتصال يكره على اتخاذ طابع الاتصال الروحي ، واستغلال الانسان للانسان ، واستغلال الدولة للانسان وسيلة من وسائل احالة الانسان الى موضوع . والطريق الوحيد للقضاء على استغلال الانسان للانسان هو وضع « الأنا » في مقابل الـ « أنت » . وليست الرأسمالية أو الشيوعية المادية بقادرتين على شيء من ذلك (٣) .

وثمة اختلاف أساسي بين الاتصال والاتصال الروحي ، فالاتصال بين وعي ووعي يفترض دائما حالة من حالات التفكك وعدم الترابط . وهو يضم درجات متفاوتة تبدأ من الروابط القوية الحميمة بين أفراد الاسرة الواحدة الى الروابط الواهية البعيدة التي تربط بين الفرد والدولة . غير أن الاتصال لا يمكن أن يصبح اتصالا روحيا أو أخوة أو حبا . وتستطيع الاشتراكية أن تحرر الشخصية من الأشكال الضيقة للترابط ، بيد أن الاتصال الروحي لا يمكن أن ينشأ عن ارتباط الأنا بالموضوع . والأنا تواجه دائما الموضوعات في حياتها الاجتماعية ، وكل اتصال بينهما يفترض حالة من التفكك . أما الاتصال الروحي فيطرح العالم الموضوعي جانبا . والاسرة شكل موضوعي للحياة الوجدانية العاطفية ، وهي لهذا السبب تشجع الاتصال في أغلب الأحيان على حساب الاتصال الروحي . والدولة مستبدة حينما تحاول فرض الاتصال الروحي ـ أي نقيضها . والقهر شرط ضروري لعالم تتحكم فيه وسائل الاتصال ، والعالم المادي عالم مفكك تنعزل أجزاؤه بعضها عن البعض الآخر على الرغم من التحامها الخارجي .

---

(١) cf. A. Bogdanov, Tectologie.
cf. A. Bogdanov, Science Générale de l'Organisation.

(٢) وقد كتب هذا الكتاب من وجهة النظر القومية . cf. Hassle, le Travail

(٣) راجع هارون ودانديه « الثورة الضرورية » الشيق . فهو يعالج المشكلات الاجتماعية من وجهة النظر الشخصية ، وهو يلخص جهود الشعب الفرنسي هذه الأيام في ذلك المجال .

أما الاتصال الروحي – كما أشرت الى ذلك آنفا – فلا يحدث الا بين الأنا وال « أنت » ، بين « الأنا » و « أنا » أخرى ، ولا يمكن أن يقع بين الأنا والموضوع ، بين الأنا أو المجتمع أو الشيء . واتصال « الأنا » وال « أنت » اتصالا روحيا يفسح مجالا لقيام « نحن » حيث تستوعب شخصية ثالثة الاتصال الروحي بين شخصيتين وهذا ينطبق على اتصال « الأنا » بالموضوع ، ففي هذه الحالة يكون الشخص الثالث هو « الشيء » . والطبيعة والقوانين الطبيعية والمجتمع والدولة والأسرة والطبقة ، كل هذه أنواع مختلفة من « الشيء » حينما توضع في مقابل الشخصية . ولا يمكن أن يتحقق الاتصال الادراكي والعاطفي الا في المجال الوجودي وبالنسبة لكائن موجود ، وهي تنبيء دائما عن أن المرء على وعي بعالم آخر . والعالم الاجتماعي الموضوعي عالم كمي ، و « الواحد » و « الشيء » رمزان لعالم وضيع مجرد من الاتصال الروحي ومن الحدس والحب ، أو بمعنى آخر ، هو عالم الاتصال الخارجي البحت . مثل هذا العالم لا يمكن أن يكون لديه أي تصور عن الاتحاد الروحي . وفي مثل هذا العالم تصبح الكنيسة والمجمع الديني من وسائل الاتصال الاجتماعي الموضوعي ، اذ من الممكن أن ننظر الى الكنيسة باعتبارها مجتمعا أو مجمعا روحيا. وتمثل الكنيسة من وجهة النظر الاجتماعية عالما ثانويا منعكسا للاتصال الرمزي . والاتصالات الاجتماعية والموضوعية رمزية أكثر منها حقيقية . والصفة المميزة للاتصال الروحي هي حقيقته الانطولوجية ، وتستبعد رمزية الاتصال كل شيء عدا العلاقات المتعارف عليها . ولكل هيئة اجتماعية سواء كانت الأسرة أو الطبقة أو الدولة أو الكنيسة (كمؤسسة اجتماعية) رموزها الخاصة بها ، وقد تكون الحياة الباطنة أو الوجدانية في مثل هذه الجماعات اقل أو اكثر ظهورا ، ولكنها تظل بعيدة كل البعد عن الاتصال الروحي الحقيقي . فكل من الاتحاد والاتصال الروحي يفترض درجة قصوى من الاتصال الاجتماعي الروحي . غير ان الدير أو اى مجمع ديني يفشل في أن يكون مجمعا حقيقيا ما دام قائما على رمزية الاتصال فحسب ، وحياة الرهبنة صورة من صور الاحالة الموضوعية الاجتماعية .

وينبغي علينا أن نتردد قليلا في قبول نظرية «ليبنتس» عن الذرات الروحية (المونادات) المتناهية تناهيا تاما ، اذ يرى « يسبرز » بحق

أن « الأنا » تتقبل « أنا » أخرى ، أى « أنت(١) » .. وتحاول «الأنا» تكملة لذلك فتضع الـ « نحن » التى يتحقق فى أعماقها اتصال « الأنا » و « الأنت » اتصالا روحيا . وقد تكون الذرة الروحية « المو ناد » أكثر أو أقل انغلاقا على نفسها ، وربما كانت مغلقة بالنسبة لأشياء ، ومفتوحة بالنسبة لأشياء أخرى، وعلينا أن نفهم ذلك فهما ديناميكيا، وهكذا يمكن أن تغلق الذرة الروحية (المو ناد) نوافذها وأبوابها بالنسبة للجانب الروحى من الحياة ، ويتبع ذلك أن تعانى العزلة التامة. ولكنها تفصل ذلك بفضل مصيرها الخاص أكثر من أن يكون ذلك بفضل تعرينها الميتافيزيقى . وقد تعانى الشخصيات الخلاقة والعباقرة خاصة صعوبات جمة من صلاتها بالعالم اليومى العادى ، وقد تعادى هذا العالم بينما تراها فى الوقت نفسه تدرك الكون خلال ذلك العالم . ورمزية الاتصال الاجتماعى متغيرة . والتكنولوجيا والآلة على أعظم جانب من الأهمية بالنسبة لهذا الموضوع . فالتكنولوجيا تساعد على تحسين الاتصال بين الناس ولكنها بدلا من أن تقلل من التباعد الأساسى بينهم فانها تعمل على اتساع رقعته . وتمثل التكنولوجيا شكلا متطرفا من أشكال الأصالة المادية للوجود الانسانى ، وعلى هذا الأساس لا تعنى بالاتصال الروحى .. فالسيارة والطائرة والسينما واللاسلكى، كل هذه الاختراعات قد أسهمت مساهمة كبيرة فى أن تجعل الاتصال بين الناس شاملا . وبفضل هذه الوسائل جميعا استطاع الانسان تحرير نفسه من أن تسيطر عليه بيئة محلية معينة ، وتسليم نفسه للحياة العالمية الحاضرة . غير أن انتشار هذه الوسائل العالمية للاتصال انتشارا هائلا يميل الى القضاء على الصلة الحميمة والألفة الأساسية للاتصال الروحى ، بل ان أثرها يعزل الانسان عزلا مطلقا . ولهذه العملية — كما لكل شىء فى هذا العالم — مظهران : أحدهما سلبى والآخر ايجابى، ففى مجتمعات الماضى المحدودة سواء منها الأبوية أو النوعية — كان الأفراد يتصلون بعضهم بالبعض الآخر بطريقة لا شخصية جدا ، ولكى تصبح هذه العلاقات أكثر شخصية كان لابد من أن يعانى الشخص العزلة ، وأن تنفصل « الأنا » من روابطها العضوية التى تكاد تستوعبها جميعا . وأسهمت « التكنولوجيا » فى هذا السبيل مساهمة وفيرة ، وقضت الآلات الى درجة كبيرة على استغلال الانسان والحيوان . وقد كان هذا الاستغلال عقبة فى سبيل الاتصال الروحى .

(١) راجع المجلد الثانى من كتابه Existenzerhellung فهو أكثر أجزاء فلسفته طرافة .

وفى هذا العصر « التكنولوجى » علينا أن نقبل امكانية الاتصال الروحى بالحيوانات باعتبارها وسيلة للتغلب على عزلتنا . وحينما تواجه « الأنا » كلبا ، فقد يثبت الكلب أنه صديق حميم أكثر من أن يكون «شيئا» ، وبهذا المعنى تنفتح أمامنا مجالات جديدة .. والتغيير الذى يطرأ على العلاقات بين الناس بعضهم والبعض الآخر ، وبين الانسان والله ، وبين الانسان والحيوان او الأزهار — هذا التغيير علامة على غرض أسمى من ذلك الغرض الذى يتحقق فى تنظيم الاهتمامات الصناعية .

ودلالة الاتصال الروحى بحسبانه هدفا للحياة الانسانية — دلالة دينية فى أساسها . فالاتصال الروحى يقتضى المشاركة .. المشاركة المتبادلة ، والاندماج المتبادل · ويجب أن تتم هذه المشاركة فى أعماق الاتحاد بين « الأنا » و « الأنت » ، واندماج « الأنا » و « الأنت » يتم فى الله . والاتصال الروحى يعمل على رفع ذلك التقابل بين الواحد والمتعدد ، بين الجزئى والكلى .. والشخصية لا عقلية دائما فى نظر المجتمع بفضل حياتها الباطنة ، ومصيرها الفريد . ولكى يجعل المجتمع هذا المصير معقولا تراه يلجأ الى القهر · وقد تتحد الشخصيات لكى تؤلف جمعيات سرية : كجماعة الماسونيين الأحرار مثلا أو غيرها من الجمعيات الروحية ·· غير أن هذه الجمعيات السرية لا تمهد الطريق للاتحاد الروحى لأن طابعها الأساسى اجتماعى (١) · وربما وجدت الشخصية نفسها فى استعباد أشد مما كانت تعانيه ، ولكن ما من درجة من الاتصال داخل جماعة معينة يمكن ان تضع حدا للتعارض بين الشخصية وبيئتها الاجتماعية . وهذا الصراع الأساسى هو المأساة الأبدية للحياة الانسانية . ومن الممكن فض الخلافات والمنازعات الطبقية ، ولكن ليس الحال كذلك بالنسبة للتضاد والصراع الناشئين عن تقابل الشخصية بالمجتمع .. ولم ير « ماركس » فى هذا الصراع غير شكل مقنع من أشكال الحرب الطبقية ، وانتهى من ذلك الى أن ظهور مجتمع لا طبقى كفيل بحل مثل هذا الصراع وذلك بأن تصبح الشخصية اجتماعية تماما وقانعة بحياتها . بيد أن « ماركس » أخفق فى تقدير أعمق جوانب المشكلة ، فالعكس تماما هو الصحيح ، وليست حرب الطبقات غير قناع للصراع الأبدى الميتافيزيقى بين الشخصية والمجتمع · وكانت الشخصية المضطهدة فى سالف الأزمان — سواء كانت تنتمى للطبقة البورجوازية

(١) cf. Simmel, Soziologie

أو العمالية أو لطبقة المثقفين ، تثور فى وجه الدولة القادرة المطلقة . وهكذا لم تتمكن الدولة من أن تصبح مطلقة تماما. وكان «موسولينى» يزعم فى كتابه عن « الفاشية » أن ضرورة احترام حقوق الانسان المضطهد فى طبقة أو أخرى من الطبقات الاجتماعية ، سوف تختفى حينما يصبح الشعب سيدا للدولة . وتصبح الدولة مطلقة فى هذه الحالة .

ولهذا تندفع الفاشية والشيوعية للقضاء على الصراع بين الشخصية والمجتمع بدافع واحد . والواقع أن هذين المذهبين يؤلفان من وجهة نظر « علم الظواهر الاجتماعى » نمطا متماثلا : فالفاشية تمثل نوعا منطقيا جديدا للديموقراطية ينادى بأن الشعب هو السيد المباشر للدولة ، ويجعل من الدولة التعبير المطلق عن جوهره ، والحقيقة أن الفاشية أكثر تعارضا مع نظام ارستقراطى للحكومة من النظام الديموقراطى الذى يؤدى فى النهاية الى سيطرة الدولة اذا تطور تطورا منطقيا . فهل كانت القيصرية الرومانية غير ديموقراطية ؟ من الحق أن القيصرية كانت ذات طابع شعبى واضح . ومن المحتمل أن يجتاز البشر مرحلة من التوحيد الاجتماعى الخالص يلغى فيه جميع الفروق الطبقية ، وحينئذ يصبح الشعب المتحد اللاطبقى سيدا للدولة ، ولن تعانى الشخصية الانسانية بعد أن تصبح موضوعا اجتماعيا محددا أى تعارض بينها وبين المجتمع . ولكننا سوف نشاهد فى ذروة هذه العملية الاجتماعية الخالصة عندما تنتهى المنازعات الطبقية من تقنيع الملامح الجوهرية للوجود الانسانى ـ سوف نشاهد ظهور ذلك الصراع الأبدى الفاجع من جديد بين الشخصية الانسانية وبين الدولة . بيد انها لن تتوحد فى هذه المرحلة فى جماعة أو فى أخرى ، وانما ستصبح كلا كاملا ننظر اليه باعتباره صورة مشابهة لله ، وسيشاهد العالم الشخصية الانسانية مرة أخرى وقد ثارت على الشعب وعلى المجتمع وعلى الدولة . وقد قام « ماركس » بكشوف اجتماعية قيمة ، ولكنها كانت فى معظمها مقصورة على المجال الثانوى للوجود . وكان « برودون » أكثر عمقا فى رؤيته للتناقض الأبدى بين الشخصية والمجتمع . ولم تحاول « الماركسية » أو اى مذهب اشتراكى آخر ان يعالج مشكلات العزلة والاتصال الروحى باعتبارها متميزة عن مشكلة الاتصال ، وذلك لأن هذه المذاهب تفشل فى ادراك

الدلالة الميتافيزيقية العميقة لمشكلة الشخصية (١) . والمشكلة التى يجب أن نتعرض لها الآن هى مشكلة الشخصية فى علاقاتها بالجمهور أو الجماعات ، وبالأرستقراطية والديموقراطية .

فهل نجد اساسا حينما نقول ان اتحاد الشخصيات فى جماعة يمثل الوصول الى «نحن» ؟ وهل الاتحاد الحقيقى او الاتصال الروحى بين «الأنا» و«الأنت» يمكن بلوغه فى مثل هذه الظروف ؟ من المؤكد لا ، فليس ثمة شك فى أن الجماعة جزء من المجال الموضوعى للشخصية الانسانية ، وحياة الجماهير يتحكم فيها قانون لا شخصى(٢) . فاذا خضعت الشخصية للايحاء الجماعى ولغريزة المحاكاة وللعواطف الدنيا للجماهير أصابها الفقر من حيث الكيف . وغريزة الجماهير ليست غريزة قوم منظمين ، كما أن الجمهور ليس تعبيرا عن «نحن»، واذا فشلت «الأنا» الانسانية فى معاناة العزلة حينما تغوص فى الحالة الأولية اللاشعورية العاطفية التى تسود الجماهير ، فليس ذلك لأنها وصلت الى الاتصال الروحى مع الانت ، أو الاتحاد مع كائن آخر ، وانما لأن شعورها الخاص ووعيها قد ابتلعهما « الهو » أو « الشىء » ، وهكذا نجد أن الجمهور أو الجموع تمثل الـ « هو » أو « الشىء » ، لأن نحن نفترض وجود « أنا » أخرى أو « أنت » . وحينما تواجه «الأنا» الجمهور تجد نفسها مرغمة على أن تتقبل الطابع الذى يفرضه عليها الجمهور ، وأن تعتنق غرائزه اللاشعورية وعواطفه . ويجازف « زمل » فيقول : ان هذا « التشخص » أو « القناع » يعد مظهرا من مظاهر القوة التى تتمتع بها الجماهير . وغريزة المحاكاة هى العامل المحدد فى حياة الجماهير (٣) . وتتغلب « الأنا » على عزلتها على حساب الذات . وفى حالات الحروب والثورة أو فترات رد الفعل ، وفى الغضب الأعمى الذى يركب الجماعات ، وفى الحركات الوطنية أو الدينية نستطيع ان نلاحظ الجماهير فى أثناء الفعل . وفى مثل هذه الحالات لا توجد عزلة أو اتصال روحى . وتزعم الشيوعية الروسية أنها قضت بهذا المعنى على العزلة الانسانية ، ولكنها جعلت الاتصال

---

(١) انظر الكتاب الجديد الذى الفه Tillich زعيم الاشتراكية الدينية الالمانية بعنوان Die Sozialislische Entscheidung . « وتيليتش » لا يفطن الى المشكلة الوجودية للشخصية .

(٢) انظر حول هذا الموضوع Le Bon, Freud, Simmel

(٣) cf. Tarde de L'Imitation

الروحى فى الوقت نفسه أمرا مستحيلا بين « الأنا » و « والأنت » ، وهذا القول ينطبق الى حد كبير على المثل الأعلى للمجتمع الجماعى فى الاشتراكية القومية الألمانية الذى يقوم بلا ريب على الـ « هـو » لا على الـ « نحن » العامة . ونلمح فى الاشتراكية القومية تلك الاحالة العقلية للغرائز والميول اللاشخصية ، وزعماء الجماهير أشبه بالوسطاء ، فهم يجرفون الجماهير ، ولكن الجماهير تجرفهم أيضا ٠ وقد ذكر « فرويد » بحق أن الزعيم يؤثر على الجماهير تأثيرا غراميا حتى انهم ليخضعون له خضوعا أعمى ، وهذه الحقيقة هى التى جعلت من الممكن قيام ديكتاتورية على راسها « قيصر » و « كرومويل » و « نابوليون » والقياصرة الصغار وأشباه نابليون الشمال الذين نراهم فى هذه الأيام ٠ وهذا الجو الغرامى نفسه هو الذى يحيط بالملوك ، وان كانت قوة الملك قائمة على أساس من عواطف دينية أو تقليدية أكثر دراما . وينبغى على الزعيم أن يكتشف مجموعة من الرموز قادرة على اثارة الجموع وتوحيدها فى آن واحد ، وربطها به .، وهذا الرمز — أيا كان — ينبغى ان يتملق نفسية الجماهير، وليس فى قدرة الزعيم ان يفعل شيئا الا ان يتملق الجماهير . فاذا تصادف أن كان الزعيم رجلا ممتازا ، فانه يعانى شعورا حادا بالعزلة حينما يسلم زمام شخصيته تماما للجماهير ، والنوع العادى من الملوك أبعد ما يكون عن الاتصال الروحى وعن فهم « رمزية » مركزه بالنسبة لرعاياه ، والعبقرى والشخصية التاريخية العظيمة والزعيم هم أكثر الناس عزلة ، ذلك أن الروابط التى تربط بين الزعيم والجماهير هى تلك التى تتحكم فى العلاقة بين الذات والموضوع لا تلك التى تقوم بين الأنا والأنت . ولكن كيف ترتبط الشخصية بالديموقراطيات المحبة للسلام والتى تضمن للجماهير حكومة ثابتة نسبيا ؟ ان العلاقة بينهما تثبت الصراع الفاجع الأبدى الذى لا مفر منه بين الشخصية والمجتمع ٠ والرأى العام فى البلاد الديموقراطية يمثل صورة متطرفة من الاحاطة المادية الاجتماعية لأنه يتلقى تعليما يصل به الى مستوى متوسط على حساب الحياة الداخلية للشخصية . والفردية البورجوازية بما تمارسه من موانع ومحرمات تتحالف فى يسر مع النزعة اللاشخصية الكاملة ، ومع الحط من القيم كافة ، ومع أدنى أشكال المحاكاة الاجتماعية . وتحقق الشخصية عمل ارستقراطى فى أساسه على الرغم من أنه لا يشترك فى شىء مع الأرستقراطيات الاجتماعية والسياسية القائمة .، وهذه الأخيرة شكل متوارث من أشكال الأرستقراطية التى تحبذها التقاليد على الرغم من أنه فقد كل ما يشترك

به مع الصفات الشخصية (١) • ولكننا نهتم قبل كل شيء بالارستقراطية الشخصية ، وبالتعبير عن حياة الانسان الداخلية • وهى قبل كل شيء مشكلة الكرامة الانسانية ــ كرامة حقيقية اكثر منها كرامة رمزية .. كرامة لا تنفصل عن صفات الشخصية ومواهبها • والكرامة الاجتماعية النوعية رمزية لانها تراث الماضى وملك أمة أو طبقة او طائفة . والديموقراطية بوصفها تأكيدا لكرامة كل انسان تعبر عن حقيقة أعمق ، ولكنها تخطىء على اية حال فى تأكيد الجوانب المادية من الوجود الانسانى ، وما من مجتمع يستطيع أن يخفف من الحنين الى الاتصال الروحى والى الألفة والى الاتحاد بروح متآلفة ، والى الانعكاس الصادق للانا فى «أنا» أخرى • وكل مجتمع عبارة عن مجتمع « قيصر » ، بينما الاتصال الصادق هو مملكة الله ، والحنين الكامل فى العزلة هو حنين الروح ، والهرب من العزلة هو احتضان الحياة الروحية ، وطريق الاتصال الروحى حافل بالعقبات والآلام ، لأن كل شخصية تمثل عالما متميزا مستترا لا تدركه شخصية أخرى الا ادراكا جزئيا فحسب • ولكن حينما تدخل الشخصية فى العالم الروحى ، فانها تتشبع بجو من الاتحاد والأخوة •• هو مملكة الله •

---

(١) cf. Berdyaev, Christianity and Class war.

الفصل الرابع

- الشخصية والتغير
- الشخصية والحب
- الشخصية والموت
- الانسان القديم والانسان الجديد
- نتـــائج

جوهر الشخصية ــ كما ذكرنا آنفا ــ ثابت لا يتغير ، فالشخصية يطرأ عليها التغيير فى عملية تحقيق ذاتها ، بيد ان ذاتيتها تظل ثابتة دون تحول . ولنا الحق كل الحق أن نطرب لكل تغيير يقوى الشخصية ويقومها ويسمو لها . كما أن لنا الحق كل الحق أن نبتئس لكل تغيير يشوه منها أو يحولها بحيث لا نتمكن من معرفتها بعد ذلك. الشخصية خالدة فريدة ومحتفظة بذاتيتها ، ولكنها مع ذلك فى عملية دائمة من التغير الخلاق لأنها فى حاجة الى الزمن لتحقيق كل امكانياتها الى أقصى درجة ، ولابد لها دائما من أن تحاول حل المتناقضات(١) وعلى الرغم من انها معادية تماما للزمان لأنه مرادف للموت ، فانها تولد الزمان فى عمليـة النمـو الذاتى ، وبذلك توفق طبيعتها المتناقضـة بين التغير والثبـات ، وبين الزمان وما فوق الزمان . والشخصية أى شيء : الا أن تكون استاتيكية (ثابتة) ، فان طبيعتها نفسها تقتضى التغير والتجدد الخلاق ، ولكنها تحاول التوفيق بين التحول وبين الاحتفاظ بذاتيتها الأساسية وطابعها الخاص . وهى توجد بفضل تحالف غامض بين التغير والتجديد من ناحية ، وبين الدوام والاحتفاظ بذاتها من ناحية أخرى . وفى تعريفنا للشخصية الانسانية يجب أن

---

(١) cf. Le Senne, Le Devoir.

ننظر الى دوامها الأساسى ، والى احتفاظهـا بذاتيتهـا على الرغم من التغيرات الخارجية المتعددة واكتساب صفات أخرى جديدة . ويتمثل هذا التحالف أفضل تمثيل فى شعور الانسان برسالة ومصير مقدر يتم فيه التوفيق حقا بين التغير والخلق، وبين الاحتفاظ بذاتية الشخصية، باعتبارها مقومات متكاملة لحياة متماسكة تتجه نحو هـدف أعلى . والقاعدة هى أن الناس يفشلون عادة فى أن يحسبوا حسابا لبقاء الذاتيـة الشخصية على الرغم من التغيرات الظاهرية . غير أن سر الشخصية ومضمونها الفريد يتضح أبلغ وضـوح فى الحب ، ولهـذا السبب يقـوم بعملية اخفاء بالنسبة لغير العشـاق . وتظل ذاتية أية شخصية اخرى غامضة فى اغلب الأحيان ان لم ينرها الحب والتعاطف والنية الحسنة . وترتبط حياة الشخصية ارتباطا وثيقا بالحب الذى بدونه لا يمكن تحقيق الذات او القضاء على العزلة ، ولن يكون ثمـة اتصـال روحى . والحب بدوره يفترض الشخصية ، فهـو علاقة بين شخصية واخرى ، وهو وسـيلة لتحرير الشخصية من أسر الذات والسماح لها بأن تتوحد مع شخصية اخرى ، وهو الفعل الذى تتقبل به الاعتراف الخـالد والتوكيد (١) . وتصـور الحب لا وجـود له فى المذاهب الواحدية التى لا تؤكد ذاتية الشخصية بينما تؤكد ذاتية كل الشخصيات ، وكمون مبـدأ واحد فيهـا جميعـا ، وتوحد « الأنا » و « الأنت » . اما الصفة الأساسية للحب من ناحيـة أخرى فانهـا تتألف من كشف شخصية فريدة أخرى ، وكشف تلك الحقيقة وهى ان الشخصية لا تنمو الا فى علاقتها بشخصية اخـرى .. الحب اذن ثنائى لأنه يفترض قيـام شخصيتين بدلا من قيام ذاتية لا تنوع فيها ، وهذه الحقيقة الا وهى أن الشخصية فريدة وانها تؤلف « أنت » — هذه الحقيقة أساسية فى فهمنا لسر الحب ، وبدونها تظل الشخصية مستعصية على الفهم . أما النزعة الشخصية فتؤكد حب الكائن العينى الحى ، حب « الأنت » فى مواجهة حب الخير « أو أية فكرة مجردة اخرى ، ذلك أن حب الخير يمكن أن يتحول فى يسر الى حب للشىء»، والنزعة الشخصية تدافع عن حب الانسان للانسان .. للشـخصية الفريدة ، للانسـانية الالهية باعتبـارها متميزة عن حب الله ، وقيمة الانسـان فوق الشـخصية . وهنـا تقف المذاهب الأخلاقية المثالية والواقعيـة وجها لوجه . فالأخـلاق المثالية تؤكد حب المثـال والقيمة ، بينما تحبذ الأخرى حب الانسـان فى حد ذاته . ولـكن من المؤكد ان

(١) cf. Max Scheller, Nature et Formes de la Sympathie.

حب الانسان فى حد ذاته لا يمنع من حب القيمة والـكيف والدرجة ، بل العكس !! يجب أن يتعايش هذا كله كما يتعايش ما هو انسانى مع فوق الانسانى فى الشخصية نفسها ، وكما يتعايش فيها الواقعى والمثالى معا . ومعنى أن نحب شخصية أخرى هو أن ندرك الذاتية والوحدة الكامنة خلف التغير الدائم والانقسام الذى يتم فيها ، ومعناه أن ندرك نبلها من خلال أحط حالاتها . الحب وسيلة تضىء لنا ظلام العالم الموضوعى ، وتخترق لنا قلب الوجود حتى تحل « الأنت » محل « الموضوع » ثم تقضى عليه فى النهاية . فالحب الحقيقى اذن بشير بحلول مملكة الرب ، وحلول مستوى آخر من الوجود متميز عن العالم الموضوعى الوضيع حيث لا تكون الشخصية تغيرا دائما فحسب ، بل خداعا مستمرا . وفى هذا العالم الوضيع تتوارى ذاتية الأنسان وتتحلل شخصيته ويكتشف الغموض صورته الفريدة .. وفى مثل هذا العالم لا وجود للاتصال الروحى ما دامت الشخصية وصفاتها تلقى جميعا كل ازدراء واحتقار . غير أن قضية الشخصية تجد لها نصيرا فى توى الذاكرة والحب والغرائز الخلاقة . واذا كان من غير الضرورى الاحتفاظ بذاتية الشخصية بالنسبة لأغراض الحياة الاجتماعية والمجتمع ، فانه لا يمكن قيام الاتصال الروحى بغير تلك الذاتية .

ونحن لا نستطيع أن نستغنى عن الحب فى علاقاتنا بالآخرين أو بأنفسنا . وليس الشخص الأنانى شخصا يحب نفسه بالضرورة ، فقد يحتقر نفسه ، ولهذا السبب تراه يضمر أشد أنواع الحقد للناس، وهذا الشعور بالضعة قد يدفعه الى البحث عن التعويض فى القسوة على الآخرين (١) . وهكذا يمكن أن يكون الشخص الأنانى فى حرب مع نفسه ومع الآخرين . وقد كان يقال لنا : « أحب لأخيك ما تحب لنفسك » وهذا يستلزم أن نحب أنفسنا ، وأن نمزج أنفسنا فى حب شخصياتنا ومع ماهياتها الفريدة . وبغض النفس الذى يبلغ حده الأقصى هو وحده الذى يمكن أن يحجب ادراكنا للشخصية لأن هذا الادراك قائم على الحب باعتباره حدس الشخصية ، وينبغى علينا أن نمارس هذا الخلاص تجاه أنفسنا كما نمارسه تجاه الآخرين ، ولا يمكن أن يتوقع منا أن نحرم أنفسنا من الحب حتى حينما يطلب منا أن نضحى بأنفسنا ، وهكذا نرى أن نمو الشخصية تقتضى التضحية

(١) هانم رجى ، الفكرة الأساسية التى تقوم عليها نظرية « آدلر » .

والايثار ، والانتصار على التمركز حول الأنا ، ولكنه لا يقتضى مطلقا بغض الذات .

والألم والعذاب رفيقان ضروريان المحاولة الشخصية فى تحقيق ذاتها . وقد آثر النـــاس فى أغلب الأحيـــان أن ينصرفوا عن المحاولة بدلا من مواجهة العذاب . ولذلك كان انكار الشيوعية للشخصية نتيجة للرغبة فى الغاء الألم والعذاب ، وتأمل الشيوعية فى بلوغ هذه الغاية عن طريق التنظيم الجماعى ، لا للحياة الاجتماعية فحسب ، بل للوعى الانسانى أيضا . والكفاح من أجل تحقيق الشخصية كفاح بطولى ، والبطولة قبل كل شيء فعل شخصى . والشخصية لا ترتبط بالحرية فحسب ، ولكنها لا يمكن أن توجد بدونها . ولابد اذن لتحقيق الشخصية من اكتساب الحرية الباطنية ومن تحرير الانسان من كل تحديد خارجى . وليس من الممكن الشعور بالحرية فى حالة تتحكم فيها الضرورة . بيد أن الشعور بالحرية عبء ثقيل على كاهل الانسان والألم والعذاب مصاحبان له ، والمأساة خاتمته (١) . وتجنبا لهذه النتائج وهو هروبا من الحل المفجع يضحى الناس غالبا وعن عمد بحريتهم ، وهكذا نجد نظريتين للوجود فى تعارض دائم ، فاحداهما تجعل هدف الانسان خلاصا سلبيا صرفا ، أو الحرية المرادفة للعنة أو الحرية من كل عذاب فى الزمان والأبدية ، والأخرى تعتقد أن الخير الأسمى هو تحقيق الانسان لذاته ، وفى نمو الشخصية ، وفى التصاعد الكيفى ، وفى بلوغ الحق أو الجمال أو بعبارة موجزة ــ فى الحياة الخلاقة . فقد تكون رغبة الانسان للخلاص اسقاطا لأنانيته الأرضية بحيث يتخذ طابعا فوق ــ طبيعى . ولا حاجة بنا الى القول بأن هذه الرغبة يمكن تفسيرها أيضا باعتبارها وسيلة لبلوغ حياة تامة كاملة . ولتحقيق هذه الحياة ينبغى على الانسان أن يتسلح بشجاعة صلبة ، وينبغى أن يؤكد صدق شخصيته ازاء الخوف والقلق من الحياة والموت ، وازاء المخاوف التى تتولد عن التقديرات النفعية ، والقلق من أجل السعادة بغض النظر عن اى تفكير فى الحرية والكمال . والمبدأ الشخصى نقيض المبدأ النفعى الفردى أو الاجتماعى ، اذ يؤكد أن كل شخصية ــ من وجهة النظر الاجتماعية ــ يجب أن توضع فى حالة من الوجود الانسانى تتناسب مع كرامتها الانسانية .

والوجود الفاجع للشخصية فى هذا العالم هو فى أساسه نتيجة لارتباطه الوثيق بالموت الذى لا يؤثر سره على « اللاشخصى » ،

(١) cf. Berdyaev, Dostoievsky and Freedom and the Spirit.

والشخصية بفضل ماهيتها أو فكرتها ـ خالدة أبدية • غير أن عالمنا فانٍ : خاصة نذن ماهو خالد أبدى ، ولهذا السبب فان الشخصية أكثر تعرضا لخطر الموت عندما توشك على بلوغ الغاية من تحقيق ذاتها • وهدف الشخصية وفكرتها جزء كامن فى النظام الأبدى للكون ، وبالتالى ، لا توجد مأساة أبلغ تاثيرا من وفاة شخص أوشك على تحقيق شخصيته ، ولكننا حتى لو اعترفنا بامكانية بلوغ الخلودالطبيعى عن طريق انكار الشخصية انكارا كاملا ، فان هذا النوع من الخلود لا يشترك فى شيء مع الأبدية . وقضية الشخصية هى تحرير الانسان من حالة العبودية الطبيعية التى يرسف فيها . فقد كان الانسان بادىء الأمر عبدا للطبيعة ، ثم أصبح عبدا للدولة أو للامة أو لطبقة ما ، ثم أصبح أخيرا عبدا للتكنولوجيا أو للمجتمع المنظم . وتحقيق الانسان لذاته يواكب تحرره من كل عبودية وسيطرته على كل الأشياء . ومهما يكن من امر ، فهناك عبودية لا تستطيع أية جمهورية مثالية أو تنظيم اجتماعى أن يحرره منها ، وهذه هى قوة الموت النهائية • والانتصار على الموت هو الاعتراف بسره ، هو اعتناق موقف مناقض. ومن الحق أن التحقق الذاتى يمهد الطريق للاتصال الروحى فى مجالات الحياة الاجتماعية والكونية معا ، وبذلك يساعد على تجاوز حالة العزلة المشابهة للموت .. وتحقيق الاتصال الروحى معناه انتفاء كل خوف من الموت ، هو الشعور بأن قوة الحب أقوى من سلطان الموت ، وهؤلاء الذين حققوا الاتصال الروحى ليسوا منزهين عن فراق الموت الفاجع ، ولكنهم يشعرون أن هذا الفراق مقصور على العالم الطبيعى. وفى عالم الروح ، وفى أعماقه ، يصير الموت طريقا للحياة الحقيقية مادام الموت لا يؤثر الا على العالم الموضوعى ، وخاصة على شخصية هؤلاء الذين استسلموا لقوته الغريبة • والتحقق الذاتى عملية مستمرة من الخلق الذاتى ، وتحسين فى الانسان الجديد على حساب الانسان القديم . وعندما نتحدث عن ظهور الانسان الجديد ، فاننا لا نعنى الخضوع لما هو زمانى • أو انكار مضمون الانسان الأبدى ، وانما نعنى به تحقيق ذلك المضمون الأبدى .. فالتغير والتجديد والخلق متضمنة جميعا بلا أدنى شك فى عملية تحقق الصورة الالهية فى الانسان ولكن بمعنى مختلف تماما عن التصور الفعلى للانسان الجديد فى العصر التكنولوجى ، فالنظرية الفاعلية عن الانسان تطرح فكرة الأبدية جانبا، وهى لا تفعل أكثر من أن تضع « الأنا » فى مواجهة الموضوع لتدفع الأنا فى عالم موضوعى . وينبغى على « الأنا » بالطبع أن تحقق ذاتها فى عالم موضوعى اذا كان لابد من أن تنمو كل جوانب الشخصية (بما فى

ذلك المعرفة)) نموا كاملا ، بيـد أن النمو الموضـوعى لا يمكن أن يكون مطلقا ، أو نهائيـا بأى معنى من المعانى • والتحقق الكامل للشخصيـة لا يتم الا فى المستوى فوق ـ الطبيعى ، فى مستوى الحرية الروحيـة ، الاتصال الروحى والحب •

والانسان كائن تاريخى ، وهو يسعى الى تحقيق ذاته فى التاريخ، ومصيره من اجل ذلك تاريخى ، وحياته وأفعاله الخلاقة محصـورة داخل اطار التاريخ ، وهو مضطر داخـل هـذا الاطار الى أن يمنح خياله المبدع صورة موضوعية . ومن الممـكن حقـا أن تعزو فشـل الانسـان فى تحقيق أحلامه الى هـذه الحقيقة مبـاشرة وهى أن أعماله الخلاقة تصاغ صياغة تاريخية . والتاريخ بفضل طبيعته الموضوعيـة لا يكترث على الاطلاق بالشخصية الانسانية ، بل يبدو أن عنايته بهـا أقل من عنايتـه بالطبيعة ، فهـو يرفض فى اصرار الاعتراف بالقيمـة العليا للشخصية ، فانه ان فعل ذلك فقد علة وجوده raison d'être . وعلى الرغم من هذا كله فان الانسان خوفا من افقار نفسه والتقليـل من شأنها لا يستطيع أن يرفض المشاركة فى التاريخ بوصفه مصيره وطريقه المرسوم ، ولكن ينبغى أن يحاذر من أن تتحـول عقليتـه الى عقلية تاريخية صرفة ، ومن أن يقيم معاييره على الضرورة التاريخيـة وحدها ، ومهمة خلق الحضارة تلقى على عاتق الانسان بفضل وجوده التاريخى ، فالحضـارة أيضـا طريقه ومصـيره ، وهو فى خلقه للقيم الحضارية يساعد على تحقيق نفسه كائنا خالقا ، والحضـارة تنقـذ الانسان من حالة الهمجية البدائية وتعمل على السمو به ، ولكنهـا تضفى صورة موضوعية على أعماله الخلاقة ، والحضارة الكلاسيكيـة صورة كاملة لنشاط الانسان الموضوعى فى ميـادين الدين والأخـلاق والعلم والفن والقانون • والتأثير النهائى للصورة الموضوعية هو اخماد جذوة الابداع عند الانسان واضعاف دوافعه الخـلاقة بأن تخضعهـا جميعا لحكم القانون ، وتصبح نوعا من التوقف يعترض سبيل الامكانية الخاصة بتغيير العالم . والقيم العليا فى أية حضـارة قائمة لا تكترث أيضا بحياة الانسان الباطنية ، وهى تتخذ موقفا من الشخصية الانسانية يماثل فى قسوته العالم التاريخى الموضوعى • واذا كان الأمر كذلك فان للحضارة أيضا يوما للحساب ، فانها ستتلقى حكم هؤلاء الذين ساعدوا على خلقها ، والوثنية الحضارية خليقة باللوم كالهمجية سواء بسواء • ولكن لا خيـار فى الأمر ، اذ علينا أن نواجه هذا الصراع الفاجع ، هذا التناقض الذى لا يمكن حله ، وأن نحمل المسئولية كلها على عاتقنا ،

لا خيار الا فى أن نضع على كواهلنا عبء التاريخ والحضارة معا ، عبء العالم الرهيب المحزن الوضيع ، والمخرج الوحيد هو معرفة أن هناك حلا نهائيا فى المجال فوق ــ الطبيعى من الوجود حيث نشارك فى هذا المجال بفضل حياتنا الروحية ، وهناك يتخطى وعينا العالم الموضوعى بعد أن دعمته التجربة الفاجعة .

والانسان هو الفكرة المسيطرة على حياتى .. صورة الانسان وحريته الخلاقه ، ومصيره المبدع ، وهذا هو أيضا موضوع الكتاب الذى اشرف على نهايته ، بيد ان التعرض للانسان معناه التعرض لله ، وهده فى نظرى هى المسألة الأساسية ، فان مشكلة مركزيه الانسان ونشاطه الخلاق لم تلق عناية جدية من البحث على يد آباء الكنيسه والفلسفة المدرسية . والنزعة الانسانية فى عصر النهضه هى التى قامت بالكشوف الأولى الهامة فى هذا الاتجاه (١) . وقد حان الوقت الان لوضع هده المشكله بطريقه اخرى ، لأن النزعة الانسانيه فى عصر النهضة كانت لا تزال طبيعية الى حد كبير فى نظرتها . وفى زماننا هذا يميل الفكر النظرى الى أن يكون آكثر تشاؤما ، ولكنه فى الوقت نفسه أكثر حساسية للشرور والآلام المنبثة فى حنايا هذا العالم ، وتشاؤمه ليس سلبيا ، وانما يحاول مغاليه هذه الشرور ، فهو تشاؤم ايجابى خلاق ، وهذا أيضا واحد من موضوعاتى الأساسية ؛

وفى هذا الكتاب حاولت أن أعرض هذا الموضوع فى صورة مقال فى الفلسفة الوجوديه ، وقد خطا « فويرباخ » خطوات فى هذا الاتجاه حينما حاول عبور الهوة القائمة بين الله والانسان ، وتلاه « نيتشه » فتقدم خطوة اخرى حينما اذاع فكرته عن الانسان الأعلى ، وحينئذ اصبح الانسان أداة أو آلة لهذا التحول ، بل كان عليه أن يشعر بنفسه فضلا عن ذلك بانه أداة أو آلة .. ومن المحتم علينا فى وقتنا الحاضر أن نفهم مرة أخرى أن اعادة كشف الانسان سيكون كشفا لله من جديد . وهذا هو الموضوع الأساسى فى المسيحية ، وفلسفة الوجود الانسانى فلسفة مسيحية ، فلسفة انسانية الهية ، والحق هو معيارها الأسمى ، ولكن الحق ليس حالة موضوعية كما لا يمكن ادراكه بحسبانه موضوعا .. الحق يتضمن قبل كل شىء نشاط الانسان الروحى ، وادراكه يتوقف على درجة الاتصال بين الناس ، وعلى اتصالهم فى الروح ؟

---

(١) ربما كانت أقيم الأفكار التى ظهرت فى هذا العصر واقربها الى طريقتى فى التفكير هى افكار « ميراندولا » Mirandola و « باراسيلوس » Paracelus .

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣٥٠١ / ١٩٨٢

ISBN ٩٧٧ ــ ١ ــ ٣٨ ــ ٢

.. مؤلف الكتاب مفكر روسى تعبر فلسفته عن حياته الداخلية وعواطفه العميقة وتجاربه الفكريه والعمليه وكان من أهم ما شغل فكره وتأملاته العناية بالشخصية الإنسانية واستقلالها الروحى ومقاومتها للمذاهب الكلية ابقاء على كرامة الإنسان.

.. فالشخصية عنده لا تنمو ولا تتقدم إلا فى كنف الحب والعطف والشعور بمعنى الجماعة والعمل الخلاق الموجه إلى الخير العام الشامل. ان الوجود الحق - فى رأيه - هو وجود الشخصية الحرة

.. إن روح كل إنسان لها وجودها المستقل ولها حقوقها وإمكانياتها التى ليس لأى شيء سيطرة عليها. ومن ثم فهو رافض للفلسفات التى تنكر حق الروح فى الاستقلال والحرية أو التى تنتقص قوى الإنسان وإمكانياته، أو التى تعتبر الإنسان مجرد آلة للروح العامة الشاملة..

مطابع الهيئة

١٨٠ قرشاً